التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر

في القرن التاسع عشر

سامي سليمان محمد السهم



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
٢٠٠٠

الاشراف الفنى :

محمــود الجــزار

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



تقـــــديم

يسرنى أن أقدم للقارى العزيز هذا الكتـاب عن « التعليـــم والتغيير الاجتماعى فى مصر » للدكتور سامى سليمان محمد السهم وهو فى الأصل رسالة علمية تحت اسم : « التعليم ومشــــروعات النهضة المصرية فى القرن التاسع عشر » حصل بها صاحبها على درجة الدكتوراه من كلية التربية بجامعة عين شمس ٠ تحت اشراف الدكتورين احمد عمار وشكرى حلمى ٠

والكتاب يتكون من تمهيد تناول فيه مشروعات النهضة التى سبقت مشروعات النهضة المصرية فى القرن ١٩ ، وهــى النهضـــة الأوروبية ، والنهضة اليابانية ، ثم ٠ النهضة المصرية فى القرن ١٩ ٠

واتبع هذا التمهيد بسبعة فصول وخاتمة ٠ وفى الفصل الأول عالج أحوال مصر الاقتصادية والسياسية والثقافية قبل القرن ١٩ وفى الفصل الثانى عالج قوى التغيير فى مصر فى القرن ١٩ ٠

أما الفصل الثالث فعالج فيه مشروع النهضة العســـكرية ، وارتباطه بنهضة التعليم عموما ٠ كما عالج فى الفصل الرابـــع مشروع النهضة الاقتصادية وتاثيره فى توجه التعليم فى مصر ٠ وتناول فى الفصل الخامس النهضة الثقافية ودورها فى نهضـــة

المجتمع المصرى · ثم تناول فى الفصل السادس نهضة الفكر السياسى ، وظهور الدولة المدنية الحديثة فى مستهل القرن التاسع عشر · وعالج فى الفصل السابع مشروع النهضة التعليمية · واختتم الباحث دراسته بخاتمة تحليلية مهمة ·

والكتاب بذلك يعد دراسة شاملة للنهضة المصرية خلال القرن التاسع عشر ، ودور التعليم فى هذه النهضة ، وتفاعله مع التغيير الاجتماعى الذى حدث ، وطبيعة هذه النهضة المصرية من حيث ارتباطها بالغرب ارتباطا وثيقا عن طريق استعانتها برجاله ، واقتباسها أساليبه ، فى الوقت الذى كان الغرب يتعامل مع مصر باعتبارها مجالا لمد سيطرته ، وبسط نفوذه السياسى والاقتصادى ، وأخيرا احتلاله العسكرى ·

وأملى أن يجد القارىء الكريم فى هذه الدراسة العلمية المتميزة ماينشد من فائدة ومتعة ·

والله الموفق

رئيس التحرير

د· عبد العظيم رمضان

تمهيـــــد

* توطئـة للموضـوع
* الدراسات السابقة
* تسـاؤلات الدراسـة
* اهميـــة الدراسـة
* منهــــج الدراسـة
* معالـــم الدراسـة

« الذين لا يذكرون الماضى ، محكوم عليهم ان يعيشوه مرة أخرى » .

جورج سانتايانا

توطئة للموضوع :

تزايدت فى الآونة الأخيرة اعادة طرح السؤال – الذى سبق طرحه منذ طلائع التحول الوطنى فى النصف الثانى من القرن ١٨ فى مصر أيام على بك الكبير – لم الانحدار ؟ وما السبيل الى النهضة(١) ؟

وقد حاول العقل المصرى – ومايزال – فحص أسباب التخلف ورصدها ، وطرح عوامل النهضة وتوصيفها على مستوى الفكر النظرى ، وعلى مستوى الفعل السياسى الرسمى ، وكذلك على مستوى المساهمات الجماهيرية التطوعية ·

ورغم الاختلاف حول نقطة بدء التاريخ المصرى الحديث حيث يقول البعض : انه بدأ مع الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨ والتى خلفت وراءها فراغا سياسيا من جهة ، وشعبا حركت المواجهة العسكرية فيه عوامل التحدى الحضارى من جهة أخرى(٢) فى حين يقول البعض الآخر : بأن توجهات الحداثة بدأت مع تولى محمد على حكم مصر سنة ١٨٠٥ اذ يعد أول حاكم مصرى يواجه بطريقة حازمة متطلبات تلك الحداثة(٣) · بيد أن الفريقين يتفقان على أن أساس

الحدث ومحركه واحد ، وهو احتكاك مصر بالثقافة الغربية(٤) . وقد وقف العقل المصرى حيالها متسائلا : أنساير الحضارة الغربيـــة الجديدة أم نقاومها أم نحيى حضارتنا الخاصة ، ولكن على نهج مختلف(٥) ؟

ولما كان تراث الثقافة السائدة قبيل بداية القرن ١٩ ذا طابع دينى تصوفى منغلق قليل الجدوى والحيوية فى مواجهة متطلبات الحداثة(٦) ، لم يجد محمد على بدا لتحقيق طموحاته من اقتباس النظم الأوربية الحديثة ، خاصة فى مجال العلوم والفنـــون مما يمكن اعتباره بمثابة أساس نهضة مصر الحديثة(٧) ٠

ولم يكن مشروع النهضة المصرية العلوى منذ بداية القرن ١٩ وحده على الساحة المصرية العربية ، بل كان ثمة مشـــاريع نهضوية عديدة اتخذت لنفسها مسارات متباينة ، فكان منها القومى والماركسى والاسلامى والليبرالى ٠

وربما يشير رصد الواقع العربى المعاصـــر الى تأزم تلك المشروعات وتوالى احباطاتها كما يبدو ذلك فى انصراف النـــاس عن المشاركة السياسية وغياب الديمقراطية وعدم احترام حقــوق الانسان وسيطرة البيروقراطية ورقابة أجهزة الأمن وانتشار الأمية، وتدنى مستوى الحياة لغالبية الجماهير ، وتراجـــع العقلانية فى الفكر والجدية فى العمل(٨) ، وقد دفع ذلك الى اعادة قراءة تلك المشروعات قراءة اجتماعية تربوية متروية لتبيان موقع التعليـم فيها ، لأنه من المسلم به ان يكون التعليم فى قاب ذلك المعترك النهضوى ٠ فالتعليم متغير تابع للتحولات المجتمعية ، ومحرك فاعل لتلك التحولات فى الوقت ذاته(٩) ٠

فالعلاقة بين التعليم والتغيرات المجتمعيــة أبعد ماتكون عن العلاقة الخطية أحادية الاتجاه ، بل هى علاقة جدلية ، فالتعليــم يغير المجتمع كما يتغير به ، أى أن كل تغير مجتمعى يصـــاحبه ويقترن به تغير تعليمى ، كما أن نجاح التعليم يقــاس بســـرعة استجابته وتجاوبه مع تلك المتغيرات المجتمعية ، ومن ثم يمكن القول بأن التعليم يتداخل مع مشروعات النهضة الى حد يصل أحيانا الى شبه الترادف(١٠) ٠

ان مفهوم النهضة متخلل حالة مجتمع يريد تجديد نفسه فى كل مناحى الحياة من حيث أساليب الفكر والتعبير والفعل واستعادة القدرة على انتاج المعرفة بحيث يتفاعل مع الحضارات الأخرى تفاعلا متكافئا ٠ وهذا المفهوم يشير الى أهمية التعليم الذى يصبح فى هذه الحالة من أهم آليات النهضة التى تقوم على تحقيق التعامل الواسع والعميق مع الثقافة العلمية المرتبطة بعلوم الطبيعة والحياة والرياضيات ، والارتفاع بمستوى التدريس والبحث العلمى ، ونشر المعرفة العلمية بين الناس . ولا يعنى هذا — من مفهوم النهضة نفسه — انكار التراث ، بل الالتفات اليه ، ولكن وفق نظرة نقدية انتقائية والاســـتعانة بكـــل ما فيه مما يدفـــع نحو المزيد من النهضة(١١) ٠

ومن المعروف أن مشروعات النهضة المصرية فى القرن ١٩ والتى بدأت مع مشروع محمد على فى اقامة دولة وطنية مستحدثة على النمط الأوربى اعتمد فى آليات تكوينها على التعليم بالدرجة الأولى(١٢) ٠ حيث تمثل ذلك فى انشاء نظام تعليمى مدنى حديث على النمط الأوربى المعروف آنذاك لتوفير القوى البشرية القادرة على تحويل مشروعات النهضـــة الى واقع ملموس ، وما ارتبط بذلك من ارسال بعثات تعليمية الى الغرب ، وانشاء ديوان خــاص

بالمدارس ، واصدار أول جريدة رسمية ، وما تبعه من رواج حركة اصدار الصحف بعد ذلك ، ونشاط حركة الترجمة ، وانفتاح مصر أمام الرحالة والمفكرين الأجانب للاقامة والمساهمة فى انجاز مشروعات النهضة(١٣) ٠

أضف الى ذلك أن الفكر النهضوى الذى أهتم برصد عوامل التخلف وتحديد طرق الخلاص اعتمد فى الأساس على التعليم وغيره من مؤسسات التربية ٠ وعلى سبيل المثال ، أكد الطهطاوى على أن الأمة التى تنهض فيها التربية تتقدم بها مظاهر الحضارة الأخرى ، فتكون أهلا للحصول على حريتها(١٤) .

كما أن شواهد التاريخ ترجح ذلك ، اذ نلحظ على سبيل المثال اعتماد التقدم – أساسا – فى مشروعات النهضة فى عصر محمد على والخديو اسماعيل على التعليم ، سببا ونتيجة ، وارتباط تقدم كل من الطرفين بتقدم الطرف الآخر ، وتعثر مشروعات النهضة أيام عباس وسعيد انعكس على تعثر التعليم وكان بسببه كذلك(١٥) ٠

من هنا وجبت دراسة آليات التفاعل بين مشروعات النهضة والتعليم فى مصر فى القرن ١٩ ، ذلك القرن الحافل بقوى التغير والتغيير والتى رسمت خلاله مسارات كثير من قضايا الحداثة فى نظم التعليم والثقافة ، حيث تميزت تلك المشروعات النهضوية فى ذلك القرن بخصائص منها : –

١ – أتيح لها من الزمان ما كفل لها أن تنهض وتسقط دون تعسف من التاريخ ، ودون اجهاض فكرى من المجتمع ٠

٢ – تبدى فى ذلك القرن التداخل بين التعليم ومشروعات النهضة الى درجة وثيقة مما يجعلها نسقا منظما للدراسة ٠

٣ ـ تعددت مظاهر الجهود النهضوية ، فكان منها السياسى الرسمى ، والفكرى النظرى ، والأهلى التطوعى المصرى والأجنبى، والمصرى الخالص ، والعربى ايضا .

٤ ـ نشأت مؤسسات النهضة فى تربة مستقلة ومستقرة نسبيا ، وشهدت نموا للوعى الوطنى والقومى(١٦) ٠

٥ ـ تعتبر مشروعات النهضة فى تلك الفترة من اكثر المشروعات ارتباطا وتجسدا فى رصيد التيار النهضوى المصرى المعاصر بايجابياته وسلبياته واشكالياته(١٧) ٠

ولقد سبق مشروعات النهضة المصرية فى القرن ١٩ ، كما لحقتها مشروعات نهضوية عالمية ، حيث تأثرت بتوجيهات النهضة الأوربية فى العصر الحديث Renaissance والتى سبقتها فى القرن ١٥ ٠

كذلك جاءت لاحقة لها فى النصف الثانى من القرن ١٩ النهضة اليابانية فى عصر Miji مما يدعو الى محاولة التعرف على سمات كلا المشروعين لاستخلاص عوامل النجاح وعوامل الاخفاق فى كل منهما ، وذلك على النحو التالى :

اولا ـ النهضة الأوربية فى العصر الحديث :

كان الفتح العثمانى للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ ، وما تبعه من انهيار الامبراطورية البيزنطية وهجرة علمائها الى ايطاليا هو من ابرز نقاط التحول لانتقال اوربا من العصر الوسيط الى العصر الحديث مما عرف باسم عصر النهضة ، بينما كان ذلك الفتح العثمانى نفسه لمصر سنة ١٥١٧م بداية عصر عزلتها وتخلفها ٠

والنهضة ، حسبما جاء بمعجم وبستر(١٨) ـ على المستوى

اللغوى ــ تعنى ولادة ثانية ، ــ وعلى مستوى الممارسة ــ هــى نشاط محموم لاحياء الماضى واستلهامه وبعثه على صعيد الأدب والفن والثقافة والفلسفة والتمثيل والرسم والنحت والنقش ونشر التعليم ــ وعلى المستوى الزمنى ــ هى الحركة التى ظهرت بين القرنين الرابع عشر والسابع عشر فى أوربا ٠

والماضى الذى اهتمت النهضة باحيائه هو الماضى اليونانى الرومانى ذو الصبغة الفلسفية التأمليــة أى : النقيض لايمانية العصور الوسطى ، كما يتسم بالتعددية أى : النقيض من واحدية النظام الاقطاعى السلطوى ؛ تلك الواحدية التى كانت تقمع الصوت الآخر انطلاقا من ايديولوجيا كارزمية لا يحق لأحد التشكك بهــا مستمدة طاعتها من تعاليم الكنيســة الكاثوليكية وتفســيراتها البابوية ٠

ويمكن اجمال خصائص النهضة الأوربية فى العصر الحديث فى الآتى : ــ

١ ــ سياسيا : نمو السلطات السياسية المركزية على حساب النظام الاقطاعى والمتمثل فى تعدد الدويلات والامارات ، مما ساعد على بسط نفوذ الدولة خارج حدودها فى شكل مستعمرات ٠

٢ ــ اقتصاديا : ازدهار التجارة العالميــة عبر المحيطات خاصة بعد اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصــالح ، مما انعكس على ازدهــار صــناعة الســفن ومزيد من اســتغلال المستعمرات ٠

٣ ــ اجتماعيا : ظهور الطبقة البرجوازيــة التى عملـت بالتجارة والصناعة وسكنت المدن وكونت ثروات هائلة ونمت على أنقاض طبقة الاقطاعيين ٠

٤ ـ دينيا : تناقص ـ أو على الأقل ضعف ـ سلطة الكنيسة وممثليها من رجال الدين ، بسبب تضخم سلطة السياسيين وقوة نفوذهم ، وكذلك بسبب ثورة أفراد الطبقة الوسطى على الكنيسة من جراء ما كانت تحصل عليه من أموال تحت بند صكوك الغفران، مما ساعد على ظهور حركات الاصلاح الدينى البروتستنتينية ٠

٥ ـ علميا : حلت نظريات العلم الحديث فى تفسير الكون محل المعتقدات الدينية ذات الطابع الميتافيزيقى ، وحل الاستقراء التجريبى محل المعتقدات الفلسفية الدوجماطيقية ذات الطابع الاستنباطى ٠

٦ ـ انسانيا : حلت نظرية الطبيعة الخيرة للانسان محل نظرية الخطيئة الأبدية حيث أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية أن الشعوب البدائية تتمتع بطبيعة خيرة حتى قبل تلقيها تعاليم الأديان ٠

٧ ـ فلسفيا : ظهر فكر جديد تجاوز التراث اللاهوتى ، ومهد لعصر التنوير الذى غذت أفكاره الحركة الثورية الكبرى فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ، بفلاسفتها الذين نادوا بالحرية والاخاء والمساواة واعلاء شأن العقلانية(١٩) ٠

ولقد انعكست خصائص النهضة الأروبية فى العصر الحديث على سمات وآليات العمل التعليمى حيث برز الاهتمام بتنمية القدرات الانسانية المختلفة من عقلية وجسمية وخلقية ، بعد أن كان التعليم مركزا على الاعداد للحياة الآخرة ٠٠٠ وهذا ما جعل التعليم يمزج بين التربية الأدبية وتربية الفروسية ، كما اختط التعليم هدفا آخر وهو خلق الرجل الحر الذى يتميز بالقدرة على المساهمة فى مهام الحياة اليومية مساهمة قائمة على الالمام

بالمعلومات المتعلقة بالحياة ، بعد ان كان التعليم يتم بمعـــزل عن الحياة تحت مسئولية الرهبان ورجال الأديرة ، ومن ثم تميز التعليم فى عصر النهضة بزيادة التوسع والتعمـــق فى دراســة الآداب الاغريقية واللاتينية ، ونبذ المدركات الكلية المعنوية ذات الطبيعة الثابتة(٢٠) ٠

ثانيا ـ النهضة اليابانية :

خاضت اليابان تجربتها النهضوية فى النصـــف الثانى من القرن ١٩ ، وعرفت باسم عصر Miji وهى فترة حكم الامبراطور ميتسو ـ هيتو فى الفترة من ١٨٦٨م حتى ١٩١٢م والتى اعتمدت فلسفة جديدة للنهضة تضمنت خمسة محاور : ـ

١ ـ كل قرارات الامبراطورية تتخذ عن طريق مناقشـــات جماهيرية واسعة (نفس الروح الديمقراطية التى سادت النهضـة الأوربية ، والتى غابت تماما عن النهضة المصرية ، حيث احتفظ محمد على ـ وخلفاؤه من بعده ـ فى يده بالرقابة الكاملة على كل التفاصيل ، رغم وجود دواوين تضم خبراء ، الا أن آراءهــم كانت استشارية ، ولم يكن يسمح أن يشاركه غيره فى الرقابـــة الادارية أو السياسية) ٠

٢ ـ الحكام والمحكومون لهم نفس الحقوق فى ابداء الرأى .

٣ـ السعى الى أن يحقق عامة الشعب والمسئولون المدنيون والعسكريون أمانيهم ، حتى لا يكون هناك شعور بعدم الاقتناع .

٤ ـ ضرورة التخلى عن كافة التقاليد والعادات البالية فى الماضى لصالح الممارسات الحديثة المشتقة من الغرب ٠

٥ ـ السعى الى جمع المعارف من شـــتى انحاء العالـــم لتترسخ الامبراطورية على أسس متينة(٢١) ٠

ولتحقيق تلك الفلسفة تم خلق نظام ادارى حديث قـام على أساس فصل السلطات ، وازاحة غالبية أعضاء الحكومة القدامى بحيث صاروا مجرد رموز فى السلطة ، وأصبح القادة الفعليون الذين تزعموا عصر النهضة أعضاء أيضا فى مجلس المستشارين فى الوزارات المختلفة ، وأصبحت أوليجاركية حاكمة محدودة العدد وراءها وفرة متميزة من الزعامات الثانوية هناك والتى قامت برد اقطاعياتهم الى القصر ، وهى مرونة فى الاستجابة للمتغيرات(٢٢)

ونظرت اليابان للاقتصاد على أنه طريق للأمـــان القـومى والعظمة ، فشجعت البرجوازية الفنية الجديدة ، وأشاعت روح الحيوية فى القطاع الخاص . ويمكن القول : ان اليابان دخلت نهضتها بنظام حديث تلعب الاعتبارات الاقتصادية الدور الأساسى فيه ٠

وقامت النهضة اليابانية على أســـاس الانبهار الجـــارف والحماس المتأجج للحضارة الغربية ، ورفعت شعار « قلدوا الغرب ثم اسبقوه » ، وقام اليابانيون بترجمة البند الخامس من بنـود العهد الامبراطورى « جمع المعارف من شتى بقاع العالم » باهتمام جاد بالنظام التعليمـــى حيـــث انقســـم الجهد التعليمى الى قسمين : ـ

١ ـ نشر التعليم داخل البلاد وتطوير نظمه ، ففى ســنة ١٨٧٥م ، أى بعد ٧ سنوات من نهضة الميجى بلغ نسبة المتعلمين تعليما أوليا ٥٤٪ ذكورا و ١٩ ٪ اناثا ٠

٢ ـ ارسال البعثات الى الخارج لنقل أحدث ما وصلت أليه نظـــم التعليـــم ، وأخر ما اســـتحدث من ابتكارات علميـــة وتكنولوجية(٢٣) ٠

وتكونت جمعية ميجى السداسية Miji Six لتشجيع الدراسات الغربية ، ودعت للتدريس باللغة الانجليزية ، وظهـرت حالة من الهوس بالغرب امتدت لحوالى ٢٠ سنة أطلق عليها فترة السكر بالغرب(٢٤) ٠

ويمكن اعتبار الاصلاح التعليمى فى اليابان أهـم عوامـــل الاصلاح فى عصر الميجى ، نظرا لدور التعليـــم فى تغيير بنيـة المجتمع جذريا ، وذهنية الانسان ، وتهيئة امكانات المجتمع لمواجهة التحديات ٠

ولقد حل التعليم محل الطبقة والمولد لتحديد نمط الحيـــاة العملية التى يصلح لها الفرد ٠ وأصبح التعليم هو الذى يحدد دور الفرد ومركزه فى عصر الجدارة والتفوق اليابانى الراهن ٠

والواقع أنه لا يوجد سبب رئيسى لنجاح اليابان أكثر من نظامها التعليمى(٢٥) مما يدفع للتعرف على ملامح هذا النظام ٠

قبل عصر الميجى كان التعليم للخـــاصة من أبناء طبقـــة الساموراى والنبلاء والاقطاعيين والتجار ، أما العامة فلم يشأ الاقطاعيون أن يقدموا لهم أى قدر من التعليم ، اذ كان مبدأ متفقا عليه هو تنشئة الشعب على الطاعة لا التعليم ٠ ولهذا كان أمـــر تعليم العامة موكولا لرجال الدين البوذيين الذين يديرون ما يشبه الكتاتيب ، وهى مدارس المعابد فى المدن والريف وتسمى تيراكويا (Terakoya) هذا فضلا عن بعض المدارس الخاصة التى

تعلم اللغة الصينية والآداب الصينية الكلاسيكية . ويتركز التعليم فى هذه المدارس على الفلسفة الكونفوشية ، خاصة مدرسة تشى هس (Chi Hsi) (٢٦) .

وهكذا كان التعليم دينيا أخلاقيا نظريا وأداة لضمان الامتثال الاجتماعى والاتساق الوطنى والتماثل الفكرى ، يعتمد على حشو الرؤوس بتعاليم وقيم السلف لخلق انسان فاضل ملتزم بحكمة الآلهة والحكماء .

وعندما تولى فوكوازاوا (Fukuzawa) مسئولية الثورة التعليمية ، هاجم النهج التقليدى وحدد هدف التعليم فى أنه تعليم وثيق الصلة بحاجات الحياة اليومية للانسان(٢٧) فغلب الطابع العملى حيث تركز التعليم على كل ما يتعلق بالعالم الخارجى والمواءمة بين ما يتعلمه الطلاب وما تمتلكه الدولة من امكانات .

وقدمت برامج التعليم تعليما عالميا شامل الرؤية عن حضارة اليابان وتاريخها الطويل ، ورؤية عالمية عن حضارات العالم الكبرى ومعارف غنية عن الغرب وتاريخه وثقافته ، علاوة على تاريخ وحضارة الصين ، أى لم يكن تعليما منغلقا ، ولم يغفل اخلاقيات التراث اليابانى الحافز لتماسك المجتمع وتقدمه .

وأسهم القطاع الخاص بدور بارز فى سبيل نشر التعليم وبناء للمشروع القومى ، وتأكيدا للاستقلال والذاتية القومية وساعد الحكومة فيما عجزت عنه الميزانية الرسمية ، اذ أنشأ القطاع الخاص العديد من المدارس الثانوية فى مختلف التخصصات . كما اعتادت الشركات اليابانية — ولا تزال — تخصص جزءا من ميزانيتها لارسال بعوث خارجية للمزيد من الدراسة(٢٨) .

النهضة المصرية فى القرن ١٩ :

كانت النهضة المصرية فى القرن ١٩ تسير سيرا طبيعيا ، بطيئا ، لكنها ، على أية حال ، تسير وتتقدم فى مقابل النهضة الأوربية التى انطلقت منذ القرن ١٧ فى قفزات هائلة معتمدة على رصيد من الكشوف الجغرافية ، والاصلاح الدينى ، والدولة الوطنية / القومية ، والثورة الصناعية والاجتماعية والاقتصادية، كل ذلك وغيره ، على أرضية من مستعمرات واسعة تستنزف مواردها وتضحى بها قربانا فى معبد نهضتها ٠

فالنهضة فى أوربا كانت منولوجا استوحت فيه أوربا آدابها وفنونها وتاريخها ، فى حين كانت النهضة المصرية ديالوجا استوحت فيه مصر بعض مفردات نهضة الغرب ولكن على أرضية من تراثها العربى الاسلامى ، ومن ثم اتسمت نهضتها بالثنائية ، وتحركت على أرضية توفيقية الطابع تمثلت فى وجود منفصل — وان كان متجاورا — لكل من نتاج الحضارتين الغربية من جهة ، والعربية الاسلامية من جهة أخرى ٠

فالمفهوم اللغوى للنهضة فى عالمنا العربى يعبر عن المعنى الحقيقى لمحتواه اللفظى ، كحركة تاريخية قامت ضد الجمود والركود ٠ فالنهضة العربية مرادفة لمعنى الوثب والسير قدما فى سبيل تحقيق غرض ما من خلال استلهام النموذج الغربى وطريقة صعوده من جهة انتقائية لمفاهيم من داخل التراث الاسلامى واعطائها تفسيرات جديدة تتواءم مع الواقع الراهن وتطوره ، بيد أن ذلك لم يتحقق بصورة دينامية ٠

وبهذا المعنى تكون النهضة المصرية العربية قد تمظهرت فى

بعث الثقافة العربية الاسلامية وتاكيد شخصيتها فى اطار الحضارة البرجوازية الغربية(٢٩) ٠

وثمت عوامل وآليات عديدة وقفت وراء تلك النهضة فى اندفاعاتها الأولى منها : -

١ - وجود المدارس الأجنبية المختصة بالارساليات وغيرها من المدارس الوطنية العصرية المبنية مناهجها على الطراز الحديث ٠

٢ - انتشار فن الطباعة ٠

٣ - الاهتمام بالصحافة والتاليف والترجمة والنشر ٠

٤ - تاسيس الجمعيات الخيرية والأدبية والعلمية ٠

٥ - اشتغال المستشرقين بالآداب العربية وعلومها ٠

٦ - الاحتكاك بالغرب والذى بدأ مع الحملة الفرنسية واستمر عبر البعثات ونشاط الارساليات(٣٠) ٠

وقد تمخضت النهضة المصرية فى القرن ١٩ عن سمات يرصدها اسماعيل صبرى عبد الله فى الآتى :

١ - الاهتمام البارز بالعلم والبحث العلمى والتعليم ، مع أولوية كبيرة للرياضيات والعلوم الطبيعية والطب والهندسة والفلك ٠

٢ - اثراء اللغة العربية بمفردات كثيرة جديدة نحتت لتقابل المسميات الأجنبية لمفاهيم العلوم الحديثة ، وتخليص النثر العربى من التصنع ومن الألفاظ غير العربية ، وكذلك صك أسماء عربية لما يصطنعه الانسان من أدوات حديثة وعادات مستحدثة ٠

٣ – ظهور قطاع أهلى ضخم متعدد الأغراض يساند بقوة حركة النهضة ، ويكفى أن نذكر أن المستشفيات فى مصر حتى أواسط الستينيات كانت ممولة من الجمعيات الأهلية مثل مستشفى الجمعية الخيرية ، المستشفى القبطى ، مستشفى المواساة ، كما كانت المدارس الأهلية تتيح الفرصة لتعليم اعداد كبيرة من الشباب، وكذلك كانت الجامعة المصرية قائمة على تبرعات الأهالى ٠

٤ – تعدد الاهتمام بأوضاع المجتمعات الغربية بحثا عن أسباب تقدمها ورغبة فى تعريف الانسان العربى بها ابتداء من تخليص الابريز للطهطاوى الى ترجمة مؤلفات أوجست كونت وجوستاف لوبون فى علم الاجتماع ، الى التاليف فى الاقتصاد باللغة العربية ٠

٥ – قيام عدد كبير من الجمعيات العلمية التى احتضنت جهود البحث العلمى وأصدرت الدوريات العلمية كالجمعية الجغرافية ، والتاريخية ، والكيمياء ، والحشرات ، والاحصاء ، والجمعية الطبية ٠٠٠ الخ ٠

٦ – ظهور تيار اصلاحى دينى مهم ومؤثر ساعد على تخليص الفكر الدينى من بعض شوائبه مثله الافغانى ومحمد عبده والكواكبى والمرصفى ٠

٧ – اتسمت النهضة المصرية بطابعها العروبى الأصيل حيث شارك فيها العرب من أقطار شتى ، خاصة فى مجال العمل الصحفى ٠

٨ – تبنت النهضة قضية تحرير المرأة واتاحة فرص تعليمها(٣١) ٠

والملاحظ ان النهضة المصرية فى القرن ١٩ قد اعتمدت على اليات سبق أن اكدت نجاحها فى مشروعات نهضوية سابقة كالنهضة الأوروبية ، أو لاحقة كالنهضة اليابانية . غير أن نجاحها كان كاملا هناك ، ومنقوصا ومحدودا هنا .

ويقوم الباحث بتتبع قسمات النهضة المصرية فى القرن ١٩ من خلال التركيز على خمسة محاور رئيسية هى : الجيش ، الاقتصاد ، التعليم ، الثقافة ، السياسة ، والتى تمثل زوايا مختلفة لرؤية المشروع النهضوى المصرى الحديث برمته ، والتى لا تكتمل رؤيته الا باجتماعها معا ، مما يعنى انه ليس ثمة انفصال بين محور وآخر ، بل هى متداخلة يعزز بعضها بعضا أو قد يناقض بعضها البعض الآخر ·

فلا نهضة بلا دولة ، ولا دولة بلا قوانين ونظم مدنية تحدد مفهوم المواطنة وعلاقتها بالمواطنين ، وطرق المشاركة السياسية فى الحكم ، وتملك جيشا يحمى مشروعاتها ، ونظاما تعليميا يسد حاجاتها الفنية والادارية ويدعم ايدولوجيتها ، ونظاما اداريا يساهم فى تحقيق مصالحها وخدمة أغراضها ، وشرائح اجتماعية وليدة تتبنى أحلام نهضتها وترى فيها مصالحها وتطلعاتها ، ونظم انتاج تغذى كل ذلك وتتغذى عليه ·

ويقوم الباحث بتتبع تلك المشروعات فى علاقتها الجدلية بالتعليم باعتباره من أهم آليات النهضة فى القرن ١٩ بداية من حكم محمد على حتى نهاية حكم الخديو اسماعيل ·

الدراسات السابقة :

من الأمور المقررة فى ساحة البحث العلمى أن الباحث لا يبدأ من فراغ ، كما أن نتائج الأبحاث لا تنتهى للعدم ، ومن ثم يبدو

البحث العلمى سلسلة متواصلة الحلقات ، متعددة الرؤى والاتجاهات ٠

ومن هنا توافرت أبحاث ودراسات عديدة كان لها فضل السبق فى هذا المجال ، وعلى وفرة الدراسات السابقة التى تدخل مع الدراسة الحالية فى بعض نقاط التماس ، فان الباحث يركز على بعض منها : -

١ - دراسات أحمد عزت عبد الكريم للماجستير والدكتوراه(٣٢) والتى تناولت تاريخ التعليم فى مصر طوال القرن ١٩ ، وهى دراسات رائدة يصعب - ان لم يكن من المستحيل - دراسة تاريخ التعليم فى مصر فى تلك الفترة دون الرجوع اليها لما تقدمه من مسح شامل ودقيق ودءوب لواقع العمل التعليمى فى مصر فى تلك الفترة ، وهو مارجعنا اليه ، دون الوقوف عنده لما تتسم به الدراسة الحالية من تركيز واهتمام بمشروعات النهضة فى جوانبها المختلفة وتفاعلاتها مع التعليم ٠

٢ - دراسة زينب محمد فريد(٣٣) عن تعليم البنت فى مصر فى العصر الحديث من سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٨٨٢ ، وهى نفس الفترة التى تتم خلالها الدراسة الحالية ، غير أنها تقتصر على جانب واحد فقط هو تعليم البنت ، وهو ما تعرضت له الدراسة الحالية ولكن دون توقف وفى اطار مكانة ودلالة تعليم البنت كأحد مفردات النهضة التعليمية والاجتماعية فى القرن ١٩ ٠

٣ - دراسة زينب حسن حسن(٣٤) عن الفكر التربوى فى مصر فى الفترة من سنة ١٨٠٥ وحتى سنة ١٨٨٢ ، وهى دراسة تتم داخل النظام التعليمى وتتناول موضوعات مثل مفهوم التربية والطبيعة الانسانية وطرق التعليم ٠

٤ ـ دراسة أحمد عبد الرحمن عبد اللطيف الجاحد(٣٥) عن الاتجاه الاسلامى عند بعض مفكرى التربية فى مصر فى الفترة من سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٩٥٠ ، وهى دراســـــة تدور حول مدى حاجة الانسان للدين والاتجاه الدينى للثقافة المصرية والعلاقة بين الدين والتربية ، ووسائط التربية الاسلامية كالمساجد والكتاتيب والفكر التربوى عند بعض أعلام تلك الفترة ٠

٥ ـ دراسة شكرى عباس حلمى(٣٦) عن تطور تمويل التعليم الابتدائى فى مصر من أوائل القرن ١٩ حتى سنة ١٩٥٢ ٠

٦ ـ دراسة على خليل مصطفى أبو العينين(٣٧) التى تناولت الأصول الفلسفية للتربية فى مصر الحديثة بين الفكر الاســـــلامى والفكر التغريبى ، والتى انتهت الى أن التعليم فى مصر مستورد ، ومن ثم فهو يعانى من العزلة عن المجتمع !! ويؤكد الباحث فى النهاية أن الشخصية المصرية اسلامية السمات ، وهذا ما جعلها ترفض وتعادى كل ثقافة أجنبية يحاول أصـــحابها فرضـــها على الشخصية المصرية ٠

٧ ـ دراسة شبل بدران محمد الغريب(٣٨) التى تناولت تأثير فلسفة التنوير على حركة الفكر التربوى فى مصر فى الفترة من سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٩٠٨ ، والتى توصل فيها الباحث الى أن فلسفة التنوير فى الغرب لم تكن ثورة عقلية فلسفية فحسب ، بل كانت أيضا ثورة اجتماعية وسياسية وثقافية لها تأثيراتهـا على الفكر المصرى عند الطهطاوى وعلى مبارك ومحمد عبده ومصطفى كامل .

تساؤلات الدراسة الأساسية :

تحاول الدراسة الاجابة عن تساؤل محورى وهو : ما موقع التعليم على خريطة مشروعات النهضة المصرية الحديثة ؟ وما يتفرع عنه من تساؤلات فرعية من اهمها : ـ

- ما مفهوم النهضة كما ظهرت فى الغرب ؟
- ما خصائص وآليات النهضة الغربية وكيف انعكس ذلك على آليات وفاعليات التعليم ؟
- ما مفهوم النهضة كما ظهرت فى مصر فى القرن ١٩ اثر علاقتها بالغرب منذ مجىء الحملة الفرنسـية سـنة ١٧٩٨ ؟
- ما مجالات ومحاور النهضة المصرية الحديثة ؟
- ما دور التعليم وفاعلياته فى مشروعات النهضة المصرية الحديثة ؟

اهمية الدراسة :

ربما تعود اهمية هذه الدراسة فى أنها تحاول اكتشـاف العلاقة الجدلية التى حكمت ووجهت العلاقة بين التعليم ومشروعات النهضة المصرية الحديثة بموضوع أسىء فهمه واتهم بمساوىء عديدة عندما تبنت معظم دراسات تلك الفترة « المدرسة التقريظية للتاريخ فوقعت بين فكرتى اما نقد الاستبداد واما الاشفاق على بؤس الفلاحين »(٣٩) ومن ثم فان دراسة هذا الموضوع يمكن ان تمدنا بالدلالات والدروس والعبر الثرية التى تساعدنا على فهم جـذور مشكلات وأوضاع معاصرة ، ومن ثم تساعدنا على تعميق فهـم

امكاناتنا فى التغيير والنهضة . كما ان دراسة مثل هذا الموضوع بما يمثله من بعد تاريخى يعد جزءا من عمليات « نقد الذات فى مواجهة البحث عن كمالها والذى يوقعنـــــا فى الخطأ المزدوج : التصور الوهمى لكمال الذات ـ فقدان الذاكرة التاريخية الذى هو جزء من فقدان الهوية وتشويه صورة الذات »(٤٠) ٠

فأزمة الوعى بالذات هى فى حقيقتها أزمة انتماء « اذ كيف ينتمى الانسان لذات لا يعى هويتها ، فالوعى بالذات هو فى حقيقته وعى بالتاريخ ، ذلك الوعى الذى يزودنا بالخبرة التى تمكننا من اكتشاف قوتنا وايجابياتنا ، ضعفنا وسلبياتنا ، الوعى بالتاريخ ضرورى لاكتشاف شخصيتنا وتنمية انتمائنا للوطن ، ومن ثم تصبح كتابة التاريخ واعادة كتابته مهمة وطنية أولى ، ومسئولية وطنية عليا »(٤١) كما تصبح اعادة قراءة الدور التربوى والتعليمى فى مشروعات النهضة المصرية عملية مهمة حيث ان التربية تستطيع أن تخدم أى غرض ، تخدم الطغيان وتكرس الجهل والتخلف وتثبت الناس فى قيود عبوديتها أو تخدم أغراض الحرية(٤٢) ٠

ومن هنا تصبح العودة لدراسة مشروعات النهضة المصرية الحديثة محاولة لاكتشاف الذات والعالم معا توطئة للتمكين من السيطرة والتحكم فيهما ، واكتشاف الذات لا يكون باسترجـــاع أعمال الماضى ومأثوراته ، لأنها أدت دورها فى ظل أوضاع مختلفة، وانما يكون باستلهام الروح الايجابية واحيائها فنستلهم من القديم كل ما كان دافعا لتقدمه فى عملية تطورها وتجددها ، باعتباره من العوامل والقوى الموضوعية فى فهم وتشـــخيص حركة المجتمع والتعليم ٠

وبناء على ما سبق تبدو اهمية دراسة هذا الموضوع فى انها :

ـ محاولة لفهم وتفسير عوامل النجـــاح والاخفـــاق فى مشروعات النهضة المصرية فى القرن ١٩ ، ودور التعليم فى ذلك ، فى الاطار التاريخى للظاهرة موضـــوع الدراســـة بمقوماتهـا الاجتماعية وحركتها الفكرية ٠

ـ محاولة تأصيل ظاهرة العلاقة بين التعليم والنهضـــة ، واكتشاف خصوصيات تلك المرحلة التاريخية من جهة ، وما تحمله من قوانين يمكن تعميمها من جهة أخرى « فالتعليم القائم فى مجتمع ما هو المعبر عن المستوى الحضارى لذلك المجتمع ، فتعليم متخلف هو نتاج لمجتمع متخلف ، تفرزه بناه المتخلفة ٠ وسبيل تجاوز ذلك التخلف يتطلب جهدا مزدوجا : يستهدف احد أبعاده تغيير البنى الأساسية المتخلفة وتطويرها ، يوازيه ويعززه جهد تعليمى يعمل على تطوير ذاته اولا كيما يستطيع ان يطور المجتمع معه . وطبيعى أن تتعطل الجهود التى تبذل فى سبيل تطوير البنى المجتمعية اذ لم يهرع التعليم الى النظر فى ذاته والى تغيير بنيتـــه ومحتواه تغييرا يؤدى الى التعجيل فى تطوير سائر البنى .

ففى الأزمات الكبرى التى تعصف بحياة الأمم ، ترنو الأنظار الى التعليم وآلياته المختلفة لتجد فيها الخلاص »(٤٣) ٠

منهج الدراسة :

تعالج الدراسة قضية تربوية ذات طابـــع تاريخى ، لــذا يستخدم الباحث المنهج التاريخى . وليست دراسة التاريخ مجرد بحث فى الماضى وتصويره ، بل محاولة لالقاء الضوء على الحاضر حتى نعى كيفية حدوثه ونفهم جذور مشكلاته وسبل تكوينه وتقويمه وتغييره الى ما هو أفضل ٠

فلكل عصر الحق فى اعادة قراءة وكتابة الماضى فى ضوء تطلعات الحاضر والمستقبل ، فمن الصعب تلافى قراءة الماضـى بالقياس الى مسرح الأحداث المعاصرة ٠

فبنى النهضة المصرية المعاصـرة هى فى مجموعهـا بنى تاريخية التكوين ، فالحاضر ، الذى هو ركيزة الغد ومنطلقه ، حصيلة الافرازات والتراكمات التى تمخض عنها الماضى الطويل ٠

ومن هنا تبدو أهمية النظرة التاريخية لأزمة النهضة المصرية المعاصرة ، خاصة مع سيادة النزوع اللا تاريخى فى الفكر العربى عموما ، والمصرى خصوصا والذى يمنع من ادراك أبعاد الواقع فى خطوطه المتعرجة والمتداخلة ، أى يعطى رؤية مسطحة ، خطية ، لواقع معقد ٠

ومن ثم يبدو البحث التاريخى فى توجهاته التالية :

١ ـ انه ليس مجرد مجموع أحداث الماضى بل هو جـذور للواقع القائم وجزء حى منه ، ومن ثم فالنظرة التاريخية هنـا محاولة لكشف الأبعاد العميقة للحاضـر فى تكوينـات الماضى وديناميته ٠

٢ ـ انه ليس مجرد نزهة فى الماضى ، بل هو محاولة جادة للكشف عن أسباب تخلفنا ، ذلك التخلف الذى تم فى اطار عصر معين وظروف معينة ، لكن ما تزال أسبابه تعمل فى الحاضـر بشكل آخر ، فأسباب التخلف مازالت قائمة ، لكنها متكلسة تدافع عن نفسها من وراء دعاوى وتبريرات مختلفة ، ومن ثم لابد من التعامل معها بجدية حتى نكشف مدى خطورتها ونواجهها بأضواء المعرفة الكاشفة التى تتناسب مع تلك الخطورة ، « فلا يمكن أن

نمجد واقعنا بقيمه وعاداته ومعطياته ، ونرغب فى نفس الوقت فى تطويره وتحقيق بدائل أفضل »(٤٤) ·

ويقوم الباحث بعلاج قضايا بحثه فى شكل دراسات تنظيرية باحثا عن معان محددة لاتتبع النموذج البحثى المعتاد « المشكلة / الحل » وانما تتبع نموذج « المشكلة / تعمق المشكلة » لأنه بدون تعمق النظر تصير المشكلات بلا حلول ، ويظل سبب الاخفاق فى ايجاد الحلول هو فقر التنظير ، حيث نعتمد على أسلوب البحث ، ونهمل منهج التفكير(٤٥) ·

ومن هنا يبقى التاريخ معرفة مفتوحة لانهاية لأسئلته التى تدور حول متطلبات الواقع وحاجات المستقبل ·

معالم الدراسة :

تبدأ الدراسة بتمهيد يتضمن النقاط التالية :

١ ـ الدراسات السابقة ·

٢ ـ تساؤلات الدراسة الرئيسية ·

٣ ـ أهمية الدراسة ·

٤ ـ منهج الدراسة ·

٥ ـ معالم الدراسة ·

بعد ذلك تم تصنيف الدراسة الى الفصول التالية :

الفصل الأول : ويعالج أحوال مصر الاقتصـــادية والسـيـاسية والثقافية قبيل القرن ١٩ ، بهدف الكشف عن البنى

الاجتماعية والثقافية التى اقام عليها محمد على وخلفاؤه مشروعات النهضة ٠

الفصل الثانى : ويعالج قوى التغيير فى مصر فى القرن ١٩ ، وذلك بالتركيز على عدة محاور تم تعمقها واستجلاء دلالتها وهى الحملة الفرنسية ونشاط السان سيمونيين ، ثم شخصيات حكام مصر وتوجهاتهم الحضارية ، وانعكاس ذلك على توجهات مشروعات النهضة ، ثم بعد ذلك العلاقات الخارجية لمصر لما لها من دور بارز فى توجيه السياسة المصرية الخارجية ، ورسم وتحديد ملامح وجهتها النهضوية فى الداخل ٠

الفصل الثالث : ويعالج مشروع النهضة العسكرية وارتباط ذلك بنهضة التعليم عموما ، والتعليم العسكرى على وجه الخصوص ٠

الفصل الرابع : ويعالج مشروع النهضة الاقتصادية ، وتفاعله مع بنية وتوجه التعليم فى مصر فى القرن ١٩ ٠

الفصل الخامس : ويعالج النهضة الثقافية ويعرض للنشاط الصحفى والطباعة والنشر والترجمة والبعوث والجمعيات التطوعية الأهلية ودور كل ذلك فى نهضة المجتمع بوجه عام ، ونهضة الثقافة والفكر والوعى بوجه خاص .

الفصل السادس : ويعالج نهضة الفكر السياسى وتبلور الدولة المدنية الحديثة فى مصر فى مستهل القرن ١٩

من خلال الفكر السياسى الرسمى وغير الرسمى عند أعلام تلك الفترة أمثال الطهطاوى وعلى مبارك والنديم والمرصفى ٠

الفصل السابع : ويعالج مشروع النهضة التعليمية فى تفاعلها مع غيرها من مشروعات النهضة الأخرى ، وذلك من خلال بعض الموضوعات منها هيمنة الدولة على التعليم ، وتنظيم التعليم ، والتعليم والحراك الاجتماعى ، وتعليم البنت ٠

الخاتمة : وفيها يعرض الباحث لطبيعة العلاقة بين التعليم ومشروعات النهضة المصرية الحديثة ، ويوضح مدى الافادة من ذلك فى بلورة ودفع مشروعات النهضة المصرية المعاصرة والمستقبلية من خلال التركيز على دور وفاعلية وآلية التعليم ٠

هوامش التمهيـــد

(١) أنور عبد الملك ، الابداع والمشروع الحضارى ، كتاب الهلال العدد ٤٩١ ، دار الهلال ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ ، ص ١٨٠ ٠

(٢) عبد العزيز عز العرب ، الاقتصاد السياسى للقهر ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ ، ص ١٤٧ ٠

(٣) أنور عبد الملك ، نهضة مصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ ، ص ١٣٣ ٠

(٤) طاهر عبد الحكيم ، الشخصية الوطنية المصرية ، قراءة جديدة لتاريخ مصر ، الكتاب الأول ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ ، ص ١٣٧ ٠

(٥) فؤاد زكريا ، آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة ، الهيئـــة العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥ ، ص ٢٣ ٠

(٦) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة محمد على ، « السياسة الداخلية » ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٨ ، ص ٦٦٤ ٠

(٧) عبد ارلحمن الرافعى ، عصـــــر محمد على ، دار المعارف ، ط ٥ ، القاهرة ، سنة ١٩٨٩ ، ص ٣٩٧ ٠

(٨) اسماعيل صبرى عبد الله ، النهضة العربية ، المعالم الرئيسية ـ الأزمة ـ المستقبل ، القاهرة ، مجلة الفكر والفن المعاصر ، الهيئـــة المصرية العامة للكتاب ، العدد ١١٩ ، أكتوبر سنة ١٩٩٢ ، ص ص ١٠ ـ ١٧ ٠

(٩) عبد الله عبد الدائم ، نحو فلسفة تربوية عربية ، الفلسفة التربوية

ومستقبل الوطن العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، سـنة ١٩٩١ ، ص ٣١ ٠

(١٠) نبيل على ، العرب وعصر المعلومات ، عالم المعرفة ، العـدد ١٨٤ ، الكويت ، ابريل سنة ١٩٩٤ ، ص ٣٨١ ٠

(١١)اسماعيل صبرى عبد الله ، أحاديث عن اليقظة ، اليقظة العربية . روز اليوسف ، القاهرة ، العدد الأول مارس سنة ١٩٨٥ ، ص ص ٨ ـ ٢٧ ٠

(١٢) سمير أمين ، من نقد الدولة السوفيتية الى نقد الدولة الوطنية ، مركز البحوث العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ ، ص ٦٠ ٠

(١٣) أنور عبد الملك ، نهضة مصر ، مرجع سابق ، صفحات متفرقات ٠

(١٤) رفاعة الطهطاوى ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، جـ٢ ، سنة ١٩٧٣ ، ص ٢٧٩ ٠

(١٥) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ، جـ٢ ، مقدمة محمد شفيق غربـال ، مطبعة النصر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ ، المقدمة ٠

(١٦) غالى شكرى ، النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ ، ص ٢٦١ ٠

(١٧) رضوان السيد ، عصر النهضة العربية ، الأسـئلة الكبيرة والاجابات الحائرة ، الفكر العـربى ، معهـد الانماء العـربى ، بيروت ، العددان ٣٩/٤٠ ، أكتوبر سنة ١٩٨٥ ، ص ص ٤/٨ ٠

(١٨) Webster's Third New Internatoinal Dictiionary.

(١٩) يونان لبيب رزق وآخرون ، أوربا فى عصر الرأسمالية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠ ، ص ٢٩ / ٥٣ .

(٢٠) سعد مرسى أحمد ، تطور الفكر التربوى ، عالم الفكر ، القـاهرة ، سنة ١٩٧٠ ، ط٢ ، ص ٢٧٠/٢٧١ ٠

(٢١) فوزى درويش ، اليابان الدولة الحديثـة والدور الأمريكى ، مطابع غباشى بطنطا ، سنة ١٩٩٤ ، ط ٣ ، ص ٧٤ ٠

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٧٦ ٠

(٢٣) المرجع السابق ، ص ٧٧ ٠

(٢٤) شوقى جلال ، التراث والتاريخ ، سينا للنشـــر ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ ، ص ١٨٩ ٠

(٢٥) أدوين رايشاور ، اليابانيون ، عالم المعـــرفة ، العدد ١٣٦ ، الكويت ، ابريل سنة ١٩٨٩ ، ص ٢٣٩ ٠

(٢٦) شوقى جلال ، التراث والتاريخ ، مرجع سابق ، ص ١٩٢ ٠

(٢٧) المرجع السابق ، ص ١٩٤ ٠

(٢٨) المرجع السابق ، ص ١٩٦ ٠

(٢٩) ابراهيم مراد ، حول تحديد مفهوم النهضة فى الفكر العربى ، الفكر العربى ، العددان ٣٩/٤٠ ، مرجع سابق ، ص ص ٩ : ١٦ ٠

(٣٠) محمد بشير الكفافى وآخرون ، موســـوعة السياسة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، د٠ت ، ص ١٢٠ ٠

(٣١) اسماعيل صبرى عبد الله ، النهضة المصرية المعالم الرئيسية ـ الازمة ـ المستقبل ، القاهرة ، العدد ١١٩ ، مرجع سابق ، ص ص ١٠ ـ ١٧ ٠

(٣٢) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، تاريخ التعليم فى مصر فى عصر عباس وسعيد واسماعيل والسنوات المتصلة به من حكم توفيق ٠

(٣٣) تطور تعليم البنت فى مصر فى العصر الحديث ، رســـالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية جامعة عين شمس ، سنة ١٩٦١ ٠

(٣٤) دراسة للفكر التربوى فى مصر من ســنة ١٨٠٥ ـ ١٨٨٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، ســنة ١٩٧٥ ٠

(٣٥) الاتجاه الاسلامى عند بعض مفكرى التربية فى مصر وأثــره على التطبيق التربوى من سنة ١٨٠٥ الى سنة ١٩٥٢ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية البنات ، جامعة المنوفية ، سنة ١٩٨٢ ٠

(٣٦) تطور تمويل التعليم الابتدائى فى ج٠ع٠م من أوائل القـــرن ١٩ الى عام ١٩٥٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٠ ٠

(٣٧) الأصول الفلسفية للتربية فى مصر الحديثة بين الفكر الاسلامى والفكر التغريبى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة طنطا ، سنة ١٩٨١ ٠

(٣٨) تأثير فلسفة التنوير على حركة الفكر التربوى فى مصر فى الفترة من سنة ١٨٠٥ حتى سنة ١٩٠٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة طنطا ، سنة ١٩٧٨ ٠

(٣٩) أحمد صادق سعد ، تاريخ العرب الاجتماعى ، تحول التكوين المصرى من النمط الآسيوى الى النمط الرأسمالى ، جـ١ ، دار الحداثة ، بيروت ، سنة ١٩٨٠ ، ص ٢٣٠ ٠

(٤٠) طاهر عبد الحكيم ، الشخصية المصرية ، قراءة جديدة لتاريخ مصر ، مرجع سابق ، ص ١٢ ٠

(٤١) طاهر عبد الحكيم ، نحو نظرية لتاريخ مصرى ، فكر مجلة فصلية للدراسات والأبحاث ، السنة الثانية ، العدد ٥ ، مارس سنة ١٩٨٥ ص ص ٦٢ ــ ٧٤ ٠

(٤٢) aAbu Al-Futouh Radwan, Old and New Forces in Egyptian Educatoin, Bureause of publications, Teachers College, Colombia University , New York, 1950, P. 2.

(٤٣) عبد الله عبد الدائم ، أزمة التطور الحضارى فى البلاد العربية ودور التربية فى مواجهتها ، الآداب ، العدد ٥ ، مايو سنة ١٩٧٤ ، ص ص ٦٧/٧٦ ٠

(٤٤) حامد عمار ، تعليق على بحث القيم والعادات وأزمة التطور للدكتور بهاء أبو لبن فى الآداب ، مرجع سابق ، ص ص ٦٥/٦٦ ٠

(٤٥) عبد السميع سيد أحمد ، ازمة الهوية فى الفكر التربوى المصرى ، دراسات تربوية ، كتاب غير دورى ، عالم الكتب ، القاهرة ، نوفمبر ١٩٨٥ ، ص ١٢٩ ٠

الفصـــــل الأول

أحوال مصر قبل بدايات عصر النهضـــة

فى العصر العثمانى المملوكى (١٥١٧ ــ ١٧٩٨)

صارت مصر قوة اقليمية مؤثرة بفضل رصيدها النهضوى ، وذلك فى فترة وجيزة من حكم محمد على · فهل كان ذلك البنـــاء الحضارى بلا أساس ، أو أن مصــــر كانت تمتلك مقوماته التى استثمرها محمد على باعادة تنظيمها والركون اليها فى انطلاقاته النهضوية ؟

سؤال يدفع الباحث لالقاء الضوء على المقومات الحضارية للمجتمع المصرى خلال فترة الحكم العثمانى المملوكى حين كان يقتسم حكم مصر الوالى العثمانى وأمراء المماليك بصورة رئيسة ويشير ما يلى باختصار لأهم تلك المقومات :

اولا ــ المقومات الاقتصادية :

١ ــ الزراعة :

تعد الزراعة اهم مصادر الثروة فى مصــــر ، ومن ثـــم فالسيطرة على ملكية الأرض تعنى السيطرة على الثروة فيها .

وحين فتح العثمانيون مصر كانت الملكية فيها على النحو التالى : ـ

(أ) اقطاع السلطان .

(ب) اقطاع الأمراء .

(جـ) أطيان الخراجية .

(د) أطيان الرزق .

وفى سنة ١٦٥٦م أقام مقصود باشا والى مصر « نظام الالتزام » حيث يصبح الملتزم مسئولا عن أمور الزراعة وجباية الأموال ، وانقسمت الأراضى الى الأنواع التالية : ـ

(أ) أراضى الالتزام .

(ب) أراضى الرزق والأوقاف .

(جـ) أراضى الاطلاق(١) .

لم تلق الزراعة ، والتى كانت تمثل ٦٥٪ من اجمالى الدخل العام(٢) ـ مع هيمنة الالتزام وتعسف الملتزمين ـ ما تستحقه من التشجيع الكافى فى أول الأمر ، علاوة على وطأة ما عاناه الفلاح من ضرائب باهظة وسخرة وسلب ونهب من جحافل المماليك ، مما جعل الفلاحين (أربعة أخماس سكان مصر البالغ عددهم وقتذاك ٥ر٢ مليون نسمة) يعيشون فى فقر مجسم(٣) .

٢ ـ الصناعة :

عرفت مصر صناعات متقدمة اعتمادا على مواد خام محلية ومستوردة ، كما عرفت ـ على مستوى الاستهلاك المحلى ـ نظام

التاجر المول ، وعلى مستوى الصناعات المرتبطة بها ، قامت المصانع التى تضم أعدادا من العمال المدربين والصبية ، مما يشير الى أنها كانت منظمة على أسس رأسمالية(٤) ٠

لكن رغم ذلك كانت الصناعات فى مصر متخلفة قياسا بالتقدم الغربى نظرا لتخلف العنصر البشرى ، واقتصار هدفها على مجرد الاستهلاك المحلى والتركيز على الاكتفاء الذاتى والتبادل الضيق داخل مصر ، علاوة على السياسة التركية التى أرهقت العمـــال بالضرائب الباهظة واشتغال بعض الحكام ببعض الصناعات مما أغراهم باحتكارها واغلاق الورش الأهلية المنافسة بالقوة(٥) وكان الحرفيون والصناع على اختلاف حرفهم وصناعاتهم يجتمعون فى طوائف معترف بها ، ولها لوائحها المنظمة ووظائفها المحددة ، وعلى رأسها حماية الصانع والمستهلك ومنع الاحتكار ورفع مســـتوى الحرفة(٦) ٠ واجتمعت كل طائفة فى مكان محدد بالمدينة عرف باسمها كحى النحاسين والصاغة والمغربلين والمدابغ ٠٠٠ الخ(٧) فالصناعات حرفية يدوية فى معظمها وموجهة نحو الاســـتهلاك المحلى الحضرى ٠

٣ ـ التجارة :

وانقسمت الى تجارة داخلية وتجارة خارجية :

(أ) التجارة الداخلية : فى أسواق أسبوعيـــة فى المـــدن والمراكز الزراعية وتقوم على استبدال البضائع الواردة من القاهرة بفائض انتاج الأقاليم . غير أن الفقر العام للسكان وتأخر وسائل النقل وتهديدات قطاع الطرق أدت جميعها الى هبوط عام فى النشاط التجارى(٨) ، لكن فى أوقات الاستقرار والأمن كانت التجارة تنشط مما أدى الى تميز فئة التجار حيث صارت فى مقدمـــة الفئـــات

الاجتماعية فى مصر(٩) مما ساهم فى ازدهار نواة الرأسمالية التجارية المصرية التى استثمرت جزءا من رأسمالها فى مجالات أخرى غير التجارة مثل تمويل الصناعات لحسابها ، والتـزام الأراضى الزراعية ورهنها ، وبناء العقارات وتأجيرها(١٠) .

(ب) التجارة الخارجية : أضفى موقع مصر الجغرافى عليها مزايا طبيعية ضخمة بوصفها مخازن التجارة بين أوربا وآسـيا وافريقيا(١١) كما كانت مصر محورا رئيسيا للتجارة بين البلدان العربية(١٢) .

كما ازدهرت التجارة بين مصر من جهة وافريقيا والهنـد والشرق الأقصى والبندقية وتوسكانيا وفرنسا من جهة أخرى ، وازدهرت موانىء الاسكندرية ورشيد ودمياط والسويس ، ومنذ بداية القرن الثامن عشر أصبحت البيوت التجارية فى مصر تشكل بداية الرأسمالية التجارية التى سـاهمت أيضـا فى تطويـر الصناعات المحلية لحسابها الخاص فى التبادل التجارى ، كمـا ساهمت فى ميدان التزام الأراضى الزراعية ، مما أكسب فئة التجار مكانة اجتماعية متميزة جعلتها فى مقدمة الفئـات الاجتمـاعية الأخرى ، كما أصبحت تلك الأسر بمثابة شركات تجارية كبيرة تقوم بعمليات الاستيراد والتصدير والتوزيع فى نفس الوقت ، كما كان لتلك الأسر وكلاء تجاريون فى جميع موانىء البحر الأحمر(١٣) .

وعلى الرغم من الصـعوبات التى واجهت كلا من الزراعة والصناعة فقد ازدهرت التجارة ، لكن غياب الحكومة المركزيـة القوية وكثرة الفوضى والاضطراب جعل التجـار يحجمون عن توظيف أموالهم فى المجال الصـناعى ويوجهونها وجهة زراعية وعقارية .

وتفاقمت أحمال الضرائب باعتبارها حقا للسلطان بصـــفته المالك الأصلى للوحدات المدرة لتلك الايرادات وليست كوسيلة ينفق السلطان منها على الصالح العام ، مما أعطى لجامعى الضرائب والملتزمين حق استخدام أى وسيلة مهمـــا كانت غير انســـانية لتحصيلها مما منحهم حق ابتداع ضرائب جزافية عرفت باســـم (المخرجات) لخروجها عما يؤول لخزانة الدولة(١٤) وهذا ما دفع محمد بك أبو الدهب سنة ١٧٧٤ الى توحيد الضرائب فى « رفـــع المظالم » و « الكلف » والتى عرفت باسم « الكشوفية الجديدة » غير أنها عادت وتضخمت هى الأخرى ، مما جعل الصناع والتجار ضحية لا حيلة لها(١٥) ٠

علاوة على ما سبق فقد لجأت السلطـات السياســـية الى مصادرة أموال التجار والصناع مما جعل الاقتصاد المصرى فى القرن ١٨ يدور فى حلقة مفرغة أوجبت تغييره فى جميع مجالاته ، وهذا ما سيحققه محمد على فيما بعد ٠

والملاحظ أن ثمة عوامل ساهمت فى تشكيل النمط الاقتصادى المصرى فى تلك الفترة من الحكم العثمانى المملوكـــى لمصـــر وهى(١٦) :

١ ــ الحكم العثمانى ذو الطبيعة الاقطاعية ، واقتصار دوره على الحماية والادارة وجمع الأموال ، فالعثمانيون لم يكن لهـم رصيد حضارى ، ولم يحققوا تغيرا يذكر فى الولايات التى فتحوها بدليل أن كل الأنظمة التى كانت تعرفها مصر قبل حكمهم بقيت كما هى بعده ٠

٢ ــ المماليك حكام الأقاليم الاقطاعيون الحقيقيون ، وقد اعتمد نشاطهم الاقتصادى على فائض الالتزام كمصـــدر أساسى

لدخولهم ، ورغم كونهم طبقة غريبة عن المجتمع المصرى خاصة الأرض ، حيث هم فى الأساس عبيد من أسواق النخاسة العالمية ، الا انهم كانوا أصحاب حق استغلال تلك الأراضى الزراعية ٠

٣ ــ تحول طريق التجارة العالمى الى رأس الرجاء الصالح فعاشت مصر فى عزلة ساهمت فى تدهورها الحضارى ، بالاضافة الى تدهورها الاقتصادى ٠

٤ ــ وجود قطاعات من فئة علماء الدين أصحاب النفوذ الكبير بين الجماهير والحكام معا بحكم تبنيهم للفكر الدينى المسيطر والموجه لعقول الجميع وقد تميزوا بالثراء والاشتغال بالتجارة والالتزام كالشرابى والمحروقى مما يعنى سيادة التيار الدينى المحافظ ، وانسحابه على الحياة الاقتصادية ٠

٥ ــ شيوع نظام الطوائف الحرفية حيث كل المشتغلين بحرفة معينة مهما كان شأنها يكونون طائفة فيما بينهم تتخذ شكلا هرميا على رأسه شيخ الطائفة ثم الأعضاء ، ثم الصبية الذين يتدربون على الحرفة ، فاذا تم تدريبهم يحتفل بدخولهم الحرفة فى احتفال رسمى يسمى « شد الولد » أى دخول الولد الطائفة ٠ وكان لكل حرفة حارة خاصة بها كحارة النحاسين والمغربلين ٠٠٠ الخ ٠

وهؤلاء كانوا نواة النشاط الصناعى فى مصر فيما بعد ٠ وتجب ملاحظة أن ورش الصناعة كانت بدائية وعتيقة وصغيرة الحجم وضعيفة رأس المال وقليلة الأيدى ولمجرد الاستهلاك الكفافى(١٧) ٠

٦ ــ ورغم تدهور الصناعة المصرية فانها عرفت ظاهرة تقسيم العمل والتخصص فى بعض الصناعات ، كصناعة الأدوات

المنزلية وصناعة النسيج ، حيث كان تجار العاصمة يقومون بتوزيع القطن على النساء الغزالات فى القرى والمدن لغزله فى منازلهن فى وقت الفراغ ، ثم ترسل خيوط الغـزل الى النســاجين والى المصانع تحت اشراف التجار(١٨) ٠

٧ ـ أهل الذمة ، وقد عاشوا فى مصر على هامش الحياة الاقتصادية وان امتهنوا مهنا مؤثرة ، وسيزداد تأثيرهم فى عصر محمد على ثم اسماعيل مع زيادة النفوذ الأجنبى وحاجة بنــاء الدولة الحديثة الى معارفهم ومهاراتهم ٠

كما يمكن ملاحظة أن النشاط الاقتصادى المصرى فى تلك الفترة قد تميز بعدة سمات كالآتى :

١ ـ الكفاية الذاتية ، فالمنتجون ينتجون للمســتهلكين ، والفلاحون يعيشون على ما يزرعون ، لذلك تمثل الانتاج الزراعى فى المحاصيل الغذائية والمواد الأولية لصناعة ملابسهم ومساكنهم، وهذا سبب انتشار أسلوب المقايضة ٠

٢ ـ خضوع الفلاح خضوعا مباشرا لمالــك الأرض الذى يمارس تجاهه سلطة قانونية كاملة تمكنه من اجباره على العمل لحسابه ٠

٣ ـ انخفاض المستوى الفنى وركود التطور نظرا للفقـر والجهل معا ٠

٤ ـ سيادة نمط الدولة الاقطاعى الذى تميز باللامركزية ، فالمجتمع مقسم الى حكومات محلية ، كما أن الحكومة لا تتدخل فى حياة الأفراد ، لا فى التعليم ولا فى الثقافة أو الاقتصاد أو الصحة أو التجنيد ٠ فمهام الحكومة كانت قاصــرة على الدفاع والأمن وجمع الضرائب ، وما عدا ذلك أمره متروك للأفراد ، ونتج

عن ذلك اختفاء ولاء الأفراد للدولة ، وبالتالى اختفاء فكرة المواطنة ، كما انعدمت العلاقة الفكرية والاجتماعية بين قطاعات المجتمع المختلفة(١٩) ٠

٥ - نظام الالتزام الذى يسد الفراغ بين الحكومة اللامركزية والمنتجين من الفلاحين ، وهو نظام يقوم عليه طبقة من الأثرياء يتولون جمع الضرائب من الفلاحين نيابة عن الحكومة وبمعاونة سلطاتها وتسمى (الميرى) بالاضافة الى (الفائض) أى ما يجمعه الملتزم زيادة عما يدفعه للحكومة ، لكن هذا النظام تطور الى أن أصبح الملتزم هو الحاكم الفعلى فى اطار منطقة التزامه ٠

٦ - انعدام ظاهرة الملكية الفردية للأرض ، فالأرض ملك للدولة تقوم بتوزيعها على البعض للانتفاع وليس للامتلاك ٠

٧ - نظام السخرة سواء للمشروعات العامة للدولة ، أو لطبقة الملتزمين ٠

٨ - ارتباط الفلاح بارضه بشكل قانونى ، أى يحرم عليه تركها ٠

٩ - تعدد أنواع الضرائب ومايمكن أن يستجد من أنواع حسب أهواء الحاكم ، علاوة على الطريقة المهينة فى تحصيلها مما جعل انهيار الاستثمار الفردى حقيقة مؤكدة(٢٠) ٠

الاقتصاد المصرى وقت الحملة الفرنسية :

رغم قصر مدة تواجد الحملة الفرنسية فى مصر ، والحصار البحرى الانجليزى لها ، وانقضاء جل تلك الفترة فى النشاط العسكرى ، فان الحملة استطاعت زعزعة الدعائم العسكرية

والسياسية للوجود المملوكى بمصر حيث أبعدتهم عن الحكم وصادرت اطيان الملتزمين منهم ، وحرضت المصريين على الثورة ضدهم ، علاوة على قتل وتشريد الكثير منهم · فكانت تلك ضربة شديدة وجهت للنظام الاقطاعى العتيق بمصر(٢١) . كما استطاعت الحملة تقديم مشروع اقتصادى عرف باسم « مشروع مينو العظيم » والذى تضمن : ـ

١ ـ الغاء جميع الضرائب والاستعاضة عنها بضريبة واحدة تقرر حسب جودة الأرض ، يقسم المتحصل منها الى ٢٤ جزءا : ١٢ للحكومة ، ٧ للملتزمين تعويضا عما فقدوه ، ٣ لمشايخ البلد تشجيعا لهم على تأدية أعمالهم وجزءان لنفقات أعمال القنوات وأجور العمال نظرا لاعفاء الفلاحين من السخرة ·

٢ ـ منع الالتزام وحرمان الملتزمين من أى سلطات ·

٣ ـ جعل ارض الوسية ملكا للملتزمين ، وارض الفلاحين ملكا للفلاحين ·

٤ ـ اعطاء جميع ملاك الأراضى مطلق الحرية فى زراعة أطيانهم كما يشاءون(٢٢) ·

ولتحقيق ذلك المشروع قامت الحملة باقتراح اصلاح نظام الرى واقامة القناطر وشق الترع لنشر الرى الصيفى · غير أن طرد الفرنسيين عطل المشروع · ورغم ذلك فقد كانت للحملة عدة تاثيرات اقتصادية جيدة منها : ـ

زراعيـــا :

انتعشت الزراعة بادخال محاصيل جديدة كالبن والقصب والخوخ والمشمش والكمثرى والتفاح .

صناعيـــا :

افتتاح مصانع للنسيج والحدادة والدباغة وحروف الطباعة وطواحين الهــواء والترســانة وذلك لخدمــة أغراض الجيش المحاصر ·

تجاريـــا :

اتجهت التجارة المصرية نحو الجنوب الى السودان والحبشة ومكة وجدة ·

ثانيا ــ المقومات السياسية :

بالفتح العثمانى تحولت مصر الى مجرد ولاية عثمانية يتولى حكمها وادارة شئونها تنظيم سياسى وادارى يتمثل فى :

١ ــ **الوالى :** يمثل السلطان العثمانى ويختص بالتشــريع والقضاء والادارة ، علاوة على الاختصاصات العسكرية ، وذلك فى ضوء التشريعات المركزية للسلطنة وتعاليم الشريعة الاسلامية كاطار رسمى لحكم البلاد(٢٣) ·

٢ ــ **الديوان :** وهو مجلس شورى للوالـــى ويتكون ــ فى معظمه ــ من رؤساء الجند ، وتمثيل رمزى لعلماء الأزهر والأشراف ورؤساء الطرق الصوفية ورؤساء المذاهب الفقهية الأربعة ·

٣ ــ **رؤساء الجند :** وهى الفرق العســكرية المسئولة عن حفظ الأمن والدفاع كفرق الانكشارية والاسباهية والشـــاويشية والهجانة ··· الخ · وفيهم الأغا وهو رئيس الفرقة ، والكتخدا نائبه ، والدفتردار وهو رئيس الشئون الادارية والمالية وضبـــط

الخراج ، والخازندار أمين المخازن وحامل الخـــراج سنويا الى الأستانة ، والروزناماجى وهو المكلف بحفظ السجلات ٠

والجدير بالذكر أن عسكر مصر من العثمانيين او المماليك كانوا دائما يثيرون الشغب والفتن والقلاقل(٢٤) ٠

٤ ـ **أمراء المماليك** : وهى سلطة تقوم بحفظ التـوازن بين الوالى من جهة ورؤساء الجند من جهة أخرى ، وتمثلت فى حكام المديريات (السناجق) ووكلائهم (الكشافين) وكان لكل مديرية ديوان خاص ، ولكنه كان محددا فى صفته الاستشارية ٠

وفى مقابل ذلك التنظيم السـياسى والادارى كان الشـــعب المصرى الذى تمثلت قواه الاجتماعية فى علماء ومشايخ الأزهر وأولياء الله الصالحين والملاك والتجار وموظفى الادارة والصـناع والحرفيين والمزارعين والخطافة واللصوص والدراويش والمجاذيب هذا الخليط الشعبى الذى كثيرا ما ظهرت قوته فى الانتفاضـــة والاعتراض والرفض للكثير من ممارسات الحكام ورموزهم مثـل زيادة الفرد على السكان(٢٥) وزيادة أسعار القمح والحبوب أو احتجاجا على النهب والسلب(٢٦) والتى عبر فيها الشعب المصرى عن وعى قومى ، وحس حضارى انسانى عال .

وقد تمثلت قمة الثورات المصرية فى حركتين مهمتين أولاهما حركة شيخ العرب همام بن يوسف فى الصعيد ، والذى حقـــق الرخاء وأقام العدل بين أهل الصعيد فقراء وأغنيـاء مســـلمين ومسيحيين على السواء ٠ كما اهتم بتكوين جيش قوى تمكن به من الاستقلال بالصعيد ، من جرجا الى أسوان(٢٧) ٠

غير أنه فى نفس الوقت كان على بك الكبير يستقل ببقيـــة أجزاء مصر ، ولكى يحقق لنفسه استقلالا كاملا بمصر واجه همام

وقضى على نفوذه (وكانت حركة على بك الكبير هى الحركة الثانية) وتمكن من طرد والى مصر ، وصفى منافسيه من المماليك وتطلع للنهوض بالبلاد وتحقيق الأمن والأمان ، فقضى على قطاع الطرق من اللصوص والخطافين وامتنع عن دفع الخراج للسلطان العثمانى ، وضرب النقود باسمه ، وفتح الجزيرة العربية وأوفد مملوكه محمد بك أبو الدهب لفتح دمشق ، غير أنه انقلب على سيده وقتله ، فعادت مصر ثانية ولاية عثمانية تحت حكم محمد بك أبو الدهب ٠

ومن هاتين الحركتين ، وغيرهما ، يتضح أنه على الرغم من أن التنظيم السياسى والادارى لمصر قد تجاهل دور الشعب فى الحكم، فان الشعب المصرى عبر قيادته الشعبية والطبيعية ، وضع لنفسه موقعا فى المواجهة على خريطة الأحداث فى مصر ، وكان أشدها تأثيرا ثوراته ضد الفرنسيين حتى تمكن من اخراجهم من بلاده ، ثم اصراره على اختيار محمد على واليا يحكم البلاد باسمه ٠

والملاحظ أن الحكم العثمانى المملوكى لمصر قد تميز بالآتى(٢٨) :

١ ـ **الطبقية** : حيث انقسم المجتمع الى ثلاث طبقات جامدة :

(أ) **الأتراك العثمانيون** : ومنهم الوالى وضباط الجيش وكبار الموظفين القادمين من تركيا وشعورهم بالنصر العسكرى على أهل البلاد جعلهم يتعالون على من سواهم ٠

(ب) المماليك : حكام مصر السابقون ، وحكام الأقاليم الحاليون ، وهم مستوردون من الخارج ، وكانت أعلى وظيفة لهم

فى شيخ البلد · احساسهم بالهزيمة امام الأتراك جعلهم يشعرون تجاههم بالدونية ، غير انهم تعالوا على المصريين ·

(جـ) المصريون : أبناء البلاد الفلاحون والتجـــار وأرباب الحرف والصناعات · لم يكن يتاح لهم الوصول الى الســـلطة السياسية ·

٢ ــ الاستغلال : ويتمثل فى استغلال الحاكم للحكومة بحكم نظرية سياسية ساذجة ترى الدولة عبارة عن عناصر حاكمة محاربة وعناصر محكومة تزرع وتعمل لتزويد الفئة السابقة بما يلزمها لمهامها ·

٣ ــ الجمود والرجعية : ليبقى الأمر على ما هو عليـه ، وكلما زادت مساوىء الدولة وظهرت بوادر تحمل على التغيير ، زادت السلطة من سطوتها لاحكام قبضتها على ولاياتها ·

٤ ــ روح التضامن والأخوة الاســـلامية : التى تربط بين الحاكم والمحكوم مما مهد لظهور الجامعة الاسلامية .

ثالثا ــ المقومات الثقافية والتربوية :

رغم أن الفتح العثمانى قد أحال مصر الى ولاية عثمانية مما حجم دورها السياسى بعد أن كانت مركزا للهيمنة ومقرا للخلافة ، الا أن هذا لم يؤثر تأثيرا ذا بال على مؤسسات المجتمع المختلفة ومنها المؤسسة التعليمية ، حيث ظل التعليم مســـتقلا عن تدخـل الدولة وتوجيهها ، وظلت منـــاهجه متروكة لرجـــاله ، متميزة بطابعها الثقافى الاسلامى ·

وكانت الكتاتيب والمساجد والأزهر هى المؤسسات التعليمية فى العصر العثمانى ، حيث أوقفت عليها الأوقاف لبنائها وتعميرها

ودفع رواتب معلميها وطعام وكساء طلابها ٠ وكانت المعارف دينية الى جانب بعض المعارف المختلفة كالعلوم الرياضية والطب .

ويعود الطابع الأهلى للتعليم الى تحديد وظيفة الدولة فى الأمن والدفاع وما يرتبط بهما من جمع الضرائب للانفاق عليهما(٢٩) ٠

وكان التعليم فى مصر ذا طابع اسلامى ، وكانت المساجد تجمع طلاب العلم من المسلمين من مختلف البلاد دون تفرقة ، فقد ضم الأزهر فى القرن ١٨ حوالى ١٠٠٠ طالب من غير المصريين ، أى ما يساوى ثلث عدد طلابه(٣٠) ٠

وكذلك ضمت تلك المساجد معلمين ومشايخ من مختلف بلاد العالم الاسلامى بجانب اخوانهم من مشايخ مصر ذائعى الصيت(٣١) ٠

ولم يكن نشاط هؤلاء الطلاب ومشايخهم مقصورا على العلم فقط ، بل تعداه للتزاوج والعمل ، مما كان له أثر كبير فى تقوية العلاقات الاجتماعية بين الولايات العربية ، مما جعلها كأسرة عربية واحدة(٣٢) ٠ وكان الجامع الأزهر بمثابة الجامعة الأم ، والمساجد الكبرى الأخرى فروع له سواء داخل القاهرة أو خارجها كما كان للجامع الأزهر مكانة مرموقة فى سائر بقاع العالم الاسلامى ٠

وأهم ما تميزت به الدراسة فى الأزهر هو روح التسامح المذهبى ، فعلى الرغم من أن المذهب الحنفى كان هو المذهب الرسمى للدولة ، فان المذاهب الأخرى كان لها مكانة على المستويين : العلمى والعملى أيضا ، فقد نظر المصرى الى تلك المذاهب على أنها وان كانت تختلف فى الفروع الا أنها تتفق فى الأصول(٣٣) ٠

مراحل التعليم ومؤسساته :

التعليم الأولى ، وكان ممثلا فى الكتاتيب ، وكان منها الحر الذى يستقل به المعلمون ، وتلقى عونا من بعض الموسرين وأوقاف الأغنياء ، ويدفع الطالب ثمنا لتعلمه بها(٣٤) . ومنها مكاتب الأيتام التى يتكفل بها المحسنون ويتحملون كافة النفقات بها ، بالاضافة الى أن كثيرا من الأغنياء كانوا يفضلون مربيا خاصا بأبنائهم حيث كان يقدم نفس نوع تعليم الكتاتيب ، وهو مبادىء القراءة والكتابة وقراءة وحفظ القرآن الكريم على اختلاف فى الكم والكيف من كتاب الى آخر حسب كفاءة التلاميذ وكفاءة مؤدبهم الذى لم يكن يشترط فيه الا معرفته بمبادىء القراءة والكتابة ومبادىء الدين ، علاوة على عفته وصلاحه وأمانته وثبوت ذلك بالتزكية(٣٥) .

وكان خريجو الكتاتيب اما أن يتجهوا للحياة العملية ، واما يكملوا دراستهم فى الأزهر أو أحد المساجد الكبرى والتى تمثل التعليم العالى ، ومرجع ذلك الى عاملين أساسيين أولهما : ان العلم وقتها هو العلم بالدين ، وهذا مكانه المسجد ، وثانيهما : أن المسجد كان مكان تعريف شئون الدولة ومصالح المسلمين حيث القضاء واقامة الحدود والتشاور فى أمور السياسة والشريعة(٣٦)

وقد ارتبط النشاط العلمى فى صدر الاسلام بالمسجد حيث اقتصر ذلك النشاط على العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وما تفرع عنها من علوم أخرى كالنحو والصرف والتاريخ ، فكان الجلوس فى المسجد حول الشيخ فى حلقات بعد كل صلاة . لكن مع اتساع النشاط العلمى وتطوره بفضل الانفتاح على الثقافات

الأخرى وازدهار حركة الترجمة ، ظهرت معارف جديدة وعلـوم أخرى لم يعد المسجد يلائمها ، فظهرت مراكز أخرى مثل بيت الحكمة ودار العلم لتستوعب تلك العلوم الجديـدة العقلية والتجريبيـة وغيرها ·

وحظيت تلك المراكز برعاية الحكام مثل هارون الرشيد ، والمأمون الذى أرسل المبعوثين الى بـلاد الروم لجلب كتب الطب والكمياء والفلسفة وغيرها وترجمتها وايداعها بيت الحكمة ·

كما انتشرت الزوايا فى بعض المسـاجد مثل زاوية الامام الشافعى بجامع عمرو بن العاص وغيرها ، والتى ازدهرت بسبب ما أوقف عليها من أوقاف .

ومع ذلك فقد ظلت المساجد وبخاصة الكبرى منها ، تمثل المكان المختار لتلقين العلوم ، سواء منها العقلية أو التجريبية مثل الطب ، ذلك لأن المسجد فى الاسلام هو أعظم الأماكن على الاطلاق حيث أن الله عز وجل هو الذى أمر ببنائه ورفعه وتطهيره كما جاء فى القرآن الكريم(٣٧) .

ولهذا كان جامع الفسطاط أول المساجد الكبرى للتعليم فى مصر بعد فتحها · ثم جامع أحمد بن طولون ثم الجامع الأزهـر والذى صار محورا للتعليم والتربية وأكثر المساجد امتلاء بالطلبة بعد ذلك لشهرة مدرسيه وذيوع صيتهم(٣٨) ·

وقد قسمت الدراسة بالأزهر الى ثلاثة مراحل :

١ ــ أولية تمهيدية تحت اشراف صغار المدرسين ·

٢ ــ متوسطة على يد أساتذة أكثر كفاية ·

٣ ـ نهائية يدرس فيها الطالب أمهات الكتب على يد كبار العلماء(٣٩) ·

وكان الانتقال من مرحلة الى اخرى يعتمد على قدرة الطالب على الاستيعاب ، تلك القدرة التى يستأنسها الطالب فى نفسه

وكان هدف الدراسة النهائية اعداد ائمة المساجد والفتوى والقضاء أو التدريس فى الأزهر وغيره من المساجد(٤٠) ·

أما عن مواعيد الدروس ، ففى الغالب يبدأ الطالب دروسه بعد صلاة الفجر بدروس التفسير والحديث وعلم الكلام ، فاذا ما أشرقت الشمس عقدت حلقات الفقه على المذاهب الأربعة ، وبعد الظهر يدرس النحو والبيان ، وبعد العصر المنطق والحكمة والحساب والفلك والتاريخ ، وبعد المغرب مناقشات حرة ، وبعد العشاء يتفرغ الجامع للتبتل والتهجد وصلوات القيام والأذكار(٤١) ·

ولم يكن ثمة شهادات رسمية من الدولة ، ولكن اجازات يمنحها الشيخ لطلابه بعد امتحانهم فيما تلقوه من علوم وذلك فى أحد المجالات التالية : ـ

١ ـ الأمالى ، أى ما يمليه الشيخ على طلابه ·

٢ ـ الكتب المعروفة التى يقرؤها الشيخ على طلابه ويقوم بشرحها ·

٣ ـ العلم الكامل فى الحديث أو غيرها من العلوم ·

٤ ـ عدة علوم معا من نحو وصرف وتفسير وحديث(٤٢) ·

وتنوعت الاجازات الممنوحة الطلاب بين اجازات تدريس أو تجويد القرآن أو اجازات الصوفية وذلك بلبس خرقة الصوفية .

ورغم انشغال الدولة بالأمن والدفاع فان كثيرا من العلماء اعتمدوا فى دخولهم على الخزانة السلطانية ، علاوة على ماتقدمه الدولة للأزهر من حبوب توزع على أروقته المختلفة(٤٣) ٠ مما جعل الأزهر وغيره من المساجد الأخرى تتمتع بقدر هائل من الثراء ، مما أتاح تعليما مجانيا لكل راغب فيه بلا فرق بين غنى وفقير ٠ وتجدر الاشارة الى تمتع الطالب بالحرية فى الاختيار ٠٠ اختيار العلم الذى يدرسه ، والشيخ يدرس عليه ، والمسجد الذى يتردد عليه ٠

والجدير بالملاحظة أن التعليم العالى فى المساجد الكبرى لم تقف مهمته على مجرد التدريس داخل جدران المسجد ، بل تعداها لعلاج مشكلات المجتمع ، خاصة مثالبه الأخلاقية ، وكذلك الوقوف فى وجه ظلم الحكام بجانب جموع الشعب ، بل تحريك تلك الجموع للتصدى لتلك المظالم واجبار الحكام على الاستماع لصوت الشعب ومطالبه ، وهذا الدور يعكس معنى العلم فى الاسلام ، حيث يربط الفكر بالتطبيق ، والنظر بالعمل ٠٠ العمل الفردى والجماعى على السواء ٠ كما يعكس هذا الدور مكانة علماء الدين فى المجتمع الاسلامى حيث كانوا أهل علم وثقافة وقضاء وفتوى ومحط الاجلال والاحترام ٠

وربما ترجع تلك المكانة المرموقة لعلماء الدين الى أنهم كانوا أصحاب مؤسسة لم تستطع السلطة السياسية الاقتراب منها أو سلب مكاسبها نظرا لارتباطها باللغة العربية ، واستقلالها الاقتصادى اعتمادا على الأوقاف ، أو اعتمادا على اشتغال بعضهم بالتجارة ، وبالتالى كان اشتغالهم بأمور الدين حرا من كل ضغط وموجها لوجه الله ٠ بل ان بعضهم كان يوجه بعض ممتلكاته للانفاق على دور العبادة والمعرفة(٤٤) مما جعل لعلماء الدين مكانة مهمة فى

التنظيم الاجتماعى فقاموا بدور مهم فى حفظ التوازن بين الشعب والحكام باعتبارهم المعنيين بأمور بالدين والتشريـــع والعدالـــة والثقافة والقيم الخلقية · وهذا ماجعلهم موضع تقدير من أفراد الشعب والحكام معا ، حيث أعتبرهم الشعب مصدر حماية له من ظلم الحكام ، واعتبرهم الحكام عامل تثبيت لحكمهـــم وضامن لشرعية ذلك الحكم(٤٥) ·

وقد تحالفت المؤسسة الثقافية التربوية الدينية والتى يمثلها علماء الدين مع مؤسستين مهمتين فى المجتمع هما طوائف التجار والحرفيون ، وأصحاب الطرق الصوفية ، مما أعطى لعلماء الدين قوة دفع سياسى مهم تمثلت فى قدرتهم على تحريك للجمـــاهير ، وربما يكون هذا هو سبب تفضيل بونابرت التعامل معهم باعتبارهم قيادات طبيعية للشعب(٤٦) · كما اعتمد عليهم أيضا محمد على فى الوصول الى الحكم ·

وســــــائط تربوية اخــــرى :

لم تكن التربية فى العصر العثمانى المملوكى مقصورة على الكتاتيب والمساجد الكبرى فقط ، بل كان ثمت وسائط تربوية أخرى مثل : ــ

الطرق الصوفية والتى لاقـــت تشجيعا كبيرا من السلطنة العثمانية مما شجع الكثيرين على الانضمام اليها · وقد انقسم الصوفية من العلم والمعرفة الى فريقين : ــ

١ ــ فريق يقصـــر العلـــم والمعرفة على الالهـــام والوجد والكشف والمعرفة الذوقية القلبية بالزهد والانقطاع الى العبادة .

٢ ــ فريق يربط التصوف بالكتاب والسنة وينكر ســـلوك الفريق الأول ·

وقد شجعت السلطنة العثمانية الطرق الصوفية فى مصر ، ومنحتها بعض الامتيازات مثل الاعفاء من الضرائب والتوسع فى الأوقاف المرصودة لها ، ولذلك كانت الحركة فى مأمن من ظلم الحكام مما دعا الكثير من الناس الى الانضواء تحت لوائها .

وكان الزهد والخلوة والورع والذكر والرضا بالقضاء والاستسلام لما جرت به المقادير هى أهم قيم الصوفية التى يتبعها غالبا العامة ويلوذون بها أمام جبروت العثمانيين ، وعمق الأزمات الاجتماعية ٠

وقد قدمت الصوفية فى مصر عددا من الشعراء الذين ساهموا فى تشكيل الوجدان المصرى ، ومنهم عمر بن الفارض والامام البوصيرى(٤٧) ٠

وفى مجال التربية العسكرية ، كان عسكر مصر من الحامية العثمانية ، وكان المماليك احد فرقها الأساسية . ولأن المماليك كانوا من أصول عرقية ولغوية وثقافية متباينة ، فقد خضعوا لتربية توحد بينهم ، حيث يحضر المملوك صغيرا ويرسل الى القلعة ، وهناك يقسم المماليك حسب أجناسهم ويخصص لهم المؤدبون ليعلموهم اللغة العربية والخط والقرآن الكريم وأحكام الدين وآداب الشريعة(٤) ٠ وبعدها يتعلمون فنون الحرب ثم يسلكون فى الجيش ، وعند درجة معينة من النضج يعتقون بموجب وثيقة تسمى « اعتاقية » ويحق لهم بعد ذلك اقتناء المماليك ٠

ولم يكن الجند يعدون لشئون القتال فقط ، بل لشئون الحكم والادارة أيضا ، حيث لم يكن ثمة فصل بين السياسة والعسكرية . وكان الجند على نصيب وافر من الثقافة والعلم بحكم صلاتهم الوطيدة بعلماء الدين(٤٩) ٠ كما كان للجند دور فى الحياة الفكرية حيث

امتلكوا الكتب النادرة ، وانضم بعضهم الى الطرق الصوفية ، وساهموا فى انشاء المدارس وترميم المساجد(٥٠) ٠

وفى مجال تعليم المرأة ، فقد أعطى المشرع للمرأة حق التعلم ٠ وكانت الفتاة الميسورة تتعلم فى بيتها بمؤدب خاص كبير السن أو ضرير(٥١) ٠

كما كانت الفتاة تشارك الفتى التعليم فى الكتاب حتى سن التاسعة من عمرها . كما أن نظام التعليم فى الأزهر لم يمنع الفتاة من الانضمام لحلقاته ٠

كما ساهم النساء فى حضور مجالس العلم فى منازل الأعيان ، وعلاوة على العلوم الدينية ، فقد ساهمت ابنة داوود الأنطاكى فى ادارة مدرسة الطب خلفا لأبيها سنة ١٦٢٦ م ٠

وفى مجال التربية الحرفية والمهنية ، عرفت مصر نظام الطوائف ، وهو تنظيم اجتماعى وسياسى ونقابى وحرفى معا ، حيث كان لكل طائفة تعليم يحافظ على مستواها الحرفى ويرسخ تقاليدها ٠

وكان الصبى فى سن الثامنة ، وبعد تعليمه بالكتاب ، يلتحق بالطائفة ليتعلم أصول الحرفة وفنونها فى موقع العمل نفسه وفى ظروف الانتاج الطبيعية نفسها على يد الأسطى ولمدة حوالى سبع سنوات يمتحن بعدها ليرقى الى مرتبة العريف (الصنايعى) فى حفل يرأسه شيخ الحرفة(٥٢) ٠

وبعد ذلك يرتقى الصنايعى الى رتبة الأسطى (الرئيس) .

وفيما يتعلق بمهن الأقباط الموقوفة عليهم كالصيرفة والمساحة والتى يتوارثونها ، فقد اكتسبها الأبناء وذلك بالخبرة المباشرة من آبائهم(٥٣) ٠

التعليم الشعبى :

اقتصر التعليم الرسمى فى الكتاتيب والمساجد الكبرى على العلوم النقلية كأساس للوظائف الرسمية وغيرها • ولذلك وجدت العلوم العقلية مكانها بعيدا عن المؤسسات الرسمية ، وحسب الميول الخاصة بطالبها وفى حلقات فى بيوت أصحابها ، ومنها حلقة داوود الأنطاكى فى الطب والعلوم الطبيعية ، وغيرها من حلقات دراسة الفلك والرياضيات والكيمياء(٥٤) مما يشير الى أنه رغم انشغال المؤسسات الرسمية بالعلوم النقلية وبالتالى انتشارها الواسع ، فان العلوم العقلية لم تختف تماما فى ذلك العصر ، وان كان حظها من الاهتمام ضئيلا(٥٥) •

كما كانت دكاكين الوراقين وما تحويه من مخطوطات ومنسوخات وسيطا تربويا مهما .

كما شهد العصر العثمانى المملوكى نشاطا هائلا فى النسخ والتجليد وذلك وفق اهتمام الناس المختلفة باقتناء المخطوطات(٥٦) ومن أشهرهم والد الشيخ الجبرتى الذى أعد جزءا خاصا من مخطوطاته لاعارته لطلابه ، وكذلك مكتبة أسرة الشرايبى من أثرياء التجار • كما أنشأ الأمير عبد الرحمن كتخدا عددا من المكتبات وقاعات المطالعة فى الجامع الأزهر ، كما كان لكل رواق من اروقة الأزهر مكتبته الخاصة(٥٧) وكذلك مكتبة جامع الفكهانى ، ومكتبة جامع شيخون ، ومكتبة جامع الأشرف قايتباى ، وغيرها من مكتبات الأمراء ، وعلى رأسها مكتبة الأمير محمد بك ابو الذهب والملاحظ أنه بالرغم من كل ما قيل عن العلوم والمعارف فى مصر فى العصر العثمانى المملوكى ، فان الغالب علي العصر بوجه عام

أنه كان عصر تخلف ، الا ومضات انبعثت من الأزهر ، خاصة ، فى مجال العلوم الفقهية والشرعية .

فقد انقسمت العلوم التى كانت تدرس بالأزهر الى ثلاثة اقسام : دينية ، لغوية ، عقلية ، واستأثر القسمان الأولان بمعظم الوقت المخصص للدراسة ، لدرجة أن علماء ذلك العصر ، كان من النادر أن تجد بينهم من له المام بالرياضيات أو الفلسفة أو الجغرافيا وغيرها من العلوم العقلية(٥٨) ·

وقد لازم سيادة مثل هذه العلوم النقلية طريقة فى التدريس تعتمد على الترديد والحفظ بحيث لا يبقى مجال للتساؤل والبحث والتجريب ، فتؤدى طريقة التقليد الى نقل قيم المجتمع وعاداته الى صميم التركيب الذهنى للفرد والى قبوله لها دون تفهم أو نقد ، ذلك أن التلقين هو طريقة تسلطية فى التعليم تجعل المتعلم يستجيب باكتساب عادة الصم اى الحفظ والاستظهار ، الأمر الذى يؤدى الى ابعاد الفهم والادراك ويعود التلميذ على قبول الأشياء دون اعتراض أو تساؤل(٥٩) .

فطريقة التلقين هى عملية ارهاب اذ تهدف الى التسليم بما يتعلمه الفرد ويحفظه دون تساؤل أو تفهم ، فيصبح العقل اداة ترديد وحفظ بدلا من أن يكون وسيلة تحليل ومعرفة ونقد ، فيتعرض التلاميذ فى هذه الطريقة الى الكبت الذهنى ، اذ تكبل عقول التلاميذ وتحد من نموهم الذهنى(٦٠) ·

كما تؤكد هه الطريقة تسلط المعلم وتعزز سلطاته وتؤمن خضوع التلاميذ له عن طريق التسميع والاستظهار دون فهم · وكل ذلك يؤدى الى تعزيز توجيه النمو العقلى نحو الكفاءة الكلامية

بعيدا عن التساؤل والاستفسار ، كما يؤدى الى قتل روح المبادرة عند التلاميذ ويكبت اندفاعاتهم نحو النقد والابداع(٦١) ٠

ويلخص الجبرتى سمات العقلية المصرية فى نهاية العصر العثمانى المملوكى ، وهو يتحدث عن التجارب التى يجريها علماء الحملة الفرنسية فى معملهم اثناء وصفه لحاله وحال من كان فى صحبته من علماء عصره من المصريين ، يقول : « انزعجنا ٠٠٠ فضحكوا منا .. ولهم فى (هذا الشأن) أمور وأحوال وتراكيب غريبة ، ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا »(٦٢) لكن هل استمرت تلك الأحوال الثقافية والحضارية على حالها ؟ على مايبدو أن القرن التاسع عشر قد حمل فى طياته قوى التغيير والتغير ، وهذا ما سنقف عنده تفصيلا فى الفصل التالى ٠

هوامش الفصل الأول

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصـــــرى فى القرن الثامن عشر ، ط٢ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ ، ص ٨٥ ٠

(٢) عبد العزيز عز العرب ، الاقتصاد السياسى للقهر ، مرجع سابق ص ٥١ ٠

(٣) ج٠ كريستوفر هيرولد بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ١٠٩ ٠

(٤) هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ج٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة سنة ١٩٩٠ ، ص ١٤٢ ٠

(٥) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ط٢ ، دار الهلال ، القاهرة ، ابريل سنة ١٩٦٩ ، ص ١٢ ٠

(٦) محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القـــاهرة ، ســـنة ١٩٨٧م ص ٢٣ ٠

(٧) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ترجمة زهير الشايب ، كتاب روز اليوسف ، العدد رقم ١٧ ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ ، ص ٥١/٥٢ ٠

(٨) هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، ج٢ ، مرجع سابق ، ص ١٤٧ ٠

(٩) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فصول من تاريخ مصر

الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٣٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهـــرة ، ســـنة ١٩٩٠ ، ص ١٤٥ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٤٣ .

(١١) هاملتون جب وأخر ، المجتمع الاسلامى والغرب ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٥٤ .

(١٢) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فصول من تاريخ مصـــر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، مرجع سابق ، ص ١٩١ .

(١٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

(١٤) أحمد صادق سعد ، تحول التكوين المصرى من النمط الأسيوى الى النمط الرأسمالى ، مرجع سابق ، ص ٨٧ .

(١٥) هاملتون جب وآخر ، المجتمع الاسلامى والغرب ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

(١٦) محمد أنيس ، المجتمع المصرى فى ظل الاقطاع ، الكاتب ، العدد ٥١ ، يونيه ١٩٦٥ ، ص ص ٣٩ – ٥٠ .

(١٧) محمد متولى ، الأصول التاريخية للرأسمالية المصرية وتطورها حتى سنة ١٩٥٢ ، الكاتب ، العدد ١٣٦ يوليو سنة ١٩٧٢ ، ص ص٥١ / ٨١ .

(١٨) المرجع السابق .

(١٩) محمد أنيس ، المجتمع المصرى فى ظل الاقطاع ، مرجع سابق ، ص ص ٥٠/٣٩ .

(٢٠) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، جـ١ ، مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٢١) أحمد أحمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، مطبعة المصرى ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٢٨ .

(٢٢) المرجع السابق ، ص ٣٦/٣٥ .

(٢٣) محمد نور فرحات ، التاريخ الاجتماعى للقـــانون فى مصـــر الحديثة ، جـ١ ، العصر العثمانى ، المطبعة الفنية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ ص ١٥٨/١٥٩ ٠

(٢٤) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية مرجع سابق ، ص ١٧٦ ٠

(٢٥) أحمد صادق سعد ، تحول التكوين المصرى ، مرجع سابق ، ص ١٦٠ ٠

(٢٦) أندريه ريمون ، فصول من تاريخ القاهرة ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤ ٠

(٢٧) يحيى جلال ، مصر الحديثة ١٥١٧ ، ١٨٠٥ الهيئة المصـــرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٨٥ ، ص ٢٤٢ ٠ وتفصـــيلا ليلى عبد اللطيف أحمد ، الصعيد فى عهد شيخ العرب همام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ ٠

(٢٨) جلال يحيى ، مصر الحديثة ١٥١٧/١٨٠٥ ، مرجـــع ســـابق ، ص ١٨٩/١٩٥ ٠

(٢٩) رؤوف عباس ، مصر فى القرن التاسع عشر ، دار النهضـــة العربية ، القاهرة ، د٠ت ، ص ١١ ٠

(٣٠) هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، جـ٢ مرجع سابق ، ص ٣٠٢ ٠

(٣١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، مرجع سابق ، ص ٢٦٧ ٠

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٢١٦ ٠

(٣٣) ستانلى لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمـــة حسن ابراهيـــم وآخرين ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ ، ص ٢٤٠ ٠

(٣٤) أحمد فؤاد الاهوانى ، التربية فى الاسلام ، دار المعـــارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ ، ص ١٠ ٠

(٣٥) على سالم البناهين ، نظام التربية الاسلامية فى عصر دولـة المماليك فى مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ ، ص ٢٤٧ ٠

(٣٦) على عبد الواحد وافى ، لمحة من تاريخ الأزهر ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة سنة ١٩٧٤ ، ص ١٢ .

(٣٧) سعيد عبد الفتاح عاشور ، العلم بين المسجد المدرســة ، فى كتاب تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ســنة ١٩٩٣ ، ص ص ١٣ : ٤٤ .

(٣٨) عبد الله محمد عزباوى ، الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٦ ، ص ٨ .

(٣٩) هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامى والغرب ، جـ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢ .

(٤٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٤١) ج. دى شابرول ، دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصــر المحدثين ، ترجمة زهير الشايب ، وصف مصر ، جـ١ ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦ ، ص ٦٥ .

(٤٢) عبد الجواد صابر اسماعيل ، دور الأزهر فى مصر ابان الحكم العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم ، جامعــة القاهرة ، سنة ١٩٦٩ ، ص ١٤٩/١٥٠ .

(٤٣) ج. دى شابرول ، دراسة فى عادات وتقاليد ســكان مصــر الحديثة ، مرجع سابق ، ص ٦٤ .

(٤٤) سعد زهران ، فى أصول السياسة المصرية ، دار المســتقبل العرب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ ، ص ٣٦/٣٧ .

(٤٥) محمد انيس والسيد رجب حراز ، التطور السياسى للمجتمــع المصرى الحديث ، مرجع سابق ، ص ٣٩ .

(٤٦) طاهر عبد الحكيم ، الشخصية الوطنية المصرية ، مرجع سابق ص ١١١ .

(٤٧) عبد العزيز محمد عطية ، معاهد التعليم الاسلامى فى مصر فى العصر العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة الأزهر ، سنة ١٩٨٧ ، ص ١١ .

(٤٨) عبد الله محمد عزباوى ، الحركة الفكرية فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٧١ ٠

(٤٩) عراقى يوسف محمد ، الأوجاقات العثمانية فى القرنين السادس والسابع عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٢٩٠ ٠

(٥٠) المرجع السابق ، ص ٣١١ ٠

(٥١) ج٠ دى شابرول ، دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين ، مرجع سابق ، ص ٦٠ ٠

(٥٢) عبد الله عزباوى ، الحركة الفكرية فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٦٨ ٠

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٦٣ ٠

(٥٤) عبد الجواد صابر اسماعيل ، دور الأزهر فى مصر ابان الحكم العثمانى ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ ٠

(٥٥) كمال حامد مغيث ، مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) مركز الدراسات والعلاقات القانونية لحقوق الانسان ، القاهرة ، سنة ١٩٩٧ ، ص ٢٢١ ٠

(٥٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الحياة الاجتماعية فى مدينة القاهرة ، من كتاب فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، مرجع سابق ، ص ٢٩٦ ٠

(٥٧) محمد سيد كيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، دار الفرجانى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤م ، ص ٣١ ٠

(٥٨) Heywoth Dunne, an Introduction to the History in modern Egypt, London 1948, P. 42.

(٥٩) هشام شرابى ، مقدمات لدراسة المجتمع المدنى ، دار الشروق ، بيروت ، سنة ١٩٨٥م ، ص ٤٠ ٠

(٦٠) المرجع السابق ، ص ٨٧ ٠

(٦١) المرجع السابق ، ص ١٤٨ ٠

(٦٢) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، المطبعة الشرقية ، القاهرة ، سنة ٣١١٣ هـ ، ص ٣١ ٠

الفصـــل الثـــانى

قوى التغيير فى مصر فى القرن ١٩

عرفت مصر فى العصر العثمانى المملوكـــى بعض العلـــوم والمعارف الطبيعية والعقلية ، الا أن الغالب كان للعلوم اللغوية والشرعية ذات الطابع النقلى ، مما وسم المناخ الثقافى المصرى آنذاك بالجمود وشيوع آليات النقل والاتباع ·

غير أنه مع بدايات القرن ١٩ حدثت مجموعة عوامل شكلت قوى التغيير والتغير فى المجتمع المصرى الحديث · وسوف يعرض الباحث لأهم هذه القوى من خلال ثلاثة موضوعات نرى جدارتها بالدراسة لدلالتها الثرية فى حركة التغيير المجتمعى والثقافى ، وذلك من خلال كتابة فكرية تعتمد عرض التاريـــخ من خـــلال موضوعات أو محاور Topical على النحو الآتى :

اولا ـــ التأثير الفرنسى فى حركة النهضة :

أشرنا أن مصـــر العثمانية المملوكية كانت تمثـل مجتمعـا مستقرا تسيطر عليـه الصفوة العسكرية والعلماء فى تحالف ضمنى مع طبقة الصناع والتجار ، مرتكزين على طبقـــة عريضـــة من

المزارعين وأهل الريف . لكن مجيء الحملة الفرنسية قضى على هذا البناء ، ففقدت الصفوة العسكرية القديمة سطوتها ، وحل محلها عسكر الفرنسيين ، وزاد نفوذ العلماء المشايخ بعد أن تملقهم بونابرت وأشركهم فى أمور الحكم(١) .

ورغم أن الحملة لم تمكث بمصر سوى ثلاث سنوات (١٧٩٨/١٨٠١) قضت معظمها فى أمور حربية سواء داخل مصر أو خارجها ، فإن آثارها النهضوية طغت على اهتماماتها الحربية . ففى الوقت الذى كان فيه الجنرال (ديزه) يطارد المماليك فى الوجه القبلى ، كان العلامة (دنوب) يقتفى أثره على المهل ، حاملا آلات العلم وأدواته ، لأداء مهمته فى رسم العجائب التى امتلأت بها أرض مصر(٢) . وقد واصل العلماء الفرنسيون جهودهم فى المجتمع العلمى حيث قدم (برتولليه) أبحاثا فى تكوين النشادر وفى صناعة النيلة ، وقدم (أندريوسى) تقريره عن ارتياده لبحيرة المنزلة ووادى النطرون ، ووصفا للأديرة القبطية القريبة من البحيرات ومقالا عن عادات القبائل البدوية ، وقرأ (سوسى) بحثا عن الحاجة لارتياد منابع النيل ، و (دوترتر) عن مشروع انشاء مدرسة لتعليم المصريين الفنون الجميلة و (نلتو) عن الحاجة لانشاء كليات للزراعة ومحطات للتجارب ، و (دولوميو) عن اختيار وحفظ ونقل الآثار القديمة المطلوب شحنها من مصر الى فرنسا ، أما (كونتيه) فهو فضلا عن صنعه لأقلام الرصاص رسم أكثر من خمسين رسما مفصلا تفصيلا دقيقا لمختلف الطرق الصناعية التى يستعملها الصناع والحرفيون المصريون .

كما قام الدكتور (ديجنيت) بدراسة أسباب الرمد ووفيات الأطفال ، ووضع تخطيطا لانشاء مستشفى وصيدلية ومدرستين : واحدة للطب وأخرى للصيدلة ، ومدرسة ابتدائية لتعليم الفرنسيين

ولم يستطع الدكتور (ديجنيت) تحقيق مخططه وان كان كلوت بك استطاع بعد ذلك تحقيق ما يشبه ذلك المخطط .

كما قام دكتور (ديجنيت) بدراسة التطبيب المصرى بعناية ، على أساس أن مصر ، مهما كانت حالتها الصحية الحالية ، الا أنها كانت مهد الطب القديم ·

كما حظيت العلوم التطبيقية برعاية كبيرة ، خاصة فى مجال الرياضيات العلمية ، وطبيعة الضوء ، والجاذبية ·

ولعل أكثر العلوم التى أسهمت فيها اللجنة العلمية بأكبر نصيب هى الجغرافيا والمصريات القديمة ، حيث تم رسم العديد من الخرائط حول مصر وآثارها والتى تم طبعها فى كتاب وصف مصر(٣) ·

وتمثلت تجليات الحملة فى تأثيرات مباشرة وسريعة ، وتأثيرات أخرى مهدت لتأثيرات لاحقة ، وربما يكون هذا مقصد هيوارث دن الذى قال : ان الحملة مهدت لحدوث تغييرات بدأت شكل مصر خلال القرن التاسع عشر(٤) ·

وربما تبدأ تلك التأثيرات عندما لمح محمد على من خلال أعمال الفرنسيين فى مصر الحضارة الأوربية وأثرها فى تكوين الممالك والنظم الحديثة ، فشرع فى اتباع سياسة اصلاح واسعة النطاق فى مصر مستعينا بالفرنسيين فى تنفيذها(٥) . خاصة فى مجال التعليم الذى استطاع فعلا انشاء أول نظام تعليمى مدنى علمانى حديث تعرفه مصر ، وذلك على الغرار الفرنسى وعلى نفقة الدولة ، وبالتالى كان التعليم تعبيرا عن سيطرة الدولة واستغلالها لتحقيق احلامها وبناء هيكلها المنشود(٦) .

ومن بين النظم الحديثة التى تأثر بها محمد على تنظيم أجهزة الحكم فيها وذلك بتكوين الدواوين أو المجالس البلدية التى استحدثها بونابرت فى المدن الكبرى وأمهات القرى ، والتى تألفت من كبار الشيوخ والأعيان التى ترجع اليها الحكومة فى مختلف الشئون وكان كل مجلس منها يبعث الى القاهرة مندوبين عنه لتشكيل الديوان الوطنى الكبير(٧) ٠

وما يجدر الوقوف عنده فى هذا الصدد هو « المشروع العظيم » الذى بث فيه مينو أفكاره النهضوية ، ومن بينها تنظيم مسألة تحصيل الأموال ، وكان يهدف — لو تحقق — الى اقرار مبدأ المساواة بين المصريين فيما يؤدونه من ضرائب ، كما كان تنفيذه سيقضى بحرمان الملتزمين ممارسة شئون القضاء والادارة لمنع انزال العسف بالفلاحين واعتبار الحكومة وحدها صاحبة الحق فى اصدار أحكام الحياة والموت ، ولو أنها لا تستطيع فعل ذلك الا عن طريق القضاء ووفق القانون(٨) ٠

وربما يكون هذا هو أساس فكرة الغاء نظام الالتزام ، وتقوية شوكة الدولة المركزية ، والتى نفذها محمد على فيما بعد ٠

وتحقيقا لمبدأ العدالة فى تحصيل الضرائب ، أنشأ مينو فى ٢ مارس سنة ١٠٨١ لجنة المساحة وذلك من أجل تحديد قيمة ضريبة الأرض السنوية أو الميرى وتحصيلها بالعدل(٩) ٠

ومن بين مشروعات النهضة الزراعية فى مصر ، اهتمام مينو بمشروعات الرى ، وكذلك انشاء حديقة للتجارب واستزراع نباتات جديدة والعناية بالمحصولات الوطنية كما استكثر من زراعة الأشجار خاصة الجميز والتوت .

وفى مجـــال الصناعة ، دفعت حاجات الجيش الفرنسى لبعض السـلع مينو للاهتمـام بالصناعة ، حيث كلف (كونتى) بعمل مصنع للنسيج ، كما قامت صناعات أخرى للصابون والبيرة ، كما استقدم مينو عمالا مهرة من فرنسا خاصة فى مجال صـناعة النسيج والحدادة والطباعة وغيرها ، مما يعد نواة للصـناعات الحديثة فى مصر(١٠) ٠

وفى مجال الصحة ، أنشأ الفرنسيون المستشفيات العسكرية فى الجيزة وبولاق ومصر العتيقة ، واهتم أطباؤها بالصحة العامة للمصريين الذين لم يجدوا غضـاضة فى عرض أنفسـهم على أطبائها ، وتناول ما يعطى لهم من أدوية(١١) .

ويمكن رصد بعض اهم التأثيرات المباشرة للحملة فى الآتى :

١ – اضعاف الطبقة الحاكمة القديمة ، والتمهيد لظهور أولاد البلد كقوة سياسية قادرة على حسم الصراع على حكـم مصـر بعد ذلك ٠

٢ – توجيه أنظار العالم الى مصر الفرعونية بعد اكتشاف حجر رشيد ، وفك طلاسم اللغة الهيروغليفية ، وظهـور كتـاب وصف مصر ٠

٣ – توجيه أنظار العالم الى أهمية موقع مصر الاستراتيجى مما فتح عليها حقبـة من التنافس الاستعمارى ، وهى ما عرفت باسم المسألة المصرية(١٢) ٠

ولقد اعتمد محمد على فى تنفيـذ سـياساته على كثير من الفرنسيين منهم من كان مع الحملة وتخلف عنها ، ومنهم من هاجر من فرنسا ليحقق ذاته فى مصر ٠

دور الخبراء المصريين فى مشروع النهضة المصرية الحديثة :

عندما تولى محمد على الحكم فى البلاد ، واستـــتقرت له الأمور فيها ، لجأ الى الاستعانة بالخبراء الفرنسيين ، وبخاصـــة جماعة العلماء التى احتضنت فكر (سان سيمون ١٧٦٠/١٨٥٢ Saint Simon) مؤسس الاشتراكية الفرنسية والذى رأى أن صلاح أحوال العالم يكون بالصناعة والعلم والاهتمـــام بالطبقـــة العاملة ، اعتمادا على استغلال قوى الطبيعة ، وفى ظل امتـــلاك الدولة لأدوات الانتاج والحد من التعصب القومى ، وقيام حكومة عالمية وبرلمان دولى لتنفيذ المشــــروعات العامة التى تعود بالنفع على المجتمع الانسانى · وعندما مات (سان سيمون) خلفه فى الزعامة (بروسبير انفانتان P. Enfantin) الذى اعتبر مدرســـة الهندسة العليا فى باريس أهم مصـــادر نشر افكاره فى المجتمع . والذى هاجر الى مصر هو وأتباعه ليحققوا فيها بعض أحلامهـــم الاشتراكية ، وأهمها شق قناة تربط البحرين المتوسط والأحمر ، غير أن محمد على رفض تلك الفكرة ، وان كان قد رحب بفكـــرة (انفانتان) بانشاء مدرسة للهندسة ، وبناء قناطر على النيل ·

ويعتبر (لامبير Lambert) أن حملة السان سيمونيين على مصر سنة ١٨٣٣ م ، هى الحملة الفرنسية الثانية بعـــد حملـــة بونابرت سنة ١٧٩٨ م وان كانت الأولى قد فشلت ، فان الثانية قد نجحت · ولعل ابرز مجالات تفوق السان سيمونيين فى مصر كان بناء القناطر ، وجهودهم فى مجال التعليم على النحو التالى :

ــ اقترح انفانتان انشاء مجلس للتعليم العـــــام ، ولجنـــة استشارية للعلوم والفنون ، وتحقق الاقتـــراح الأول ، اذ أنشـــأ محمد على مجلسا عاما للنظر فى تنظيم المدارس برئاسة مصطفى

مختار بك وعضوية لامبير وكلوت بك وحكيكيان أفندى والطهطاوى وغيرهم ، وهو المجلس الذى اقترح سنة ١٨٣٦ م تقسيم التعليم الى ثلاث مراحل : ابتدائية وتجهيزية وخصوصية ، ووضع لوائح لكل مرحلة(١٣) ٠

ـ وساهم (لامبير) فى ادارة مدرسة المعادن سنة ١٨٣٤ م ، كما قام بالتدريس بمدرسة المهندسخانة ، وأشرف على تدريس الطبيعة والكيمياء والخرائط ، كما أشرف (حكيكيان) على دروس البناء ٠

وتولى (بيرون Perron) نظارة مدرسة الطب البشرى من سنة ١٨٤١ م حتى سنة ١٨٤٦ م ٠ كما تولى (برونو Brounoau) ادارة مدرسة الطوبجية بطره من مارس سنة ١٨٤٠ م حتى سنة ١٨٤٧ م واقامها على النموذج الذى تسير عليه مدرسة المهندسخانة العسكرية بباريس ٠

وتولى (ديشارم Desharmes) ادارة مصلحة الطرق والكبارى ومنذ مارس سنة ١٨٣٤ م وضع (أوليفيه Olivier وتوشيه Toche وبوفور Beaufort) مشروعا لتنظيم مزرعة نموذجية لكى تكون نواة لمدرسة زراعية هدفها تعليم الزراعة لمائة من الفتيان سنويا ، والعمل على ادخال آلات زراعية حديثة للتقليل من نفقات الأعمال الزراعية ، وتحسين سلالات الحيوانات وتهجين أصناف جديدة ، والاستفادة من الألبان فى صناعة الجبن(١٤) ، وكذلك أقلمة دودة الحرير ، وكانت مدرسة الزراعة بنبروه ، نتاج هذه الفكرة ٠

وعلى المستوى الفكرى ، تأثر الطهطاوى فى آخر مؤلفاته (مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) بفكرة أوجست كونت فى الفصل بين السياسة والدين ، وهى الفكرة

التى ستتبلور بشكل اكثر وضوحا وتحديدا وان اتخــذت طابعا دينيـــا ، عنـد على عبد الرازق فى مشروعه البحثى الرئيسى « الاسلام واصول الحكم »(١٥) .

وربما كان ايمـــان السان سيمونيين بالنظام التكنوقراطى ، وازدرائهم للديموقراطية البرلمانية ، وتدخل الجهلاء لاختيار الحاكم وكذلك ايمانهم بان القائد هو الذى يفرض نفسه على المجتمع بقدراته المتفوقة ، وكذلك ازدراؤهم للحرية التى اعتبروها فوضى ، هو الذى دفعهم الى مصر . لقد رأوها تحت حكم فردى أوتوقراطى يمارس فيها محمد على دور الديكتاتور المستنير الباسط يده على كافة أراضيها ، والتارك ريع الأرض فقط للمزارعين كمجـــال خصـــب لتحقيق احلامهم فى مجتمع تختفى فيه الملكية الوراثية والاستغلال المثمر لموارد البلاد عن طريق كشف المناجم وانشاء المدارس واقامة زراعات جديدة وتحسين وسائل الرى والصرف(١٦) ٠

جاء السان سيمونيين الى مصـــــر يحلم تحويلها الى بلد صناعى يعتمد على الصـــناعة ومنتجاتها لتحقيق فكرتهـــم عن التصنيع واستغلال الانسان للطبيعة بدلا من استغلال الانسان لأخيه الانسان ٠ جاءوا الى مصر ، وهم يهدفون الى تغيير نظرة الشرق المحافظ الى المرأة باتاحة فرص تعليمها وتثقيفها واقامة دعائـم التربية الاجتماعية التى تعمل على توافر العدالة والمساواة ، وذلك فى ظل مجتمع صناعى يحقق الرفاهية للطبقة الأكبر عددا والأكثر فقرا فى ظل رعاية كبار رجال الصناعة(١٧) ٠

وربما كانت آراء السان سيمونيين فى مصر وراء العديد من الاجراءات التربوية التى قام بها محمد على فى العقد الثالث من القرن ١٩ مثل :

١ - انشاء المدارس الصناعية ، كمدارس الادارة الملكيـــة سنة ١٨٣٤ م ومدرسة المعــادن سنة ١٨٣٤ م ، والهندســة سنة ١٨٣٥ م ، والألسن سنة ١٨٣٥ م ، والمحاسـبة سنة ١٨٣٧ م ، والعمليات (الصنائع) سنة ١٨٣٩ م ٠

٢ - صدور أول لائحـة للتعليـم الابتدائى سنة ١٨٣٦ م ، والذى أصبح هدفه نشر التعليم بين الأهالى علاوة على الاعـداد للتعليم التجهيزى ، ووصل عدد مدارسه الى ٦٧ مدرسة .

٣ - صدور قانون السياستنامة سنة ١٨٣٧ م الذى يعتبـر اول خطوة فى سبيل تنظيم الادارة والحكومة(١٨) .

ثانيا - حكام مصر وتوجهاتهم السياسية :

يمثل الحكام فى معظم البلاد النامية محور الحياة فيها ، حيث القرارات تصدر عنهم والسياسات توضع وفق ميولهم وتوجهاتهم ، وهذا ما سنعرض له من خلال الحديث عن حكام مصر فى الفترة موضوع البحث ، وذلك على النحو التالى :

١ - محمد على (١٧٧٩ م - ١٨٤٩ م) حكم مصر من (١٨٠٥ م/ ١٨٤٩ م) :

اختاره الشعب المصرى واليا على أن يحكم بالعدل ، وعندما تولى الحكم تخلص من منافسيه من المماليك والقيـادات الشعبية ذات الطابع الدينى والشأن الرفيع ، واستأثر بحكم البلاد وحده ٠ واهتم بتسيير أمور الدولة الحديثة اداريا واقتصاديا ، وساهم فى اقامة وتدعيم طبقات اجتماعية أهمها طبقة الأجانب من أتراك وأكراد وألبانيين وشركس وأرمن حيث وصل عددهم فى نهاية حكمه حوالى ٦٠ الف نسمة(١٩) مثلت بداية تغلغل العناصر الأجنبية فى مصر

وهيمنتها على أهم المناصب وتاثيرها على مجريات الأمور ، خاصة الاقتصادية ، مما سيتجلى بوضوح فى عصر اسماعيل ٠

علاوة على طبقة الأجانب ، تكونت بمصر شريحة اجتماعية جديدة هى طبقة العسكر المصريين ، هذه الطبقة التى ستؤثر فى مجريات الأمور السياسية والحربية فى مصر ، خاصة أيام حكم الخديو اسماعيل وبداية حكم توفيق ٠ كما ســـاهمت البعثـــات التعليمية ونجاح النظام المدنى الحديث فى التعليم وحركة التصنيع - والترجمة والطباعة والنشر والصحافة فيما بعد - ساهمت فى بلورة طبقة المثقفين من العاملين فى الجهاز الادارى والحكومى ، وهى طبقة اجتماعية يرى بعض المفكرين أنهـا نواة البورجوازية المصرية فى العصر الحديث ٠

ولكن هل تعتبر اجراءات محمد على الســابقة أو غيرها ، مجرد اجراءات علوية فوقية ، ليس لها سند شعبى ، أو أنهـــا اعتمدت على تأييد شعبى استمدت منه قوتها ؟

يرى أحمد صادق سعد أن قرارات محمـــد على واجراءاته استندت الى تأييد شعبى معتمدا فى ذلك على رســالة القنصـل الفرنسى الى وزير خارجيته فى ٢/٧/١٨٠٥ م والتى جاء فيهــا « اعتمد حكم محمد على على تأييد الفلاحين وثقتهم الى جــانب مساندة سكان القاهرة »(٢٠) ٠

ثم يورد أحمد صادق سعد ما يؤكد ذلك ، ففى سنة ١٨٠٧ م أبطل محمد على مسموح المعممين الذين كانوا يحبسون الفلاحين واعتادوا ضربهم بالفلقة والسياط ، وفى سنة ١٨١١ م شكل ديوان الفتنة فأتى اليه الفلاحون أفواجا شاكين من الملتزمين والاقباط

لأنهم يستقطعون منهم اكثر من حقهم ، واثيرت بهذا حركة بين الفلاحين ضد الملتزمين والصرافين استفاد منها الباشا فى الغاء نظام الالتزام ٠

كما كان توزيع أراضى الزمام على الفلاحين الذى جرى بين سنة ١٨١٣ م وسنة ١٨١٨ م سببا جديدا لتأييد الريف المصرى لمحمد على ٠

كما كان لها نفس الأثر تلك الاجراءات التى وضعت نظاما لحقوق الانتفاع ، ولعلاقة رجال الحكومة والاداريين بالفلاحين (ولا يتناقض هذا مع معارضة الفلاحين لنواح أخرى من حكم محمد على ٠ فهذه الازدواجية من الخصائص التقليدية للحركة الشعبية فى مصر) ٠

ويؤكد صادق سعد على أن قدرة محمد على على تعبئة ١٠٪ من سكان مصر فى الجيش والمصانع الحكومية أمر لا يعود الى استسلام الفلاحين للأساليب القاسية فقط ، وانما يعود أيضا – ولو بشكل جزئى – الى نوع من المساندة المتبادلة ، المخلوطة بالكراهية ، بين النظام الجديد وبين الطبقات الكادحة ٠

والخلاصة ان التغيرات التى أجريت بواسطة جهاز الدولة – من اعلى – كانت متلازمة مع خلفية جماهيرية متحركة(٢١) ٠

أما بالنسبة للمؤثرات الثقافية التى أثرت فى توجهات محمد على الحضارية ، فانه قد تأثر بمكونات البانية وتركية ومصرية انصهرت جميعها فى بوتقة اسلامية ٠

فقد تميزت البانيا – الوطن الأصلى لمحمد على – فى الفترة من منتصف القرن ١٨ حتى أوائل القرن ١٩ بمولد النظام البورجوازى ذى الطبيعة التجارية الربوية ، وتوافرت لها زعامات

قامت بدور تحديثى مشـابه ، الى حد كبير ، للدور الذى قام به محمد على فى مصـــر ، مما يرجح تأثره بهم ، وعلى رأس تلك الزعامات الألبانية على باشا التبدلنلى (١٧٤٤ ـ ١٨٢٢) الذى قاد حركة تحديث واسعة على المستوى الاقتصـادى والعسـكرى والتعليمى ، والتى كان من نتيجتها ان بدت البانيـا وقت حكمـه افضل تنظيما من الأجزاء الأخرى من الامبراطورية العثمانية حيث اتسمت وقتها بالسمات الانتقالية الى النظام الرأسمالى وبالازدهار التجارى ، والنضال القومى ضد السيطرة العثمانية اعتمادا على دولة مركزية قوية ذات وضع احتكارى فى ميـادين اقتصـادية شتى ، وهذه كلها خطوط عامة يمكن أن نجدها فى التحولات المهمة التى جرت بمصر أيام حكم محمد على المقدونى الالبانى ، وهذا ربما يجعلنا نفهم معنى حماس محمد على لمقدونيته وقوله : أنـا واحد من جنسهم(٢٢) .

وبالاضافة الى المكون الأساسى فى شخصية محمد على ، وهو المقدونية الألبانية ، كان أيضا تركيا والى أقصى درجة وانعكس ذلك على تمييزه للترك فى الادارة والجيش ٠

كما كان شديد الاعتزاز بمصر وبمصريته وقال فى ذلك « اننى أشعر أننى مرتبط بهذا الوطن الذى اتخذته مقاما لى ولن أعـرف الراحة الى أن أبعث هذه البلاد »(٢٣) ٠

٢ ــ عباس باشا الأول (١٨١٣ م ــ ١٨٥٤ م) حكم مصـر من (١٨٤٩ م/١٨٥٤ م) :

توافرت له فرص التدريب على شئون الحكم والسياسة ولم تتوافر لغيره من أفراد اسرته ، لكن الفرص وحدها لا تكفى اذ لم تتوافر قدرات خاصة بشئون الحكم ، فهل توافرت تلك القدرات فى عباس ؟ ٠

على ما يبدو أنها لم تتواتر ، اذ يرسل جده اليه برسالة يقول فيها « عباس : التفت لأشغالك واترك الراحة لأنك تؤخر أشغال المصلحة ، وما كان أملى فيك ذلك · عباس : تبين لى أنك لا تعمل بموجب نصيحتى كأنك لست أهلا للعمل الذى أنت فيه »(٢٤) ·

وعلى ما يبدو ان عباس لم ينشغل باعلاء مقام أسرته ، كما لم يحزنه سقوطها ، وهو كما وصفه عمه ابراهيم كان (نحسا مجسما) ·

تولى حكم مصر وحمل فى نفسه حقدا أسود على أهله ، وكذلك على المصريين ، فسلب ثروات أهله ، ورفض تطبيق النظم الخيرية العثمانية فى مصر ، وساق فى ذلك حججا تفضح حقده الأسود على المصريين ، فوصفهم بالاجرام والعناد وغلظة الكبد .

تولى عباس الحكم بعد وفاة عمه ابراهيم ، وفى حياة جده محمد على ، ولم يرث مواهب جده وبعد نظره ، أو شجاعة عمه ·

عاش غريب الأطوار ، متعنتا ، ميالا الى القسوة ، سىء الظن بالناس ، ففضل حياة العزلة بعيدا عن العمران .

وقد وصفه المؤرخ محمد صبرى بأنه « عقلية خاملة ، طائش ، متطير ، شكاك ، مداهن ، بارد ، قاسى ، متسلط ، رجعى ، عدو للتجديد ، مسرف ، مولع بالترف والملذات ، غريب الأطوار ومتقلب »(٢٥) ·

انعكست تلك الملامح على سنوات حكمه ، فكان عهده عهد رجعية ، توقفت فيه حركة الاصلاح ، وأغلقت المدارس ، ونفى الطهطاوى وغيره الى الخرطوم ، كما تخلص من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين بعزلهم أو نفيهم · وأغلق معامل ومصانع كان محمد على قد أنشأها وذلك بحجة الاقتصاد فى الانفاق ·

ونال الفرنسيون قسطا من سوءاته ، فقلص نفوذهم ، وقضى بذلك على الجانب الصحى والمفيد من النفوذ الأوربى ·

لكن كان لتلك الصفات البغيضة بعض الايجابيات ، منهـا : وقف تدفق الأجانب على مصر ، وتحقيق الأمن الداخلى بضـرب قطاع الطرق ، وقطع دابرهم وعدم الاسراف مما أدى الى عـدم الاستدانة ·

كما أنشئت فى عهده السكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية وأصلح طريق القاهرة ـ السويس ، وساهم فى حرب القرم التى تحقق فيها النصر على روسيا ، كما شجع الأثرى (أوجست هريت) على البحث عن الآثار ، فاكتشف مدفن العجول بسقارة ·

٣ ـ سعيد باشا (١٨٢٢ م ـ ١٨٦٣ م) حكم مصر من (١٨٥٤ م/ ١٨٦٣ م) :

ابن محمد على ، تعلم على يد (المسيو كوينج) فاكتسب ثقافة وذوق الفرنسيين ، وعندما تخطى العاشرة درس الفنون البحرية بالأسطول المصرى ، وكان أبوه حازما فى تربيته ·

وكان خجولا طيب القلب ، ميـالا الى التسـامح ، نفـورا من الظلم ، محبا للظهور والاختلاط بالأجانب ، حليما ، فكها ، سمير الطبع ، أكولا ·

لكنه بين شدة والده وحزمه ، وبين طبيعته اللينة ، والمعاملة الطيبة التى كان يتلقاها من رؤسائه ، كان ينقصه الاتزان . فجمع الى فضائله السابقة ضعفا للارادة ، والتردد ، وعدم الاسـتقرار على رأى ، سريع التأثر بما يسمعه ، يسرع الى الغضـب بقـدر ما ينزع الى الرضا لأوهى الأسباب .

عندما تولى حكم مصر ، انعكست ملامحه على سلوكه السياسى ، فانطلق على سجيته ، مندفعا ، يعمل قبل أن يفكر ، وبذلك يسهل وقوعه فى الخطأ ، فاذا حاول اصلاح الخطأ ربما وقع فى خطأ آخر ، وهنا يكمن السر فى تردده وفى الأحداث التى وقعت فى عهد .

وكان لتوليته مقاليد الحكم رنة فرح اهتزت لها مصر التى ضاقت ذرعا بشدة عباس ، ولم يعدل سرور المصريين سوى ارتياح الأجانب لتولى الحاكم الجديد ، الذى اشتهر برغبتـه فى تخليد ذكراه عن طريق القيام بمشروعات اصلاحية نافعة وأهمها سياسته الزراعية التى هدفت الى اصلاح حال الفلاحين والتخفيف عنهم واعطائهم حق الملكية ، كما الغى نظام الاحتكار ، وخفف عن الأهالى عبء الضرائب ، وألغى الضرائب المتأخرة على الفلاحين جملة واحدة مع أنه مرر بند السخرة فى امتياز قناة السويس مما يؤكد تناقضاته ، كما طهر ترعة المحمودية واستكمل الخط الحديدى بين القاهرة والسويس التى اتخذها ميناءا رئيسيا فى عهده ورفع من مكانة العنصر المصرى فى وظائف الحكم والادارة واستنكر مظالم الترك فى مصر ، وتعاطف مع المصريين(٢٦) .

وكانت سياسته تلك عنصرا مهما فى ارتفاع مستوى المعيشة، وأصبح الشعب ينظر حوله فيرى المصريين يشغلون المناصب الكبرى فى الجيش والادارة ، فأخذ يهتم بشئون البلاد العامة ، وسرت فيه روح الوطنية ، حتى أن عرابى يذكر أن سعيد باشا هو واضع أول حجر فى أساس مبدأ مصر للمصريين ، وواضع أساس النهضة الوطنية الشريفة فى قلوب الأمة المصرية الكريمة(٢٧) .

ويؤكد الرافعى على ذلك ، من أنه لو استمرت تلك الروح فى عصور خلفائه ، ما كانت البلاد فى حاجة الى قيام الثورة العرابية(٢٨) . ورغم بخل سعيد باشا على التعليم المصرى ، فانه كان يصرف على التعليم الأجنبى فى مصر ببذخ .

اهتم بالجيش ، ثم عاد وخفض أعداده ، ووجه جنوده لحفر القناة ، وأهمل الأسطول .

وكان سعيد باشا حاكما شرقيا يملك فى يده كل السلطات من تشريعية وقضائية وتنفيذية ، منح ديلسبس امتيازا لحفر القناة واستثمارها لمدة ٩٩ سنة ، وفق بنود دفعت مصر الى مشكلات معقدة وقام سنة ١٨٥٧ م باعادة تنظيم الدواوين وجعل منها أربعة : الداخلية والمالية والحربية والخارجية .

٤ ــ الخديو اسماعيل (١٨٣٠ م ــ ١٨٩٥ م) حكم مصر من ١٨٦٣ م/١٨٧٩ م) :

تعلم الفرنسية ، التحق بالمدرسة العسكرية المصرية بباريس سنة ١٨٤٥ م ، ثم استكمل دراسته الحربية بكلية سان سير الحربية . وعندما تولى عباس باشا الحكم ــ وكان بينهما جفاوة ــ رحل اسماعيل الى الاستانة حيث عينه السلطان عبد المجيد عضوا بمجلس حكام الدولة العثمانية ، ومنحه الباشوية . وعاد الى مصر بعد موت عباس لينعم برعاية سعيد باشا الذى عهد اليه برئاسة مجلس الأحكام . أكبر هيئة قضائية .

اهتم بنهضة مصر ، حتى قبل توليه الحكم ، فهدف الى اصلاح القضاء بانشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٦٢ م ، وعهد الى شريف باشا لوضع مذكرة بذلك .

وعندما تولى الحكم بادر برسم سياساته العامة فى النقـاط التالية(٢٩) :

١ ـ النظام والاقتصاد فى المالية ، ومن ذلك تقـرير مرتب سنوى له لا يتجاوزه ٠

٢ ـ انماء الشئون الزراعية وتحسينها ، ومن ذلك الغـاء السخرة ٠

٣ ـ تشجيع التجارة الحرة ٠

٤ ـ الاهتمام بالتعليم « أساس النجاح والرقى » ٠

٥ ـ اقامة العدالة وتوزيعها بين الناس بالقسطاس ، وكان يؤمن بأنه لا ينبغى أن يبنى للجيل الذى يعيش فيه وحده ، وانمـا عليه أن ينبى لهذا الجيل وللأجيال التالية ٠ وقد أدرك أن اصلاحات محمد على لم يقدر لها أن تحيا من بعده ، الا لأنها لم تهدف الى المستقبل ، قدر استهدافها للحاضر ، وانها لم تجد ذلك الرأى العام المستنير الذى يحفل لهذه الاصلاحات وينهض لحمايتها من عوادى الجهل ، ويمكن لها البقاء ٠

كما آمن اسماعيل بما آمن به محمد على من قبل ، من أن فى أولاد مصر قابلية ونجابة(٣٠) ٠

اهتم بالجيش حتى غدا أقوى من جيش السـلطنة العثمانية ذاتها(٣١) ، فقد حقق لمصر شخصية قومية مستقلة سـواء فى الداخل أو الخارج ، مما دعا البعض الى اعتباره منشىء الأمة وموقظ القومية المصرية ومدعم استقلالها(٣٢) ٠

استفاد من تجربة محمد على النهضوية ، فلم يبدأ ببنـاء القوة العسكرية ، انما الدولة العصرية ، ولذلك لم يعتمـد على

سيف المعز ، بل ذهبه ، لذا بدا رجل سلام ، رغم انه مد تخوم مصر الى خط الاستواء باقل النفقات ، والغى السخرة ، واكتشف منابع النيل ٠

واستعراض انجازات الخديو اسماعيل امر يصعب فى صفحات قليلة فى بحث لم يعد أصلا لهذا الموضوع ، لذلك سيركز الباحث على بعض الانجازات ذات الدلالات المهمة على النحو التالى :

الغاء السـخرة والنخاسـة :

اشتغل حكام مصر بتجارة العبيد ، ويقال ان محمد على فتح السودان من أجل ذلك ٠ ورغم أن سعيد باشا قد حرم النخاسة ونهى كبار موظفيه عن استعمال السوط ، الا انه بالموافقة على السخرة فى حفر القناة أصبح غير معارض للنخاسة ، مما ساعد على تفشيها ٠

وفى اليوم الأول لتولى اسماعيل حكم مصر ، أعلن عزمه على الغاء السخرة « هذا معنى من معانى العدالة والحرية أريد أن تتوافر عليه جهودى فقد حان الوقت ليفهم الجميع أن الفرق فى اللون لا يحول الانسان الى سلعة ، وان الحياة والحرية مقدستان »(٣٣) ٠

هذا على مستوى التصريحات ، أما على مستوى الفعل الرسمى ، فقد خاض الخديو معركة شرسة من اجل الغاء البند الخاص بتقديم الحكومة المصرية العمال بالسخرة فى حفر القناة ، رغم ما كلف الغاء هذا البند خزانة الحكومة المصرية من اموال طائلة حسب حكم نابليون الثالث امبراطور فرنسا(٣٤) ٠

تعميم اســتعمال اللغــة العربيــة :

« أمر كريم الى ناظر المالية ٠٠

ان المكاتبات التى تتداول من الآن فصــاعدا بكافة الدواوين والمصالح الميرية التى بداخـــل جهات الحكومة تكون باللغـــة العربية(٣٥) ٠

العدالـــــة :

من أقواله فى العدالة ٠٠ لا تقــوم قــوة الدولة بالبحرية والجيوش البرية ، فما البحرية والجيوش البرية الا أركــان من اركان القوة أو مظهر لها ٠ فهى أشــبه بالذراع والساعدين فى الجسم ، ولن تؤتى القوة حقا ، الا اذا انتظم أمر المعدة ، ومعدة الدولة هى ادارتها ونظامها ٠ وشرط صلاح الادارة انما هو سير العدالة سيرا حسنا ٠ ومن نافلة القول التدليل على هذه الحقيقة فهى من المسلمات البديهية(٣٦) ٠

التســــــامح الدينى :

من تقــرير أوكتاف ساشو للمسيو دورى وزير المعــــارف بفرنسا ٠٠ ليس رعايا مصر من المسلمين فحسب ، فمن المعلوم أن بين أهلها عددا من المسيحيين الأقباط ، وانها لمناسبة تنتهز للتنويه بالتسامح الدينى المنتشر فى أنحاء مصر ، والمرفرف على الجميع دون استثناء مما يشرف قوانين البلاد وشمائل أهلها(٣٧) ٠

المحـــاكم المختلطـــة :

نال الأوربيون مزايا وحقوقا فاقت الحد ، بفضل الامتيازات الأجنبية ، وتسامح سعيد باشا وسخائه معهم .. حتى ان محاكمهم القنصلية اذلت الأهالى وجمالت رعاياها وأخضعت الحكومة لأحكامها وفرضت عليها تعويضات فى أربع سنوات من ١٨٦٤ حتى ١٨٦٨ م حوالى ٢٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه ، حسب احصاء ماك كون فى كتابه « مصر كما هى »(٣٨) .

ورأى اسماعيل الغاء المحاكم القنصلية واقامة محاكم الاصلاح أو المحاكم المختلطة التى تقوم بالفصل فى جميع المنازعات التى تمس مصالح الأجانب .

وقد علق الخديو والحكومة والأهالى أملا على تلك المحاكم فى تحقيق العدالة فقال الخديو فى حفل افتتاح المحاكم المختلطة « هذا اليوم ، أيها السادة ، يجب أن يسجل فى تاريخ مصر ، وسيكون بداية عهد جديد من الحضارة ، وأنا بعون الله واثق من أن المستقبل مضمون لعملنا العظيم »(٣٩) .

تخفيف شروط امتياز حفر القناة :

خاض الخديو معركة شرسة ضد البنود الجائرة لامتياز حفر القناة ، وقال قولته المشهورة : انى أريد أن تكون القناة لمصر ، لا أن تكون مصر للقناة . واعترض على أربعة بنود هى :

١ – وعد الحكومة بتقديم العمال باستمرار .

٢ – ملكية الشركة لترعة المياه العذبة .

٣ ـ ملكية الشركة لجميع الأراضى التى ترى أنها فى حاجة اليها ، وملكيتها لجميع الأراضى التى سوف تقوم باستصلاحها .

٤ ـ نزع الحكومة الأطيان المملوكة للأفراد ، اذا احتاجت اليها الشــركة .

وكانت حجة الخديو فى رفض البنود الثلاثة الأخيرة .. ان قوانين الدولة العثمانية المتبعة فى مصــر تمنــع تملك الأجانب للعقارات والأراضى فى دولتها . أما البند الأول ، فاعتمد فى ذلك على رغبته فى الغاء السخرة ، واحتكم فى ذلك الى نابليون الثالث الذى حكم حكما جائرا بالموافقة على اعتراض الخديو مع تغريمه مبلغ ٣٨ مليون فرنك فرنسى تعويضا للشركة(٤٠) .

نزوعــه الى التعمــير :

نصح الخديو السير صمويل بيكر ، قائد الحملة المصرية الى جوندوكرو فى وسط أفريقيا لاكتشاف منابع النيل .. « لقد رسمت لك خلاصة الخطة التى أرغب منك أن تسير عليها ، الا أننى أدع لك رسم الوسائل التى تؤدى الى تحقيق غايتنا ، لا تواصل الزحف الى الأمام ، بل استعمر البلاد ، وعلم السكان واجعــل القبائل موالية لك ، ومتى أنجزت ذلك فواصل الزحف الى الامام »(٤١) .

وفى رسالة أخرى كان توجيهه « اننى أفكر فى انشاء محطات مركزية وفى الشروع فى زراعة القطن بجوارها ، وبهذه الطريقة يسهل زرع ألف فدان فى كل محطة فيكون لنا من المحطات الثمانى ثمانية آلاف فدان مزروعة لا تقتضى نفقــه ، وستتضاعف أرباح السنة الثانية ، ويتوقف رخاء البلاد على حزم الادارة(٤٢) .

الخـديو حاكـم ديمقراطى :

أمر الخديو نوبار باشا بانشاء مجلس للنظار وفقا للحيثيات الواردة فى أمره كالآتى « انى أطلت الفكر وثبت عزمى على اصلاح الادارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية فى ادارات ممالك أوربا ٠ وأريد عوضا عن الانفراد بالأمر ، سلطة يكون لها ادارة عامة على المصالح تعادلها قوة موازية من مجلس النظار ، بمعنى : يجب على مجلس النظار أن يتعارض فى جميع الأمـور المهمة المتعلقة بالقطر ، ويرجح رأى أغلبية الأعضاء ، فيكون حينئذ صدور قراراته على حسب الأغلبية ، وبتصديقى عليها أقرر الذى تكون عليه الأغلبية »(٤٣) ٠

ديـون مصـر :

كان محرك اسماعيل للاستدانة هو أن يبنى مرافق البلاد ، وليحول مصر الى قطعة من أوربا كما كان يأمل ، لكنه وقع ضحية مجموعة من اللصوص ـ لا أخـلاق لهم ـ من رجـــال المـــال الأوربيين(٤٤) ٠

والجدول الآتى — ورد ضمن مقال مجهول نشـــرته مجـــلة كونتمبرورى ريفو فى أكتوبر سنة ١٨٨٣ م والذى يؤكد أن ما تم من مشروعات عامة فى عصر اسماعيل ، استنفد أكثرية الأموال التى حصل عليها من القروض ، وهذا الجدول لا يتضمن الفوائد المستحقة على مقاولات الأعمال ، بل اقتصر على ما دفع فعلا فى هذه الأعمال من نفقات(٤٥) ٠

نوع العمل	النفقات بالجنيه	ملاحظات
قناة السويس	٦ر٧٧٠ر٠٠٠	هذا بعد خصم قيمة الأسهم التى بيعت فى عصر اسماعيل باشا
الترع النيلية	١٢ر٦٠٠ر٠٠٠	حفر ما طوله ٨٤٠٠ ميل ، نفقة الميل الواحد ١٥٠٠ جنيه
الكبارى	٢ر١٥٠ر٠٠٠	انشاء ٤٣٠ كوبريا
مصانع السكر	٦ر١٠٠ر٠٠٠	انشاء ٦ مصانع جلب لها الآلات من الخارج
ميناء الاسكندرية	٢ر٤٢٠ر٠٠٠	
أحواض السويس	١ر٤٠٠ر٠٠٠	
وابور مياه الاسكندرية	٣٠٠ر٠٠٠	
السكك الحديدية	١٣ر٣٦١ر٠٠٠	
التلغراف	٨٥٣ر٠٠٠	
المنائر	١٨٨ر٠٠٠	حوالى ١٥ منارة فى البحرين الأحمر والأبيض
الجملة	٤٦ر٢٦٤ر٠٠٠	

هذا غير المشروعات الأخرى الصغيرة التى لو اجتمعت لشكلت أوجه انفاق مهمة مثل انشاء بلدية القاهرة ، وانشاء قسم للمطافى بالقاهرة، ومكافحة التشرد ، وتنظيم المرور ، واعادة تنظيم البوليس واصلاح السجون ، والمحافظة على الآثار وتشجيع أعمال التنقيب ، وتنظيم دار الكتب ، وانشاء الجمعية الجغرافية الخديوية ، واعادة تنظيم الوقائع المصرية ، وانشاء جريدة المونيتور المصرى ، وشراء المطبعة الأميرية وتحسينها وتطوير الأداء بها ، وانشــاء نظــارة الزراعة ، وادخــال الميــاه الجارية بالقاهرة والاسكندرية ، وانارة القاهرة بالغاز وانشاء السلخانات ، وتوزيع الأدوية مجانا على الفقراء ، وغيرها .

ويشيد (مولهول) بقيمة الترع النيلية التى استطاع الفلاح المصرى بفضلها تحويل ١٫٣٧٣٫٠٠٠ فدان من ارض بور الى أرض زراعية أنتجت وقتها ما قيمته ١١ مليون جنيه ، فى حين أن ايجارها لم يتجاوز ١٫٤٠٠٫٠٠٠ جنيه ســــنويا . بهذا زادت الأراضى الزراعية فى مصر من ٤٫٠٥٢٫٠٠٠ فدان ســــنة ١٨٦٢ م الى ٥٫٤٢٥٫٠٠٠ فدان سنة ١٨٧١ م .

كما ذكرنا (البارون فون مالورتى) فى كتابه (مصر والتدخل الأجنبى) أن واردات مصــر زادت من ١٫٩٩١٫٠٠٠ جنيه الى ٥٫٤١٠٫٠٠٠ جنيه ، كما زادت الصادرات من ٤٫٤٥٤٫٠٠٠ جنيه الى ١٣٫٨١٠٫٠٠٠ جنيه .

كما أكد (المستر دى ليون) قنصل أمريكا فى مصر فى كتابه (مملكة الخديو) أن ادعاء انفاق قروض الخديو على القصور ادعاء ظالم وكاذب ، والحقيقة أن ما دخل من تحسينات على المشروعات

العامة التى ابتدأت وتمت فى مصر خلال الاثنتى عشرة سنة الماضية فوق أن تقارن بها مشروعات مملكة اخرى .

وزادت ميزانية التعليم من ٦ آلاف جنيه أيام سعيد باشا الى ٨٠ الف جنيه فى عصر اسماعيل ، عدا ما اضيف اليها من ايرادات بعض الأراضى التى اشتريت من شركة قناة السويس بمبلغ عشرة ملايين جنيه لجعل التعليم مجانا .

وفى عصر اسماعيل تأسست لأول مرة لا فى مصر فقط ، بل فى الامبراطورية العثمانية بأسرها مدارس للبنات ، وانشئت دار للآثار العربية ، واضيف لدار الكتب عدد من انفس الكتب حتى اصبحت من اشهر مكتبات العالم .

والقنصل الانجليزى فى الاسكندرية يؤكد فى تقريره سنة ١٨٦٧ م أن مصر لم يكن بها سنة ١٨٦٣ م سوى ١٨٥ مدرسة ، وصلت سنة ١٨٧٥ م الى ٤٦٨٥ مدرسة تحوى ما لا يقل عن ١١١٫٨٠٣ طالب ، فالخديو حاول أن يتم خلال بضع سنوات ، وبايراد محدود اعمالا كان يجب أن توزع على سنوات عديدة ، ونفقاتها تكفى لارهاق أغنى الأمم(٤٦) .

ويصف السير (صموئيل بيكر) مشروعات الخديو بأنها عظيمة وسابقة لعصرها ويصف حكم الخديو بأنه عدو سريع مشبع بروح التقدم الوثاب(٤٧) . والخديو نفسه يقيم الأزمة المالية ويبدى فيها رأيه « عندما توليت العرش ، أمعنت النظر فى الحالة كل الامعان ، وكان غرضى الأساسى أن تنمو موارد مصر ، وتتحسن حالة شعبى ، وكان لابد لى من الانفاق عن سعة لتحقيق هذه الغايات ، فأنفقت كثيرا على التواتر ، ولم أحجم عن أى تضحية وقتية ، اذ كنت واثقا أننى سأنال ان عاجلا او آجلا أضعاف أضعاف ما أنفق .

وهكذا زججت بنفسى فى ارتباكات مما لايزالون ينعونها على ولكنى سأعود فأسأل نفسى : اذا كنت قد واصلت اصلاحاتى على نمط متواضع ، مؤقت ، مكتفيا بما تدعو اليه حاجات اليوم ، فهل كانت مصر قد تبوأت بين الأمم ذلك المكان الذى تتبوأه الآن »(٤٨) .

ثالثا — علاقات مصر الخارجية :

انتصر السلطان سليم الأول على المماليك وفتح مصر سنة ١٥١٧ م ، وصارت مصر ولاية عثمانية يحكمها وال عثمانى يلقب بالباشا ، فى حين اختص المماليك بحكم الأقاليم . لكن مع الوقت ضعف نفوذ العثمانيين وقوى نفوذ المماليك الذين استرجعوا سلطات الحكم . وصار لشيخ البلد نفوذ لا يعارض ، وصارت المشيخة بمثابة امارة حقيقية لمصر . وأشعر أمراء المماليك الدولة العثمانية أن مصر ليست مجرد ولاية تابعة كغيرها من الولايات لدرجة تحقيق الاستقلال الفعلى(٤٩) .

علاقات مصر الخارجية فى عصر محمد على :

كان حلم محمد على بالاستقلال بحكم مصر ، هو محور علاقات مصر الخارجية فى فترة حكمه فتخوفت السلطنة من هذا الحلم الذى لو تحقق فلن يقف عند حد الاستقلال بل سيعمد الى قلب الدولة العثمانية نفسها ، واذا يقول السلطان محمود « فيم تهمنى الامبراطورية ؟ وفيم تهمنى القسطنطينية ؟ لسوف أعطى القسطنطينية ، واهب الامبراطورية لمن يأتينى براس البغيض محمد على »(٥٠) . وتخوف السلطان يعود الى القدرة العسكرية لمصر على تحقيق أحلام محمد على ، تلك القوة التى ظهرت فى حروب مصر فى شبه الجزيرة العربية ضد الوهابيين ، وفى الجنوب ضد سلطنة الفونج ، وفى المورة باليونان ، وخاصة فى الشام ضد القوات التركية نفسها .. تلك الحروب التى ساهمت بشكل مباشر

فى خلق المسألة الشرقية برمتها ، حيث انتصرت القوات المصرية، فلجأت تركيا الى روسيا ، صاحبة الأطماع فى السلطنة ، فتدخلت فرنسا وانجلترا حتى لا تدعا لروسيا فرصة السيطرة على ممالك السلطنة وتمت تسوية المسألة فى صلح الكوتاهية سنة ١٨٣٢ م الذى نص على تخلى السلطنة عن سوريا واقليم ادنه لمحمد على مع تثبيته على حكم مصر وجزيرة كريت والحجاز مقابل جلاء قواته عن الأناضول .

ثم عاد محمد على واعتزم الاستقلال فى نفس الوقت الذى كان فيه السلطان محمود يستعد لاسترجاع الشام بالقوة ، وفى ابريل سنة ١٨٣٩ م زحفت القوات العثمانية الى الشام ، وأعلن السلطان خيانة محمد على الذى كلف ابنه ابراهيم باشا بالحرب ، وفى موقعة نزيب انتصر المصريون ،وفر الاسطول العثمانى الى الاسكندرية وسلمه قائده فوزى باشا للقوات المصرية فى الوقت الذى مات فيه السلطان محمود وخلفه السلطان عبد المجيد ذو السادسة عشر . وهنا وصلت المسألة الشرقية الى ذروتها ، فاتفقت الدول الكبرى حفاظا على مصـــــالحها فى بقاء الدولة العثمانية على ضعفها والقضاء على القوة الوليدة التى تمثل خطراً عليها ، وتحقيقا لمبدأ توازن القوى الدولى كسبيل لضمان السلام الأوربى — على تسوية المسألة ، فعقدت معاهدة لندن سنة ١٨٤٠م ونص فحواها على مساعدة السلطان على اخضاع محمد على مع اعطائه مصر حكما وراثيا وولاية عكا طول حياته وان يكون لمصر حق الاستقلال الداخلى ولكن بقيود متينة تربطها بالسلطنة مثل الجزية وتمثيل مصر بالخارج وعدد الجيش والاسطول وسلطة منح الالقاب وضرب النقود وفرض الضرائب . وربطت المعاهدة بين استقلال الدولة العثمانية وسلامة أملاكها وبين استتباب الأمن فى أوروبا ونصت على حماية السلطنة من عدوان محمد على كما

حرضت رعايا الدولة العثمانية تحت سيادة محمدعلى على الثورة ضـــده .

ورات انجلترا فى محمد على مغامرا خطرا على مصالحها حيث ان مغامراته ستدفع تركيا للاحتماء بروسيا المتربصة بدورها للسيطرة على البوسفور ، كما ان قوة محمد على فى مصر تهدد مصالحها البحرية والاقتصادية بمناطق نفوذها بالبحر الأحمر ، ووجود محمد على بالشام يهدد طرق تجـــارتها بالهند . لذا كان مبدؤها عدم سيطرة دولة قوية على الآستانة أو الشام أو مصر . وأخذت تحرض السلطان ضد محمد على وتضغط عليه عن طريق المعاهدات التجارية والامتيازات وتتخذها مخلب قط تخدش به محمد على وتهدم صرح كيانه .

أما فرنسا فكانت ترى أن تركيا لن تســتطيع الحفاظ على أملاكها ، وهى ان عاجلا او آجلا ، ستتخلى عنها لمن يقدر على ذلك ، وهذا ربما يفسر احتلالها لمصر سنة ١٧٩٨ م ، ثم احتلالها للجزائر سنة ١٨٣٠ م وان لم تحتل مصر فى النهاية ، فقد حرصت على بقاء حكامها على صلات قوية بها .

كانت فرنسا ترى أن قوة مصر ليست خطرا ، بل انها تحقق مبدأ الحفاظ على الدولة العثمانية ومساعدتها ضد روسيا وقت الحاجة فساندت فرنسا محمد على .. تحرضه وتشجعه ، وتعترض طريقه وتنصحه بالتروى ، اذا تحرك بحيث تكون مصالح روسيا ، كما كان محمد على فى مصر يمثل قوة رأت فيها فرنسا قوة قادرة على مضايقة انجلترا فى مصالحها بالهند ، فاعتبرته مخلب قط لمشاغبة انجلترا .

أما روسيا فلم تكن ذات صلة مباشرة بمصر ، بل جارة السلطنة وتحلم باقتسامها . تدخلها فى صف تركيا فى حربها ضد مصر حول مسألة استقلال مصر من مسألة داخلية الى مسألة أوربية .

أما تركيا فاستخدمت مع مصر سياسة مرنة ، تعطى عند ضعفها ، لتسترجع ما أعطته عند قوتها . غير أن السلطان ، بعد معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ م أصبح لا يحل أى مسألة خاصة بمصر ، دون الرجوع الى أوربا(٥١) .

وبالنسبة لمحمد على فقد تعامل مع القوى الأوربية بحذر وحكمة وحزم فقد ادرك أن فى مقدورهم تسيير الأمور والتأثير على الأحداث ، فصادقهم بحزم ولكن دون اصطدام ، وحاول تحقيق مصالحهم بمصر دون المساس بالحقوق التى حصل عليها .

وفى آخر ايامه أخذ يراجع اهدافه ، فوجد أنه لم يحقق أيا منها .. ولم يوفق فى انعاش السلطنة العثمانية ، بل خاض حروبا معها واضعفها . ولم يحقق مشروع دولته العظمى التى كاد أن أن يضحى بنفسه قربانا لها . ولم يصل الى ضمان ولاية مصر له ولأسرته ، فلا يزال ينتظر كل عام — كغيره من الولاة — فرمان الابقاء .. فأيقن أنه لابد من تغيير الموقف فى ضوء مصلحة أولاده التى تحتم عليه ضمان مستقبلهم فى مصر ، فكان كل همه اجراء تسوية تضمن وراثة حكم مصر لأسرته(٥٢) . وهذا ما حددته تسوية ١٨٤١/٤٠ م التى جعلت من مصر ولاية ممتازة لها وان من اسرة محمد على له حقوق معلومة فى الاســـــتقلال بالادارة الداخلية لولايته دون تدخل من السلطان ووزرائه ، وتحت أمرته ادارة وطنية من مديرين ونظار .

كل هذا مع الاحتفاظ بمصر ولاية عثمانية ، فواليها أحد وزراء السلطان ، وجيشها جزء من جيش السلطان ، وعلى مصر أن ترسل الجزية كل سنة الى السلطان ، والمعاهدات والاتفاقات التي تعقدها حكومة السلطان تسري على مصر باعتبارها ولاية عثمانية(٥٣) . غير أن هذه التسوية لم تقف عند هذا الحد بل تجاوزته لحد تمهيد الطريق لكارثة الاحتلال الانجليزي سنة ١٨٨٢ م . اذ كانت التسوية ذات صيغة دولية وليست مجرد اجراء داخلي بين السلطان وأحد وزرائه ، فقد بنيت على أساس معاهدة لندن بين انجلترا وروسيا وبروسيا والنمسا وتركيا وفرنسا ، وبالتالي أصبحت الدول الأوربية الكبرى السابقة وصية على العلاقات بين الطرفين ، فلا يستطيع أي طرف الخروج عن نصوص التسوية ، فلا تستطيع مصر تحقيق استقلالها مهما بلغت قوتها ، ولا تستطيع تركيا اعتبار مصر ولاية عادية مهما بلغت قوتها . ولذلك ساد التوتر بين الطرفين ، وأصبحا يهرعان الى الدول الأوربية الكبرى لالتماس التأييد عند كل أزمة(٥٤) . لكن الدول الكبرى في عصر التوسع العسكري والاقتصادي لم تكن لتبذل النصح دون مقابل ، لهذا زادت بعد التسوية الامتيازات الأجنبية ومنها امتياز حفر القناة والقروض الأجنبية والمحاكم المختلطة مما خدم مصالحها على حساب مصلحة مصر وتركيا معا ، مما انعكس في النهاية على اضعاف قوة مصر الاقتصادية والعسكرية خاصة بعد تحديد عدد افراد الجيش مما مس مفردات النهضة المصرية في الصميم وافسح المجال للتدخل الأوربي الذي انتهى بالاحتلال الانجليزي(٥٥) .

علاقات مصر الخارجية ايام حكم عباس باشا :

حرص عباس على حسن علاقته بالسلطنه فبدأ بالتسليم الكامل لحق السلطان في ولايته وقال وهو يلثم فرمان توليته ، أنا

لست وزير مولاى ولكن عبده فاذا صدر منى ذنب — معاذ الله — فليدعنى وليذبحنى وليس لى أمل سوى رضائه الشاهانى ، ودلل على حسن طاعته بوقف العمل فى التحصينات الحربية ، وخفض عدد الجيش فاغتبط السلطان ، وأنعم عليه برتبة الصدر الأعظم .

وقابل الانجليز والفرنسيون ولايته بحفاوة حرصا منهما على نفوذهما . لكن عباس تذكر لفرنسا موقفها من جده وتخليها عنه فعمد الى الاستغناء عن معظم الفرنسيين العاملين بمصر ، فأغضب فرنسا .

أما انجلترا ، فان عباس يذكر دورها فى كسر شوكة جده فكان حاقدا عليها كارها لها ، ولكن ليس لدرجة الصدام حتى لا يعطيها فرصة التدخل فى شئون مصر . لذلك قامت سياساته على أساس حسن التفاهم مع الباب العالى ، وحماية مصر من النفوذ الأجنبى وتأليف القلوب حول السلطنة السنية(٥٦) .

لذلك رفض مشروع السكة الحديد الذى تقدمت به انجلترا بحجة انشغال مصر بمشروعات أجدى ، فأغضب انجلترا التى عمدت الى تشويه صورته أمام السلطان بتحريض أفراد أســرته الهاربين هناك على ذلك . فأخذ السلطان يجمع قرائن عزله والحد من سلطاته ، لذلك بحث عباس عن علاقة دولية تحميه من غدر السلطان فكانت انجلترا صــاحبة القوة البحرية المميزة ، والكلمة العليا عند السلطان ، فوافق لها على مشروع السكة الحديد مما زاد من غضب السلطان . لكن وقوف عباس مع تركيا فى حرب القرم قربت بينهما ، وصار عباس باشا محط ثقة الباب العالى .

علاقات مصر الخارجية أيام حكم سعيد باشا :

كان حصول الانجليز على امتياز مشروع السكة الحديد انتصارا لهم وهزيمة للفرنسيين فى حين كان نجاح ديلسبس فى الحصول على امتياز حفر القناة انتصارا للفرنسيين وهزيمة للانجليز فقد اقنع ديلسبس سعيد باشا بأن مصر — بعد حفر — القناة — ستصبح كالقسطنطينية تتحكم فى البوغازات وتصبح موضع اهتمام خاص من الدول وان تسمح دولة لأخرى بالاستيلاء عليها ، كذلك سوف تدر القناة على مصر ربحا وفيرا .

وكان منح هذا الامتياز انحيازا من سعيد باشا الى فرنسا ضد كل من تركيا وانجلترا . فقد رفض سعيد باشا تحويل قضايا مصر الى استانبول لأن تحويلها يتضمن الاعتراف بسلطتها ، وهو يريد تأكيد استقلاله ، فقد صك نقودا نحاسية باسمه دون اسم السلطان(٥٧) .

أما انجلترا التى عارضت المشروع فقد استطاعت الاستفادة من القناة فى هزيمة عرابى ثم احتلال مصر ، كما ربحت من ورائها ربحا هائلا فقد اشترت اسهم مصر فى القناة سنة ١٨٧٥ م بما قيمته ٤٫٠٧٦٫٦٢٢ جنيها بلغ سعرها سنة ١٩٢٥ م ٣٢ مليون جنيه وسنة ١٩٢٩ م ٧٢ مليون جنيه .

علاقات مصر الخارجية فى عصر اسماعيل :

ادرك الخديو اسماعيل من خلال دروس التاريخ ، أن القوة لن تجدى مع من هم أقوى ، فلم يعد أمامه سوى المال سبيلا للحصول على ما يمكن الحصول عليه بالسيف .

وتمكن من استصدار فرمان مايو سنة ١٨٦٦ الذى تضمن توارث حكم مصر لأكبر أبناء اسماعيل سنا ، وزيادة عدد جيش

مصر الى ٣٠ ألف جندى . وفى يونيه سنة ١٨٦٧ حصل على لقب خديو .

ولما شرع اسماعيل فى تنظيم امور القضاء دون الرجوع الى السلطان ، واشتراكه فى معرض باريس مستقلا عن السلطنة ، وتوصيته المعامل الفرنسية بصنع ثلاث بوارج حربية مصفحة ، وعدة آلاف من البنادق الحديثة ورغبة الخديو فى اعلان استقلاله بمصر عقب افتتاح القناة .. توترت العلاقات بين مصر وتركيا .. وقام السلطان باصدار فرمان فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٨٦٩ يقيد فيه من حرية اسماعيل الذى بادر بالسفر الى الآستانة وبفضل سلاح المال تمكن من استصدار الفرمان الجامع الذى يلخص مزايا الفرمانات السابقة واهمها :

١ ـــ توارث عرش مصر فى اكبر أبناء الخديو .

٢ ـــ تشمل املاك الخديوية المصرية مصر وملحقاتها .

٣ ـــ حق الحكومة المصـــرية فى ســـن القوانين والنظامات الداخلية على اختلاف أنواعها .

٤ ـــ حق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية .

٥ ـــ حق الاقتراض من الخارج دون اذن الحكومة التركية .

٦ ـــ زيادة الجيش الى اى عدد يبتغيه الخديو .

٧ ـــ حق بناء السفن الحربية ، ماعدا المدرعات التى يجب استئذان الحكومة التركية لانشائها .

ويلخص الخديو علاقة مصر بتركيا بأنه اذا عامل الانسان الأتراك يلتزم باستمالتهم اليه بالرشوة ، واما يكشـــــر لهم عن انيابه(٥٨) لذا ادار الخديو علاقات مصر بتركيا من خلال محورين :

— جعل مصر ولاية متميزة يحكمها وال متميز .

٢ — حصر حكم مصر فى ذريته .

ويمكن القول ان الخديو حقق أهدافه كاملة .. فأحس العالم بشخصية مصر الذاتية فى مؤتمر باريس ، ومحاولات الخديو القضاء على الامتيازات الأجنبية ، ومحاولاته رفع الجزية المفروضة على مصر ، وسحب جنود مصر من كريت ، ودعوة اسماعيل للدول الأجنبية لحفل افتتاح القناة دون ذكر للسلطان العثمانى سنة ١٨٦٩ م(٥٩) .

كما اهتم الخديو بالجيش حتى صار أقوى من جيش السلطنة ذاتها(٦٠) . مما ساهم فى الاحساس العميق بشخصية مصر القومية سواء فى الداخل أو الخارج . مما حدا بالبعض الى اعتبار اسماعيل موقظ القومية المصرية(٦١) ومدعم استقلالها ، فلئن كانت مجهودات محمد على هى الخطوة الأولى فى سبيل الاستقلال ، فقد خطت مصر الخطوة الثانية فى عصر اسماعيل(٦٢) . واذا كان محمد على قد وضع اسس النهضة المصرية الحديثة ، فان اسماعيل قد اقام صرحها وبناها ، كما ستوضحه الفصول التالية من الدراسة .

هوامش الفصل الثانى

(١) عمر عبد العزيز ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ١٥١٧ - ١٩١٩ ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، سنة ١٩٩٣ ، ص ٢٠٦ .

(٢) ادوارد جوان ، مصر فى القرن التاسع عشر سيرة ساكن الجنان محمد على باشا وابراهيم باشا والمغفور له سليمان باشا الفرنساوى من الوجوه الحربية والسياسية والقصصية ، تعريب محمد مسعود ، القاهرة ، سنة ١٩٢١ ، ص ٢٠٨ .

(٣) ج . كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، مرجع سابق ، ص ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٤) Dunne, Heywarth, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt, London, 1938, P. 96.

(٥) محمد فؤاد شكرى ، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د.ت ، ص ٣٨ .

(٦) شبل بدران ، تأثير فلسفة التنوير على حركة الفكر التربوى فى مصر سنة ١٨٠٥/١٩٠٥ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة طنطا ، سنة ١٩٧٨ ، ص ١٥ — ١٦ .

(٧) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، حـ ١ ، ترجمة محمد مسعود ، دار الموقف العربى ، ط ٢ ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ ، ص ٥٥ .

(٨) محمد فؤادشكرى الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٤٧ — ٢٤٨ .

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٤٨ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢٥٢ .

(١١) نفس المرجع ، ص ٢٨٣ .

(١٢) عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، مرجع سابق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(١٣) محمد فؤاد شكرى ، بناء دولةمحمد على ، مرجع سابق ، ص ٩٧ .

(١٤) محمود صالح منسى ، اتباع سان سيمون ونشاطهم فى مصر (١٨٣٣/١٨٣٦ م) ، المجلة التاريخية المجلد ١٧ ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م ، ص ٦٩ — ٩٢ .

(١٥) محمد طلعت عيسى ، اتباع سان سيمون فى فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر ، الدار القومية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ م ، ص ١٣٣ — ١١٤ .

(١٦) ج . هـ . كول ، تاريخ الفكر الاشتراكى ، م ١ ، ترجمة عبد الكريم احمد ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ ، ص ٧٧ — ٧٨ ، ومحمد طلعت عيسى ، الاشتراكية العربية والاشتراكية العلمية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥ ، ص ١٠٧ .

(١٧) ج . هـ . كول ، تاريخ الفكر الاشتراكى ، مرجع سابق ، ص ٥٩ .

(١٨) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة محمد على ، مرجع سابق ، ص ١٥ .

(١٩) انور عبد الملك ، نهضة مصر ، مرجع سابق ، ص ٨٠

(٢٠) أحمد صادق سعد ، تاريخ العرب الاجتماعى ، تحول التكوين المصرى من النمط الآسيوى الى النمط الرأسمالى ، مرجع سابق ، ص ٢٥٩ .

(٢١) المرجع السابق ، ص ٢٥٩ .

(٢٢) أحمد صادق سعد ، تاريخ العرب الاجتماعى ، مرجع سابق ، الفصل الخامس ، البانيا حتى سنة ١٨٣٠ ، من ص ٢٠٦ الى ٢٢٨ .

(٢٣) عبد الرحمن زكى ، الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير ، القاهرة ، سنة ١٩٣٩ م ، ص ٦١٦ .

(٢٤) عن أمين سامى ، تقويم وادى النيل ، جـ ٣ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٦ ، ص ٥ .

(٢٥) عن محمد رفعت رمضان ، العلاقات بين مصر والدولة العثمانية فى الفترة من سنة ١٨٤٠ ، ١٨٦٣ م . رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٥٥ ، ص ٢٣٥ .

(٢٦) ورد ذلك ضمن حديثه فى حفل زواج ولده طوسون ، عن الرافعى ، عصر اسماعيل حـ ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٥٣ — ٣٦ . ولنفس المؤلف ، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، دار المعارف ، ط ٤ ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٨١ — ٨٢ .

(٢٧) عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، ط ١ ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م ، ص ٣٦ .

(٢٨) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، حـ ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م ، ص ١٧٩ .

(٢٩) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، عصر اسماعيل ، م ١ ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٣٠) المرجع السابق ، ص ٧ .

(٣١) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، ط ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٣ ، ص ٤١٢ .

(٣٢) محمد قاسم ، نهضة التعليم ، ص ٢٨٧ ، ومحمد مصطفى صفوت ، موقف مصر السياسى ، ص ٩٦ ، ضمن كتاب اسماعيل بمناسبة خمسين عاما على وفاته ، وزارة المعارف العمومية .

(٣٣) جورج جندى بك ، وجاك تاجر ، اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٧ ، ص ١٠٦ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .

(٣٥) المرجع السابق ، ص ١٠٧ .

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٧٨ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٣٢ .

(٣٨) عن الرافعى ، عصر اسماعيل ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٦٥ .

(٣٩) من خطاب الخديو في افتتاح المحاكم المختلطة فى ٢٨ يونية سنة

١٨٧٥ م ، عن جورج جندى بك وآخر ، اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

(٤٠) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، حـ ١ ، مرجع سابق ، ص ٩٣ — ٩٦ .

(٤١) عن بيير كرابيتس ، اسماعيل المفترى عليه ، ترجمة فؤاد صروف ، دار النشر الحديث ، القاهرة ، سنة ١٩٢٧ ، ص ٨٨ .

(٤٢) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٤٣) غرة رمضان سنة ١٢٩٥ هـ — ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ م ، والوقائع المصرية العدد ٧٧ ، عن اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مرجع سابق ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(٤٤) دافيدس لاندز ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم أنيس ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٥٥ .

(٤٥) عن جورج يانج ، تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حـــكم اسماعيل ، تعريب على احمد شكرى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م ، ص ٢٤٥ — ٢٤٨ .

(٤٦) بيير كرابيتس ، اسماعيل المفترى عليه ، مرجع سابق ، ص ٢٠٩ .

(٤٧) المرجع السابق ، نفس الصفحة ، عن مقال بعنوان « اصلاح مصر » فى مجلة الفورتنيتلى ، نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ، ص ٥٣٧ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٤٩) كمحاولات ابراهيم بك كخيا ، واسماعيل بك رضوان ضد الوالى التركى راغب باشا سنة ١٧٤٨ م ، وعلى بك الكبير الذى لم يكتف بالاستقلال بمصر فقط بل واستقل بحكم سوريا والحجاز من ١٧٦٩ م حتى ١٧٧٣ م . ومحمد

(٥٠) De Frexcin Et : La Question de L'Egypte, P. 29.

بك ابو الذهب الذى انفرد بحكم مصر بعد القضاء على على بك الكبير ، اثناء ولاية خليل باشا لمصر سنة ١٧٧٣ م .

عن محمد رفعت رمضان ، مصر والدولة العثمانية ، مرجع سابق ، ص ٥ .

(٥١) محمد رفعت رمضان ، مصر والدولة العثمانية ، مرجع سابق ، ص ٢٩ — ٣٠ .

(٥٢) المرجع السابق ، ص ٩ — ١٠ .

(٥٣) احمد عزت عبد الكريم ، دراسات تاريخيــــة فى النهضة العربية الحديثة ، جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية ، القاهرة ، د . ت ، ص ٥٧١ .

(٥٤) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٥٧٦ .

(٥٦) محمد رفعت رمضان ، مصر والدولة العثمانية ، مرجع سابق ، ص ١٣١ .

(٥٧) أمين سامى ، تقويم النيل ، حـ ٣ ، مرجع سابق ، ص ٤٣٤ — ٤٣٥ .

(٥٨) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، حـ ١ ، مرجع سابق ، ص ٤١٥ .

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٩١ — ٢٩٣ .

(٦٠) المرجع السابق ، ص ٤١٢ .

(٦١) محمد قاسم ، نهضة التعليم فى عهد اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته ، وزارة المعارف العمومية ، مرجع سابق ، ص ٢٨٧ .

(٦٢) محمد مصطفى صفوت ، موقف مصر السياسى ، فى المرجع السابق ، ص ٣٨ .

الفصـــــل الثالث

اعداد القوة العسكرية وارتباطه بالتعليم

لم يرث محمد على فكرة تحديث الجيش كمحور لنهضة المجتمع من السلاطين العثمنيين فقط ، بل ورث الفكرة من محاولات على باشا التبدلنلى ، والمعلم يعقوب ، وتلمسه لمدى جدية وانضباط وطاعة وتنظم الجيوش الانجليزية والفرنسية أثناء تواجدهم بمصر قبل طرد الحملة الفرنسية ، وذلك فى مقابل ما اتسمت به الجيوش العثمانية المملوكية من اعتماد كامل على الفروسية والفردية والكر والفر وذلك فى اطار من عدم النظام واللاتجانس ، مما كان يعكس فوضى الحياة السياسية التى كانت سائدة حيث انتشــــر بينهم التنافر والصراع ، فانصرفت تلك الجيوش عن حماية البلاد الى نهبها وسلبها ، مما جعل الأهالى يعيشــــون فى ذعر من عبثهم وطيشهم حتى تمنوا زوال تلك الطوائف الخاسرة التى ليس لها ملة ولا شريعة ولا طريقة تمشى عليها ، فمنهم من لا يتدين بدين ولا ينتحل مذهبا ، ولا يسمع فى عرضــــهم أذان ، ولا تقام بهم فريضة ، ولا خطر فى بالهم ولا خاطرهم شعائر الدين(١) .

فقد اكتسب الجيش منذ ظهوره صفة طبقية ، فقد كان أداة الطبقة التي تملك في يدها وسائل الانتاج لحماية الكيان السياسي

للدولة ، كما كان اداة فى يد هذه الطبقة لحماية النظام الاجتماعى فيها من اية اخطار .

ومن ثم حرصت الطبقة المالكة على احتكار شرف الجندية وحرمان الطبقات المحرومة من هذا الشرف ، وحين كانت تعجز صفوفها عن تزويد الجيش بالكوادر التى يحتاج اليها ، كانت تلجأ الى الاستعانة بالمرتزقة ، كيلا تسلم الســـلاح والقدرة القتالية للطبقات التى تستغلها .

وبالنسبة لمصر فقد انتقلت السيطرة على وسائل الانتاج من يد الوطنيين الى يد الغزاة الذين تكونت منهم ارستقراطية فوق جميع الطبقات وهى ارستقراطية تحولت من مقدونية الى رومانية الى عربية الى تركية مملوكية ، وبالتالى تحولت جنسية الجيش تبعا لذلك . على انه فى عهد محمد على انتقل الجيش المصرى الى عصر جديد مع قوى التغييرات الآتية :

١ ـــ تحول الجيش المصرى فى جيش غير نظامى الى جيش نظامى .

٢ ـــ تحول الصفة الطبقية للجيش الى صفة قومية .

٣ ـــ انتقال السيطرة على وسائل الانتاج من يد المماليك الى الوطنيين(٢) .

وقد ادرك محمد على ان اصلاح الجيش لن يتم دون احداث اصلاحات شاملة ، فكان طريقه لاصلاح الجيش هو نفس طريقه لاصـــلاح المجتمع فى ميادين الادارة والاقتصاد والتعليم .. كل ذلك فى اطار ترسيخ دعائم الاستقلال ، وصد محاولات تعويق الدولة من الخارج والقضاء على بذور التفكك من الداخل .

ورغم أن جيش مصر قد غلبت عليه سمات الفوضى واللاتجانس ، الا أن محمد على بدأ بالاعتماد عليه ، وكان معظمه من الأرنؤود والدلاة ، واستعان بهم فى تحقيق بعض مصالحة مثل القضاء على المماليك ، وتوطيد أمن البلاد بالقضاء على عصابات اللصوص واغارات العربان ، وفتح الحجاز والتصدى للوهابيين ، وكذلك فتح السودان .

وكان محمد على يخطط منذ توليه حكم مصر لبناء دولة قوية ذات سيادة ومنعة ، وأن ينهض بالبلاد فى مختلف المجالات وأن يقيم نظاما شبيها بنظام الحكومات الأوروبية . وكان هذا الأمر يتطلب منه تكوين جيش منظم وقائم على الأساليب الأوروبية لتأسيس الدولة الحديثة وحمايتها والدفاع عنها من الأطماع الاجنبية لذلك بدأ فى التخلص من هذه القوات غير النظامية ونجح فى تطهير مصر من أرجاسهم ، وخلص الشعب من اذاهم .

ومهد لقيام النظام الجديد سنة ١٨١١ م حيث انشأ المدرسة الحربية الأولى بالقلعة لتعليم أولاد المماليك وغلمانهم . وهى أول مدرسة يتم انشاؤها فى مصر(٣) وكان يدرس فيها الى جانب الفنون الحربية ، اللغات العربية والتركية والايطالية التى قام بتدريسها بعض القساوسة(٤) .

وفى سنة ١٨١٥ م وعقب عودة محمد على من الحجاز أمر بتدريب فرقة جنود ابنه اسماعيل على النظام الحديث ، لكن المحاولة فشلت . فأعاد محمد على المحاولة ثانية سنة ١٨١٩ م ، والتى صادفت انتهاء حروب نابليون وتسريح جيوشه ، حيث وجد كثيرا من ضباطه الفرصة للعمل بالجيش المصرى ، وعلى رأسهم الكولونيل سيف ، الذى نجح فى تدريب حوالى الف من المماليك

ليكونوا ضباطا للجيش الذى سـوف يتم انشاؤه ، حيث أتجه التفكير فى بادىء الأمر الى تجنيد السودانيين وذلك ليترك الفلاح المصرى للعمل فى مشروعات الزراعة والتنمية والتعمير لطول خبرته فى ذلك ولرخص تكلفة الحصـول على العبيد من السودانيين مقارنة بشراء مماليك من أوروبا ، ولما اشـتهر به السودانى من الطاعة للرؤساء والبسالة وتحمل المشاق .

ولم تكن فكرة تجنيد السودانيين جديدة على الجيش المصرى اذ لجأ الى ذلك من قبل احمد بن طولون وكافور الاخشـيدى والمستنصر بالله (وكانت أمه سودانية) . وربما كانت حاجة محمد على الى السودانيين هى السبب الرئيسى فى فتحه لها .

غير ان تجربة محمد على فى تجنيد السودانيين فشلت ، رغم عنايته بهم وتجهيز سبل الاعاشة الجيدة من اغذية وادوية وملابس ومصاريف نقدية وخلافه . ويرجع البعض فشل التجربة الى عامل المناخ ، رغم ان مناخ مصر افضل نسـبيا من مناخ السودان ، ويرى البعض الآخر ومنهم عبد العظيم رمضان ان سبب الفشل ربما يعود الى ان السودانيين لم يكونوا يملكون أى حافز قومى أو وطنى أو طبقى يدفعهم للاقبال على الخـدمة العسكرية والانخراط فى صفوفها وبالتالى هبوط روحهم المعنوية ، وتأثر حالتهم الصحية حتى ركبتهم الأمراض وتفشى فيهم الموت بكثرة(٥) .

لذلك اتجه محمد على الى تجنيد المصريين ، الذين صاروا يؤلفون الجيش النظامى ووصل عددهم سنة ١٨٢٤ م الى ٢٤ الف جندى(٦) وصار الجيش المصرى من احسـن الجيوش فى الشرق(٧) وليس معنى ذلك ان الجيش المصرى كان خاليا من

السودانيين فقد ظل الجيش ينتظم فرقاً من العبيد ، وكانت هناك بلوكات كاملة مكونة من ابناء السودان وفتح امامهم باب الترقى الى درجة الضباط ، حتى وصل آدم بك العريفى الى رتبة اميرالاى سنة ١٨٦٧ م ، وان ظل المصريون يشكلون العنصر الاساسى فى الجيش النظامى(٨) .

ولم يكن تجنيد المصريين بالأمر السهل ، اذ قاوموا ورفضوا الاشتراك فى الجندية ، وهذا ليس لكراهيتهم للجندية كما يشاع لكن لأنهم لم يروا مصلحة لهم فى التجنيد وحمل السلاح ، كما انهم ربطوا بين الجندية واعمال السخرة ، وكانت طريقة التجنيد تؤكد ذلك الربط . فلجأ المصرى الى ابشع الحيل للتهرب من التجنيد ، ومنها تشويه جسمه ، فلجأ محمد على الى الترهيب باستخدام الشدة لدرجة الاعدام مع من يشوه جسمه من العسكر .

كذلك لجأ محمد على الى اسلوب الترغيب والاقناع معتمدا فى ذلك على مبادىء الدين الاسلامى ، حيث أمر قواد جنوده أن يحثوا جنودهم على قراءة القرآن قبل التدريب ليستوجب ذلك الفيض والبركات . وكلف الوعاظ والعلماء بحض المصريين على الخدمة العسكرية فقام الشيخ حسن العطار مؤيدا خطة محمد على فى تجنيد المصريين « الحمد لله الذى شيد دين الاسلام ورفعه وأذل من غالبه ، وقيض له من كل عصر من العصور حماة وانصارا ذوى عزائم واخطار ، وهم كبار يحمون حوزته ويقوون صولته ويقيمون شوكته ، أما بعد فان هذا مقام كريم فى يوم عظيم ، يبقى حديثه على مر الأيام ترويه اقوام بعد أقوام ، وتفتخ به مصرنا باجتماع هذا العسكر المنصور يملأون قلوب الاعداء رعبا ويذيقونهم نكالا وحربا وطعنا وضربا بصواعق المدافع وامطار البنادق التى ليس لها مانع ، فهم لأعدائهم قاهرون ، وعلى الكفار

ظاهرون وفى حروبهم غالبون .. زينة مصر وحامى حوزة قطرنا وأمان ديارنا ومشيد بنياننا المشـــار اليه محمد على — أدام الله نصره ، واذاق الاعداء باسه ، واوفد عليه من اخبـــار الفتوح المتجددة المسرات فى سائر الأوقات ، تتجلى عليه آيات النصر المبين بسر قوله تعالى وهو أصدق القائلين ((**وكان حقا علينا نصر المؤمنين**))(٩) .

أما الشيخ خليل بن أحمد الرجبى فيعد من أفضل من كتب عن الجندية فى عصر محمد على ، واستفاض فى ذلك .

فقد ذكر الرجبى فى أهمية التجنيد وشروطه « اعلم أيها الناظر أن الملة المحمدية أشرف الملل ، شرفها الله وصانها بالجهاد فى الكفار وفى معشر الطغاة من البغاة والفجار ، وقال سبحانه وتعالى فى ذلك ((**وجاهدوا فى الله حق جهاده**)) و ((**وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة**)) و ((**ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله**)) وجاء فى السنة الشريفة ما لا يحصى فى الجهاد ، وحسبك قوله (صلى الله عليه وسلم) « الجنة تحت ظلال السيوف » .

وفى هذه الأزمات ظهرت محاربة الكفار وكثرت الاضطرابات فى الاقطار وانتشر الاعداء برا وبحرا نهارا وسحرا وصار لهم الحال القوى والجيش الجرىء والعزم الماضى . وهذا ما يحزن النفوس ويستجلب الكدر والبؤس الا أن الله سبحانه أعز ملته وصانها واجلها عند العالم بوجود السيد الصدر كبير الهمم على القدر ، مركز دائرة السياسة ، ومعدن الشجاعة والحماسة ، سيد الوزراء وكفيل الأمراء حضرة افندينا المشار اليه المعول فى كل المهمات عليه ايده الله بعنايته واحاطه بالحفظ وكلأه بالرعاية الوزير المجاهد ايده الله بنصره واهلك عدوه بأسره . واعلم أن الجهاد ضرورى لحفظ الثغور الاسلامية ولارهاب الأعداء وادخال

قلوبهم هيبة المسلمين ، وكذلك لحفظ الدين والنفوس والاعراض والانسان والعقول والأموال لذلك وجب على المسلم معرفة صناعة الحروب وأصـــــنافها واشكالها وطاعة أمرائها ، والانفاق على المتعلمين لصناعات الحروب وايصال البر اليهم والكسوة والمؤنة وآلات الحرب والقتال وكل ما قواهم فى مواطن النزال .

وعلى المسلم ضرورة تعليم صناعة مكاحل البارود (وهو من اختراع الكفار) ويتقنون عرفانها اجمعين ليدرأوا الشر بمثله ويصادروا العدو بوازن صنعه وشكله فيقمع العدو بطبق صنعه وشكله وهذا محكم فى الوجوب وفرض لازم على هذا الأسلوب . لكل ذلك ينبغى التأمل فى شأن العساكر الجهادية ولا ينبغى اهمال أولئك الأجناد »(١٠) .

ويعتبر الشـــيخ الرجبى المؤرخ الوحيد الذى أعطى صورة تفصيلية لعملية تجنيد المصريين وتدريبهم ، كما أنه هو الذى أطلق عليهم اسمهم الذى عرفوا به من بعد وهو عساكر الجهادية ، فيذكر « جعلهم محمد على فى مكان رحيب فسيح خصب ، وأقام لهم المونة وأكثر لهم انواع المعونة واعطى كل رجل مكحلة بارود محكمة القوام ... وشدد عليهم ليكونوا من أرباب الحـــــروب والمعارك ، وعلموهم الضرب أشكالا وصنوفا .. حتى أتقنوا هذه الصناعة »(١١) .

كما قام الشيخ ابراهيم السقا بتوجيه من محمد على باختصار كتاب الشيخ محمد بن محمود العنانى فقيه الجزائر (السـعى المحمود فى نظام الجنود) وسمى مختصرة (بلوغ المقصود مختصر السعى المحمود فى تأليف العساكر والجنود) وهو كتاب يؤكد على ضرورة تعلم المسلم فنون الحرب الحديثة كما هى معروفة عند الأوروبيين .

ومحمد على نفسه ، بادراكه لسطوة الدين على نفوس المصريين ، لجأ الى نصوصه الشريفة لمنح نظامه الجديد مشروعيته . ففى خطبة له بمناسبة تسليم العلم ، أكد على فضل الأمة الاسلامية على غيرها بالجهاد والغزو ، واستشهد بالآية **(ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون)** وأكد على أن الدفاع عن الدين والأمة امانة وقيمة وعزة وشرف .

وأن الرسول كان يهتم بالعلم ويسلمه بيده الشريفة الى قائد العسكر ثم يوصى بأن يحمله بعده فلان ثم فلان ، وكان هذا شرف عظيم يحظى به القائد . ثم أوضح أن غرض النظام الجديد هو الانتصار على العدو واكتساب القوة والشجاعة .

ومع استمرار اسلوب الترهيب والترغيب والدعاية والاقناع اقبل المصريون على التجنيد ، لكن لماذا كانوا يرفضونه من قبل ؟ ربما يعود رفض المصريين للتجنيد الى ارتباط المصرى بمسقط راسه اذ « لا يوجد من بين مخلوقات الله من يذهب المذهب البعيد فى حب مسقط راسه كالمصريين ، فالفلاح لا يجد للحياة معنى ولا لذة بعيدا عن أرضه »(١٢) فكانت حياة الجندية تتعارض مع طبيعة عمل الفلاح المصرى فى أرضه واعتباره عماد أسرته وأن تجنيده كان يعنى هدم هذا الكيان ، علاوة على اسلوب الشدة والاكراه الذى اتبعه محمد على فى تجميع الجنود « فيكفى أنه فى موسم التجنيد كان ينقض الجنود على القرى ويجردونها من سكانها الذكور ويربطون بعضهم الى بعض ويسوقونهم الى بندر المديرية تتبعهم زوجاتهم وأمهاتهم وأخواتهم واولادهم صائحين مولولين .. فقد كانت سخرة حقيقية تتبع فيها الأساليب الوحشية(١٣) .

غير أن الأسباب السابقة لرفض المصريين التجنيد لم تتغير

كلية ، ورغم ذلك اقبل المصريون على التجنيد ، مما يرجح أن الرفض كان يعود الى أن المصرى لم يكن يرى فى الجندية مصلحة له ، فلماذا يترك أرضه ليحمل السلاح ، وعمن يدافع ؟ وما هى المصالح التى يقوم بالدفاع عنها ؟ ويموت من أجلها ؟

وعندما تم القضـــاء على المماليك وصودرت املاكهم والغى نظام الالتزام . وصارت الأراضى ملكا للدولة ، وساهم الفلاح المصرى — لأول مرة فى تاريخه — فى امتلاك الأراضى خاصـــة فى عهد سعيد باشا بعد صـــدور اللائحة السعيدية ، أقبل المصرى على التجنيد وأمتلك السلاح وساهم فى الدفاع عن بلاده ضد أى عدوان خارجى ، كما ساهم فى التخلص من مستعبديه فى الداخل، بدءا من ثورة عرابى حتى ثورة عبد الناصر التى اقتلعت أسرة محمد على من جذورها .

وربما كان هذا السبب هو ما جعل العناصر الأجنبية من أتراك وشركس وأرمن وغيرهم فى الجيش يقاومون فكرة تجنيد المصريين بدعوى أن الجندية مهنة نبيلة لا يجب أن يحط من قدرها لتصبح فى متناول الفلاحين . وان كانت مقاومتهم تلك تعود فى حقيقتها الى خوفهم من عواقب امتلاك الفلاح المصرى للسلاح وما سوف يعقبه من التخلص من نفوذهم وتسلطهم(١٤) .

كان محمد على يدرك مساوىء أساليب تجنيد المصريين ، والتى أرجعها الى جهل الشعب بأهمية الجندية ، وافتقار الضباط الى اللياقة والمعرفة ، وكان ينوى اتباع نظام جديد للتجنيد ينهج فيها نهجا أوروبيا(١٥) .

ولذلك قام باســـــتدعاء من يحتاج اليه من خبراء ومدربين ومدرسين اجانب ، كما قام بارسال البعثات الى أوروبا لاستقاء

العلوم من مناهلها وتلقى الفنون والمهن التى كانت الجندية فى أمس الحاجة اليها(١٦) .

وقد وصل عدد جنود مصر سنة ١٨٢١ م ، ١٦ الف جندى ساهموا مع السلطان فى حرب اليونان ، وفى سنة ١٨٢٩ م كان الجيش يضم ٦٢ر١٥٠ جنديا فيهم ١٥ الف من الابدو وسنة ١٨٣٨ م بلغ عدد الجيش المصرى ١٠٠ الف(١٧) .

ولم تكن لدى محمد على صعوبة فى تخفيض هذا العدد الى ١٨ الفا طبقا للخط الشريف الصادر سنة ١٨٤١ م بعد هزائمه وتوقف فتوحاته اذ حول جنوده تحت اشراف ضباطهم الى أعمال الزراعة والرى واصلاح الجسور وحفر الترع واستصلاح الاراضى .. أما القواد فعينوا حكاما للمديريات .

الجندية والتعليم فى عصر محمد على :

وارتبطت فكرة انشاء نظام جديد للجندية والعسكرة بمصر فى مستهل القرن التاسع عشر بالتعليم ارتباطا وثيقا ، فقد بدأ محمد على نظامه الجديد بفتح مدرسة حربية فى أسوان لتخريج ضباط الجيش تحت اشراف الكولنيل سيف الذى تولى تدريب الف من المماليك لمدة ثلاث سنوات على أساليب الحرب الحديثة ، فصاروا نواة الجيش النظامى ، وأول ضباط بالجيش المصرى فى العصر الحديث . وكانت هذه أول مدرسة عسكرية فى مصر الحديثة .

ثم توالت المدارس على النحو التالى :

١ — مدرسة اسنا والتى كانت فى الأصل مدرسة أسوان لكنها نقلت لبعدها ومشقة الحياة بها ، ثم انتقلت بعد ذلك من اسنا الى اخميم ثم النخيلة قرب اسيوط ثم اخيرا استقرت فى

الخانقاه قرب القاهرة ، وعرفت باسم مدرسة الجهادية والتى اختفت قبل تنظيم التعليم فى مصر سنة ١٨٣٦م(١٨) .

٢ـ مدرسة أركان حرب والتى أشـرف على تأسيسها الفرنسى بلانا ، والتى بدات الدراسة بها فى ١٥ أكتوبر سنة ١٨٢٥ م فى قرية جهاد اباد ومدة الدراسـة بها ثلاث سـنوات يتخرج بعدها الضباط ويعينون أركان حرب فى الوحدات الهندسية فى الجيش أو فى المدفعية أو الادارة الحربية او المدنية .

٣ ـ مدرسة البيادة (المشاة) ، انشئت سنة ١٨٣٢ م بقرية الخانقاه ، ثم نقلت بعد عامين الى دمياط ثم الى ابى زعبل سنة ١٨٤١ م مكان المدرسة التجهيزية . وكانت المدرسة الوحيدة بمصر والتى زاد عدد تلاميذها بعد سنة ١٨٤١ م وتهدف الى تخريج الضباط .

٤ ـ مدرسة السوارى ، انشئت فى ابريل سنة ١٨٣١ م بالجيزة ، ويلتحق بها ضباط يعدون معلمين بالجيش ، وتلاميذ من المدرسة التجهيزية ، وجنود من الشباب ليكونوا نافخى أبواق وطرنبتجية . أما الضباط فتبعث بهم الى المدرسة فرق الجيش ، على الا تقل اعمارهم عن ثلاثين سنة ويظلون بالمدرسة لمدة عامين أو ثلاثة يعدون بعدها معلمين فى فرق الجيش . اما التلاميذ فيؤخذون من المدرسة التجهيزية ويظلون بالمدرسة ثلاث او أربع سنوات يعينون بعدها ضباطا فى فرق الفرسان بالجيش .

وقد نظمت هذه المدرسة على مثال مدرسة سومور الحربية بفرنسا . وقد اعجبت الزائرين الفرنسيين بنشـاط ومهارات

تلاميذها لدرجة عدم القدرة على تميزهم عن فرق الفرسان الأوروبية(١٩) .

٥ ـ مدرسة الطوبجية ، اقترح بها وادارها كولونيل أسبانى يدعى الدون انطونيو دى سيجويرا . وتأسست فى طره سنة ١٨٣١ م والحق بالمدرسة مطبعة لطبع الكتب المؤلفة أو المعربة ، وكانت مثالا للانضباط .

٦ ـ المدرسة المصرية بباريس ، أنشأتها الحكومة المصرية فى باريس تحت اشراف وزارة الحربية الفرنسية ، وكان من بين طلابها اسماعيل خديو مصر فيما بعد ، وعلى مبارك ناظر معارفها . ووضعت وزارة الحربية الفرنسية لها نظاما فى ٢٢ بندا ، وجدولا دراسيا يبدأ من الساعة ٥,٠ صباحا حتى الساعة ١٠ مساء وذلك يشير الى دقة التنظيم العسكرى وانضباطه .

المدارس البحرية :

بدأ محمد على فى تكوين الأسطول المصرى الحربى سنة ١٨١٠ م ، وما ان جاء عام ١٨٢٧ م حتى استطاعت الأساطيل المصرية الاشتراك فى الحروب اليونانية .

وقد اشترك فى تكوين الأسطول المصرى الأتراك والفرنسيون والمصريون الذين برعوا فى هذا النشاط حتى أن كلوت بك سجل اعجابه بهم ويقول عنهم : كأنهم خلقوا لممارسة البحر(٢٠) ولما كان انشاء الأسطول وتشغيله فى حاجة الى قوى بشرية مدربة وواعية فقد سارت خطوات النهضة البحرية فى جدل صريح مع النهضة التعليمية ، تغذيها وتتغذى عليها . .

وكانت المدارس البحرية التى تم انشـــاؤها فى عهد محمد على كالآتى :

١ — المدرسة البحرية بالاسكندرية لتعليم بناء الســـــفن والعلوم المتصلة به ، وقد أظهر التلاميذ المصريون براعة وتفوقا حتى أنهم وحدهم هم الذين أشرفوا على بناء السفن الحربية فى مارس سنة ١٨٣٣ م تحت ادارة المسيو سيريزى .

٢ — مدارس الأسطول على ظهر الســـــفن ويتعلم فيها التلاميذ فن القيادة ويتلقون دروسا فى البحرية .

٣ — الموسيقى العسكرية لتخريج الموســـــيقيين فى فرق الجيش والأسطول . وأشرف على تلاميذها الخواجة كاره وذلك ليستكمل الجيش المصرى مظاهر النظام الأوروبى الحديث .

ومع النظام العسكرى الجديد ، توافرت للحكومة المصرية الوسيلة الفعالة للسيطرة على الفرار ، وكسر العقبة التقنية الرئيسية أمام تشغيل وادارة مجموعات بشرية ضخمة . فقد جرى احتجاز الجنود حين لا يكونون فى حرب فى المعسكرات أو الثكنات حيث جرت حراستهم وتدريبهم واخضاعهم لأقصى درجات الانضباط ، كما تعين فصلهم عن الجماعة المدنية ، وذلك عن طريق احتجازهم ، وعن طريق ارتداء زى عسكرى موحد . وقد ادار تلك الثكنات مهندسون وعلماء عسكريون فرنسيون ومصريون . وكان كثير منهم قد تلقى العلم فى المدرسة الهندسية بباريس وكان بينهم اتباع عديدون لسان سيمون وأوجست كونت .

كما اهتم هؤلاء أيضا برسم سياسة تدريب عسكرى أكثر شمولا وتحسين مران وتدريب القوات وتنظيم مدارس التدريب العسكرية ووضع قواعد موحدة تحكم الانضباط واللياقة البدنية والمقرر الدراسى والامتحانات والزى المدرسى والجرايات وهيئة

التدريس والادارة والتفتيش واخضـــاع التلاميذ للرقابة المستمرة ليس فقط فى الفصول ، وانما خلال نزهاتهم وعنابر نومهم وفترات استجمامهم(٢١) .

وذكر جون بورنج فى تقرير له للحكومة البريطانية أن ادخال التنظيم الغربى فى جيوش المشرق قاد الى نتائج مهمة لأن تطبيق الفن الميكانيكى ، والتعليم ، والمعرفة ، والنســق العام للاتباع والخضوع من الأمور الضرورية المرافقة للمجريات الجديدة .

اذ أن تحويل السلطة العسكرية من حشـــود سائبة وغير منضبطة الى جهاز من الجنود المدربين تدريبا منظما من خـــلال مختلف مراحل الطاعة والانضباط ، كان فى حد ذاته انشاء لمبدأ النظام الذى شمل مجمع سطح المجتمع .. وتعلم الناس سبل اجتهاد أرقى بكثير من سبل اجتهادهم(٢٢) .

لم يعد الجيش المصرى مجرد شراذم متنافرة ، أو مجرد جهاز ظرفى ، بل صار قوة منظمة مؤلفة من رجال مرغبين على العيش معا بصورة دائمة كجماعة متميزة ، تتلقى التدريب بصورة مستمر حتى فى غير اوقات الحروب ، محافظين على اسلحتهم ومعداتهم الحربية ، وفى حالة دائمـــة من الاتبـــاع الصـــــارم للانضباط(٢٣) وذلك على غرار الجيوش الأوروبية الحديثة .

ولذلك كان اتجاه محمد على الى أوروبا أمرا طبيعيـــا ، فاســتقدم المدربين والضباط الذين ساهموا فى انشـــاء المدارس الحربية على الطراز الحديث ، لكنه رأى أن انتظار هؤلاء المدربين حتى يفرغوا من اعداد الكوادر العســكرية أمر يحتاج الى وقت طويل وسيغلب عليه الطابع النظرى ، لذلك رأى التوجه مباشرة الى الغرب ، فشرع فى ارسال البعثات ، وكانت أولها بعثات

عسكرية الى ايطاليا ، غير أن دروفينى قنصل فرنسا فى مصـــر ساهم فى تحويل انظار محمد على الى فرنسا معتمدا على النجاح الباهر لسليمان باشا فى اعداد الضباط المصريين فأرسل عثمان نور الدين سنة ١٨٠٩ م الى ايطاليا (٥ سنوات) ثم الى فرنسا (سنتين) وعاد سنة ١٨١٧ م الى مصر ليصير أمير البحار الثالث فى عصر محمد على .

ثم ارسل كلا من حسن الاسكندرانى ومحمد شنن ومحمود نامى بمعية المسيو دروفينى الى فرنســـــا سنة ١٨١٧ م حيث تخصصوا فى العلوم البحرية وانخرطوا فى سلك البحرية الفرنسية فى طولون وعادوا الى مصر سنة ١٨٢٥ م(٢٤) .

ثم توالت البعثات ، ففى سنة ١٨٢٦ م أرسلت بعثة الى فرنسا تخصص اثنا عشر منها فى العلوم العسكرية (تحول أحدهم الى دراســـــة العلوم الزراعية وهرب آخر) ودارت تخصصاتهم حول الادارة الحربية وطرق صناعة الرصـــاص ، وعمليات صب المعادن وصناعة الأسلحة ، وفنون المدفعية وطرق بناء وانشاء السفن والهندسة(٢٥) .

وقد برز فى هذه البعثات محمد مظهر أفندى الذى اشرف على بناء فنار الاسكندرية والقناطر الخيرية ثم اصـــــبح ناظرا للأشغال(٢٦) .

وكذلك مصطفى أفندى مختار الذى عاد من فرنسا ســـنة ١٨٣٢ م وكان عضوا بالمجلس الاعلى للحكومة وتولى ادارة ديوان الجهادية سنة ١٨٣٥ م ثم مدير ديوان المدارس سنة ١٨٣٦ م وهو أول ناظر للمعارف بمصر(٢٧) .

ورغم كارثة نفارين(٢٨) فان الحكومة عزمت على النهوض بالبحرية مرة أخرى ، فأوفدت ستة تلاميذ الى فرنسا لدراســـة

الفنون والنظم البحرية سنة ١٨٢٧ م عادوا بعد ذلك وكان لهم دور واضح فى ازدهار الترسانة المصرية(٢٩) . وتم ارسال خليفة حسن سنة ١٨٢٩ م الى النمسا ليعود مدرسا للكيمياء فى مدرسة المدفعية والمهندسخانة .

وفى سنة ١٨٢٩ م اختارت الحكومة أربعة من تلاميذ المدرسة البحرية بالاسكندرية وقامت بتجهيزهم وتوجيههم الى انجلترا وقد اعتمدت عليهم البحرية المصرية فى تعريب لوائح ونظم البحرية الانجليزية لاستعمالها فى البحرية المصرية(٣٠) .

وفى سنة ١٨٣٠ م أرسلت الحكومة كلا من حسن البغدادى وعلى الجيزاوى الى فرنسا لدراسة نظم الفنون الحربية ، وطرق صناعة وانشاء السفن ، وعادا سنة ١٨٣٢ وتم تعيينهما بالترسانة المصرية .

أما محمد راغب الاستانبولى فقد أرسل الى انجلترا وعاد سنة ١٨٣٦ م واشتغل بدار الصناعة بالاسكندرية .

وبالرغم من أحداث سنة ١٨٤٠ م (الهزائم العسكرية وما تلاها من معاهدات) فانها لم تثن محمد على عن مواصلة ارسال البعثات الى مختلف دول أوروبا ، اذ يبدو أن محمد على اعتبر تلك الأحداث مرحلة تعثر سبق أن مر بمثلها كثيرا ، وسوف يخرج منها بأقل الخسائر . حتى أنه فى ربيع ١٨٤٠ م أنشأ الحرس الوطنى وهو نوع جديد من المنظمات العسكرية على نسق الحرس الوطنى الفرنسى ، وكان القصد منه أن يكون مدخلا للجيش ، وأن يهيىء المصريين للخدمة العسكرية ويستفزهم للقيام بواجباتهم عن طيب خاطر ،ويؤلف بينهم وبين حياة الجندية ليزول تخوفهم وكراهيتهم للجندية(٣١) .

والجدير بالملاحظة ان اشتراك المصريين فى الجندية قد فتح بابا لانطلاقهم نحو بناء الدولة المصرية الوطنية الحديثة وتحقيق نهضتها الشاملة حيث اسهموا فى مشـــــروعات الزراعة والرى والادارة فى أعقاب تخفيض أعداد الجيش الى ١٨ الفا(٣٢) .

كما تحملوا وحدهم أعباء الجندية ، وحق لهم شرف المباهاة بالانتصـــــارات الابراهيمية وتحطيم الأســطورة التركية من ان المصريين لا يصلحون للجندية .

وقد بعثت هذه الروح الجديدة على اتجاه التفكير السياسى المصرى فى اطواره التالية لعصـــــر محمد على نحو تقرير مبدأ المساواة فى الحقوق بين المصريين وغيرهم من الأجانب على ارض مصر(٣٣) .

وتمخضت الجندية عن ايجاد روح نظامية ســـرت فى كل طبقات المجتمع المصرى ، نتمتع الاهالى بانتشار الأمن سواء على حياتهم أو على أملاكهم وهى روح جديدة لم يمارسها المصريون فى أى عصر سابق(٣٤) .

ولقد افســــــحت الجندية للمصريين الترقى لرتبة اليوزباشى بالاضافة الى دخول المدارس العســـــكرية والتدرج فيها ضباطا عاملين .

وكان محمد على قد رفض ترقية المصريين الى رتب الضباط لكنه عدل عن رأيه وفق مشورة القادة الفرنسيين له . ووافق على ترقية المصريين من رتبة الباشجاويش الى رتبة الملازم أول . وعندما تفوق هؤلاء الضباط على زملائهم الأتراك فى حروب الشام طلب ابراهيم باشــــا من أبيه الموافقة على ترقيتهم الى رتبة اليوزباشى فوافق بشرط أن يكونوا ملمين بالقراءة والكتابة . .

بالرغم من أن الرتب العالية وقيادات الجيش مازالت مقصورة على ابناء محمد على ومماليكه وكذلك الأتراك .

ولم يعد تواجد الجنود بالريف المصرى مقترنا بأعمال السلب والنهب والعنف التى تميز بها جنود المماليك ، بل اصبحوا ركنا مهما فى الاصلاح الاجتماعى(٣٥) .

كما هيأت الجندية كوادر فنية ادارية للعمل بالمنشـــآت الاقتصادية الحديثة بمصر . وهكذا تحول الجيش الى خدمة مرافق الدولة ، بعد أن كانت معظم تلك المرافق فى خدمة الجيش .

والف المصريون حياة الجندية ، وقلت حوادث هروبهم ، واصبحت احوالهم خيرا مما كانت عليه وقت حياة الريف ، واخذوا يتباهون بحياة الجندية ، ويتفاخرون بها ويقابلون غطرسة الترك بمثلها(٣٦) .

وكان الأتراك قد انزعجوا من التحاق المصريين بالجندية ، تلك المهنة النبيلة التى سيحط من قدرها أن تصـــبح فى متناول الفلاحين(٣٧) .

كما ان الارنؤود عندما رأوا الجند المصريين يجوبون شوارع القاهرة كمدوا لتحققهم ان القطر صار فى غنى عنهم ، وكانوا يظنون أن وجودهم من الضرورات(٣٨) .

وكانت الجندية اداة لدمج العناصر المنشقة عن المجتمع مثل البدو والعربان الذين تحولوا — بعد انضمامهم للجندية — الى عناصر اجتماعية تتحلى بالطاعة والنظام .

وكان اشتراك الاقباط واليهود فى حياة الجندية — خـــلافا لما كان معمولا به فى الدولة الاسلامية وقتها — قد كسر الحاجز الطائفى بين فئات المجتمع كما ساهم النظام الجديد للجندية فى

فرض وحدة السلطة وتأمين البلاد وايجاد نوع من الوطنية المتجانسة فى مصر ، بالاضافة الى تلقى الشعب صناعة ارقى من صناعاته المعروفة(٣٩) .

وهكذا اصبح الجيش ، (حياة الجندية) ومؤسسة لتكوين المواطنة المصرية بالمعنى المدنى الحديث وتحديد مسئولياتها وتوحدها .

كما اقترنت وتلازمت نهضة الجيش بنهضة التعليم بوجه عام والتعليم العسكرى بوجه خاص . فنهض الجيش والتعليم معا يدعم كل منهما نهضة الآخر .

الجيش ايام حكم عباس :

حدثت نكسة للعنصر المصرى بالجيش ايام حكم عباس الذى مال الى تجنيد الاتراك ، وفضلهم على غيرهم ، واتخذ منهم خاصة جنده وقربهم اليه ، فعادت لهم سطوتهم واخذوا يتعالون على المصريين ، خاصة بعد حرمان المصريين من حمل السلاح ، والسماح للأرنؤود بحمله ، فعاد لهم فسادهم وظلمهم السابق(٤٠) .

اهمل عباس شئون الجيش ، فتطرق اليه الخلل وسوء النظام ، ولم يستطع سليمان الفرنساوى انقاذ الموقف . كما اهمل البحرية لكراهيته لعمه سعيد الذى كان قائدا للأسطول فى عهده(٤١) .

واثناء حرب القرم سنة ١٨٥٣ م توسع عباس فى تجنيد المصريين لارسال النجدة الى السلطان ، فزاد عدد الجيش عن مائة الف مقاتل ، وكانت الحملة المصرية فى حرب القرم مكونة من

٢٠ ألف مقاتل بقيادة سليم باشا فتحى أحد قواد حروب سوريا والأناضول(٤٢) .

وكانت هذه الحملة أحد أسباب عودة أساليب القهر والهمجية فى جمع الجنود المصريين وارسالهم الى ميادين القتال البعيدة .

لكن يذكر لعباس انه صاحب بداية تقنين أنظمة التجنيد من خلال اللائحة العسكرية التى أصدرها فى مارس سنة ١٨٥٣ م ، هذه اللائحة التى نصت على استعمال نظام لجمع الجنود أقرب ما يكون الى نظام الاقتراع العام(٤٣) فأوقف التجنيد الاجبارى ، وأعاد المجندين من أبناء المدن الى عائلاتهم ، ووعد بتخفيض عدد الجيش الى (١٨ الفا) طبقا لشروط الخط الشريف الصادر سنة ١٨٤١ م .

التعليم العسكرى أيام عباس باشا :

بدأ عباس حكمه بفصل المدارس الحربية (المشـــاه — الفرسان — المدفعية) عن ديوان المدارس ، والحاقها بديوان الجهادية كى يهيىء لها الاستقرار ويوفر لها كل متطلباتها المادية والتدريب العملى .

غير انه بعد أشهر قليلة اتجه عباس اتجاها آخر ، وأراد تنظيم التعليم العسكرى تنظيما جديدا يجعله وحدة مستقلة تتلقى الطالب منذ صباه حتى تخرجه ضابطا لسلاح من أسلحة الجيش المختلفة حسب التخصص الذى درسه وتدرب عليه . وسمى ذلك التنظيم الجديد بالمدرسة المفروزة التى وضع عليها آماله فى تطوير حياة الجندية واختار لها تلاميذها من المماليك وأولاد الترك وطلاب

من (قولة) وبعض أبناء البلد بعد أن فصلهم عن عائلاتهم واختار لهم اسماء تركية .

ونظم التلاميذ نظاما عسكريا فدعوا (عساكر) بالأورطة المفروزة ، وتم نقل المدرسة من الخانقاه الى العباسية فى بناء خاص بها فى نوفمبر سنة ١٨٤٩ م وملحق بها مستشفى خاص وجعلت تابعة لديوان الجهادية ، وعهد الى على مبارك باختيار الكتب والمعلمين بها ، وترتيب دروسها . وقسمت المدرسة الى ثلاثة أقسام : ابتدائى — تجهيزى — خصوصى ، وكل قسم يعد لما يليه ويتخصص طلبة القسم الخصوصى فى الفنون العسكرية : اما مشاه أو فرسان أو مدفعية .

ويشيد اسماعيل باشا سر هنك بالمدرسة فى أوائل حكم عباس حيث كانت عنايته بهذه المدرسة فوق الحصر ، وارتفعت بها المعارف وكثرت بسببها المؤلفات فى كل فن وطبعت فى المطابع الحجرية ، ونبغ فيها رجال خدموا المصالح واشتهروا فى أعمالهم بحسن الادارة ومع ذلك لم يطل عمرها ، وأصابها الاهمال كما أصاب غيرها(٤٤) .

أما فيما يتعلق بالبعثات العسكرية ، فقد اختلف المؤرخون فى عددها ، لكن المهم أنه عدد قليل للغاية ، كلف الدولة مبالغ تافهة .

كما الغى عباس المدرسة العسكرية المصرية بباريس بحجة أن مصر قد اكتفت من التعليم العسكرى . لذلك خلت البعثات المصرية أيام حكمه من العسكريين .

وهكذا اقترن اهمال الجيش باهمال التعليم فى عهد عباس ، فانحدر الجيش وانحدر التعليم معا .

الجيش أيام حكم سعيد :

اتخذ سعيد خطوات مهمة ترتب عليها رفع المظالم الواقعة على المصريين فى الجيش ، ووضع حدا لمظالم العناصر غير المصرية ، حيث :

١ ــ اهتم بترقية المصريين الى الرتب العسكرية العليا ، حيث رقى أحمد عرابى الى رتبة القائمقام ، ويذكر عرابى حرص سعيد على تقدم أبناء الوطن ومساواتهم بغيرهم ومحبته لهم ومعاملة الجميع بالعدل والمساواة مع تفقد أحوالهم ومراعاة سيرهم وحسن سلوكهم ، كأنهم أولاده ، ويعلق عرابى على تلك المعاملة بأنها « أوغرت علينا صدور اخواننا من الترك والشركس وغيرهم »(٤٥) .

٢ ــ تحديد مدة التجنيد بسنة واحدة ، وفرضه على المصريين جميعا بمختلف طوائفهم الدينية وطبقاتهم وأولاد العمد والمشايخ(٤٦) ، مما ازال قدرا من المرارة التى يحس بها المجندون المصريون نتيجة التفرقة بينهم وبين الأغنياء الذين كانوا يتهربون باساليب عديدة حتى صار التجنيد وقفا على أبناء الفقراء والمستضعفين(٤٧) ولم يعترف سعيد بالاعفاءات السابقة على عهده الا فى حالتين فقط ، الابن الوحيد العائل لأسرته وتقديم البدل الشخصى بشرط أن يكون مقدم البدل ممن يملكون مائة فدان أو اكثر من الأراضى الزراعية ، وليس فى عائلاتهم من يقوم بزراعتها وأن يوافق الشخص البديل على البدل بكامل حريته(٤٨) .

٣ ــ اهتمامه بتحسين الأحوال المعيشية فى الجيش وذلك بتحسين المأكل والملبس والرعاية الصحية وتنظيم المستشفيات

العسكرية . وجعل معظم وقته بين الجنود لا يتحرك خارج القاهرة الا وفى ركابه فرقة او اكثر .

٤ — سرح معظم جنود عباس وتخلص من الضباط الذين عينهم وكون جيشا جديدا معظمه من فتيان القاهرة والاسكندرية والأقاليم ليضمن ولاءه من جهة وحتى يكون له عذر فى عدم ارسال نجدات جديدة الى ميدان القتال فى القرم من جهة اخرى .

وربما كان تجنيد الصبية هو السبب الحقيقى وراء استقالة الكولونيل سيف من أعمال الجيش ، لما سببه من انتشار عدم النظام والطاعة(٤٩) .

غير أنه لم يهتم بالأسطول ، وسرح أغلب ضباطه والحق الكثير منهم فى الوظائف الملكية . كما اضطر الى احالة بعض ضباط الجيش الى الاستيداع نتيجة تفاقم أزمة الديون التى بلغت ستة ملايين من الجنيهات .

كما انقص قوات الجيش الى ٧٫٥٠٠ مقـاتل انعدم فيهم الضبط والربط واصبحت الجندية فى أواخر أيامه جندية مظهرية أكثر منها جندية عمل(٥٠) .

ومن بين أعماله الغريبة أنه أحيا أوجاق الدلاة (مثلما فعل عباس عندما اسـتكثر من الأرنؤود) وهذا عمل لا يتماشى مع سياسته فى رفع المعاناة عن المصريين .

غير أن الأزمة المالية اجبرت سعيد على اهمال امرهم .

وعلى الرغم من ضعف الجيش والأسطول ايام حكم سعيد ، فان مصـر اشتركت فى حربين : القرم والمكسيك . ساهمت فى حرب القرم بثلاثين الف مقاتل ، مات اكثرهم علاوة على ما ترتب

عليها من ديون . اما حرب المكسيك فاشترك فيها ١٢٠٠ مقاتل سودانى لم يرجع منهم سوى ثلاثمائة بعد اكثر من أربع سنوات من الحرب(٥١) .

التعليم العسكرى أيام حكم سعيد :

وجه سعيد منذ تولى أمر البلاد اهتمامه بالجيش ، ومايتصل به من جمع الجنود واعداد الضباط وتوفير الأسلحة والأدوات ، وكان من الطبيعى ان يتجه تفكيره الى الافادة من خدمات الرجل الذى اتصل اسمه بتاريخ الجيش المصرى سليمان الفرنساوى . فعهد اليه أن ينشىء مدرسة يقوم فيها على تكوين ضباط لأركان حرب الجيش بالحوض المرصود سنة ١٨٥٥ م ، والحق بها بعض ابناء كبار الموظفين والضباط .

وكذلك انشأ بالحوض المرصود مصنعا لصنع مؤخرات البنادق .

لكن اهواء سعيد وتقلباته بين شتى الآراء والتيارات لم تمد فى عمر هذه المدارس الناشئة واكبر الظن انها لم تكمل عامها الأول(٥٢) .

كما انشأ المدرسة الحربية بالقلعة ، والمدرسة الحربية بالاسكندرية التى قامت باعداد ضباط الجيش فى الكتائب الجديدة .

اما بالنسبة للتعليم البحرى فقد اهتم سعيد بالمدرسة البحرية بالاسكندرية (وأعاد احياءها بعدما الغاها عباس) وكان قد درس فيها حياة والده محمد على . كما أعاد انشاء ديوان البحرية وجعل مقره الاسكندرية — ولم يكن لمصر اسطول وقتها — وجعل من اختصاصاته شراء كل ما يلزم لسائر بمصالح الحكومة .

غير أن سعيد لم يفعل شيئا اكثر من ذلك ، وظلت المدرسة البحرية مقصورة على النفر من التلاميذ الملتحقين بالسفينة « فيض جهاد » .

ولما لم يجد ديوان البحرية عملا يقوم به ، امر سعيد بنقله من الاسكندرية الى القاهرة . لكنه عاد وجدد المدرسة البحرية وأرسل يطلب من فرنسا كتبا فى فنون البحر وامر بترجمتها واقام عليها الايطالى كابتن (فدريفو) وأنتخب لها نخبة من تلاميذ المدارس الحربية ونبغ منها كثير من الضباط لكنه لم يجدد الأسطول حيث أن اعداد الرجال صعب لذا يجب البدء به ، اما شراء السفن فسهل ويتم فى أى وقت (٥٣) .

اما فيما يتعلق بالبعثات ، فلم ينظر لها نظرة جادة ، فاستدعى مبعوثى المفروزة ، وامر بأن يختار من قسم المشاة بالمدارس الحربية اثنا عشر طالبا ارسلهم الى أوروبا لدراسة تعليمات الجرخجية(٥٤) .

الجيش فى عصر اسماعيل :

اهتم الخديو اسماعيل بالجيش ، وحرص على تطوير ادائه ، ففى اعقاب توليه الحكم ، ظهر تفوق النفوذ الفرنسى حيث توجهت البعثات العسكرية ، وترجمت المؤلفات الحربية المشتملة على اساليب الجيش الفرنسى ونظمه . كما احضر بعثة عسكرية من الضباط الفرنسيين لتنظيم المدارس الحربية المصرية سنة ١٨٦٤ .

كما اتجه اسماعيل بكبار ضباط الجيش الى العسكرية الالمانية ــ المثال الأعلى للنظم الحربية العالمية فى ذلك الوقت ــ وتابع نظمها العسكرية وترجمة قوانينها(٥٥) .

كما توجه أيضا الى الولايات المتحدة الأمريكية ، وطلب بعثة عســـكرية للاســتفادة منها ، مما يؤكد اهتمام اســماعيل بنقل التطورات العسكرية الحديثة الى مصر(٥٦) .

كما اسس هيئة لترجمة المنشورات العســكرية فى يونيو سنة ١٨٦٤ م عرفت باسم قلم الترجمة بالمدارس العسكرية يهتم بتزويدها بالمادة العلمية المستحدثة من أوروبا وبقية دول العالم .

وقد اهتم اسماعيل بهذا القلم ووضعة تحت اشراف ميرشير بك ناظر المدارس الحربية ، وكان يأمر المترجمين ببذل الهمة ويأمر بتزويد هذا القلم بالكتب العســكرية الثمينة والحديثة ، وكان المترجمون يضيفون من عندهم شـــروحا لترجماتهم ، وذلك لأن معظمهم كان من العسكريين العائدين من بعثات محمد على .

ويلاحظ على التكوين البشـــرى للجيش المصرى فى عصر اسماعيل ان اغلب عساكره من المصريين ، وقلة من السودانيين ، أما الضباط فمن المصريين والأتراك والشركس(٥٧) . كما ضـم أيضا بعضـا من الأمريكان والفرنســيين كضابط وميكانيكيين ومهندسين حربيين وجيولوجيين وجغرافيين(٥٨) .

ورغم زيادة عدد الشركس فى مصر(٥٩) منذ أيام عباس باشا فان عددا كبيرا منهم التحق بالخدمة العسكرية أيام الخديو اسماعيل حيث أصبحوا عنصرا جديدا ، لم يندمج تماما فى بنية الجيش المصرى . ومن المثير للدهشة أن يستعلى هؤلاء الشركس على المصريين الذين آووهم واكرموا وفادتهم ، والدهشة ليست من كونهم مهاجرين فقط ، ولكن لعجزهم وجهلهم وعدم كفـايتهم العسكرية ، والتى وضحت بشكل كبير فى هزائمهم بالحبشـــة ١٨٧٦/٧٥ م . بدلا من ان يحاكمهم الخديو على تلك الهزائم .

قربهم اليه واتخذ من راتب باشا ، قائد الحملة ، واحدا من خاصة بطانته ، وكذلك عثمان رفقى باشا ، مما يؤكد شديد ميله الى تلك الفئة التى كانت لها الخطوة لديه ثم لد ى الخديو توفيق من بعده(٦٠) فى حين أن أحمد عرابى — كمثال — ترقى من عسكرى الى قائمقام فى عهد سعيد ، لكنه لم يترق رتبة واحدة فى عهد اسماعيل(٦١) ولم يقتصر موقف اسماعيل تجاه المصريين على مجرد تحيزه ضدهم ، بل أنه تراجع عن اجراءات سابقه سعيد فى انصافه للمصريين ، فجعل مدة التجنيد ما بين ١٢ ، ١٤ سنة حسب السلاح التابع له المجند ، كما فتح باب الاعفاءات من الجيش دون قيد ، فصار التجنيد مقصورا على أبناء الفقراء دون أبناء الأغنياء وأصحاب النفوذ(٦٢) ممن تستروا على ابنائهم بالرشوة والتزوير فى السجلات الرسمية(٦٣) .

وكان لتعدد تنوع العناصر البشرية للجيش المصرى انعكاساته السيئة ، اذ سادت صراعات مختلفة أولها ما نشأ بين التلاميذ المصريين والأتراك والشركس فى مجال التعليم العسكرى حيث أن تلاميذ الأتراك لم يكونوا يتميزون على اقرانهم المصريين سوى بالمصروف الكبير والبلادة العظمى ، اما أولاد المصريين فكانوا يتفوقون عليهم بالذكاء والنباهة والاجتهاد ، ومع ذلك فقد كان أولئك البلداء يحولون الى المدارس العسكرية قبل أقرانهم المصريين بسنة ، فكانوا لذلك يسبقونهم بسنة فى الدراسة وفى التخرج وكانوا يتخرجون ضباطا على قدر كبير من العجرفة والخيلاء رغم قلة معلوماتهم ، وكانوا يتعاملون مع العساكر ومعظمهم من المصريين — معاملة السيد للخادم والعبيد(٦٤) .

وكان ذلك صراعا آخر داخل المؤسسة العسكرية ، وصراع ثالث نشأ بين الضباط الاجانب من جهة والضباط المسلمين

(مصريين وترك وشركس) من جهة اخرى ، هذا الصراع الذى بدأ عندما شرع اسماعيل فى استقدام ضباط اجانب وتكوين هيئة أركان حرب الجيش منهم مما سبب كراهية العنصر المسلم فى الجيش لهذه القيادات التى تمثل عنصرا اجنبيا مخالفا فى العقيدة والدين .

واستمر هذا الصراع واشتد وضوحا الى أن تفجر فى حرب الحبشة التى انتهت بقتل حوالى ٨٫٥٠٠ مقاتل(٦٥) . مما يدل على ضعف قوة مصـــر الحربية ، واثبات نفوذ العناصـــــر التركية والشركسية فى الجيش المصرى ، حيث استطاعت تلك العناصر الاحتفاظ بسلطاتها وامتيازاتها داخل صنوف الجيش ، حتى لو كان ذلك على حساب المصلحة العليا لمصر ، مما اسفر عن مرارة والم سيطرا على العناصر المصرية بالجيش مما دفعها الى تكوين تنظيم عســــــكرى تحت قيادة احمد عرابى وعلى الروبى وفرج عبد العال ومحمود سامى البارودى للتصدى لنفوذ هذه العناصر بالجيش .

التعليم العسكرى فى عصـــر اسماعيل :

اهتم اسماعيل بالمدرسة العســـكرية التى انشأها عباس بالقناطر الخيرية وعين لها كبار الأساتذة ، وكانت تابعة لديوان الجهادية ، فأمر بنقل المدرسة الى العباسية واتخذها نواة لعدة مدارس حربية تختص احداها بالمشاة ، واخرى بالفرسان ، وثالثة بالمدفعية والمهندسين العسكريين ، على النحو الذى كان قائما فى عصر محمد على ، وحولها الى ديوان المدارس ســـنة ١٨٦٤ م فدخلت طورا جديدا وسميت مدرسة المدفعية والمهندسخانة(٦٦) ثم توالت المدارس العسكرية على النحو التالى :

١ — مدرسة البيادة (المشاة) سنة ١٨٦٤ م .

٢ — مدرسة السوارى (الفرسان) سنة ١٨٦٥ م .

٣ — مدرسة الطوبجية (المدفعية) والهندسة الحربية ، سنة ١٨٦٥ م .

٤ — مدرسة اركان الحرب بالعباسية سنة ١٨٦٥ م .

٥ — مدرسة صف الضباط سنة ١٨٧٤ م .

٦ — مدرسة تلفاوات الشيش ومدرسة الجبخانجية .

٧ — مدرسة الموسيقى العسكرية للتدريب على استعمال الآلات الموسيقية(٦٧) .

ولم تدخر حكومة اسماعيل جهدا فى توفير كل ما يساهم فى النهوض بالتعليم العسكرى ، فشرعت تدقق فى تعيينات التلاميذ وتهتم بهم ، كما لم تقصر اهتمامها على مراقبة التلاميذ والاشراف على سلوكهم داخل جدران المدارس العسكرية فقط ، بل انها كانت تراقبهم اثناء خروجهم فى العطلات .

أما المستشفى الذى أنشأته الحكومة للعناية بصحة التلاميذ فقد كان له دور بارز من حيث الاهتمام بنظافتهم وتوقيع الكشف الدورى عليهم .

واذا كان الثواب من عناصر النجاح ، فان العقاب أيضا من عوامله ، ولهذا — ومن اجل اشاعة الهدوء والنظام والاحترام داخل المدارس العسكرية — فقد تم انشاء سجن خاص بها ، يزج فيه كل من يتطاول على رؤسائه أو يهرب من المدرسة ، كما كان يفصل من المدرسة كل تلميذ يتكرر هروبه منها(٦٨) .

كما اعتبرت الحكومة الامتحانات من أكبر عوامل الاصلاح حيث تبرز مستوى نجاح التلميذ ومدى ما بذله المدرسون والمدربون من جهد فكانت تتم بناء على نتائجها الترقيات والمنح والعلاوات .

الصـــحافة العســـكرية :

يعتبر الخديوى اسماعيل صاحب فكرة المجلات العسكرية لتثقيف عقول الضـــباط ووقوفهم على المتجددات العصـــرية والاختراعات الحربية التى تظهر بانحاء العالم المتمدن(٦٩) وقد صـــدرت بالفعل جريدتان الأولى جريدة اركان حرب الجيش المصرى ، والأخرى الجريدة العسكرية المصـــرية ، فقد اهتمتا ببث الروح القومية واستنفارها للدفاع عن مصر ، واذاعة العلوم والفنون العسكرية عن المتأخرين والمعاصرين ، كما تتضمن تقارير عن الحوادث السياسية والعسكرية المعاصرة(٧٠) .

البحـــرية فى عصـــر اسماعيل :

اهتم اسماعيل بالبحرية وجدد الاسطول ، وبعث النشاط فى ترسانة الاسكندرية ، واحيا معاملها ومصانعها واستحضر الآلات والعتاد من داخل الاســكندرية وخارجها وانشأ السفن الحربية وأوصى بصنع غيرها فى ترسانات أوروبا وجدد المدرسة البحرية بالاسكندرية وانشأ مدرسة اخرى بجوار الترســانة انتخب لها نجباء التلاميذ من المدارس الأميرية ، ودرس فيها الفنون والعلوم البحرية التى تدرس بأوروبا ، وأوفدت الحكومة بعض الطـــلاب النابهين الى انجلترا لاتمام دراسة العلوم البحرية(٧١) .

البعثات العسكرية فى عصر اسماعيل :

توجهت معظم البعثات العسكرية الى فرنسا لاقتباس نظمها وفنونها العسكرية . وفى سنة ١٨٦٤ م استدعى الخديو بعثة من الضباط الفرنسيين للاشــــراف على تدريب الجيش المصــــرى والتدريس بالمدارس الحربية .

كما وجهت الحكومة المصرية بعثات الى باريس سنة ١٨٦٦ لدراسة المعادن ثم بعثة أركان الحرب سنة ١٨٦٧ م الى باريس أيضا ، وبعثة الثلاثين طالبا الى فرنسا أوائل سنة ١٨٧٠ م .

وكان لارتباك المالية المصرية فى أواخر حكم اسماعيل أثره فى خفض المصروفات الحكومية ومنها ما يصـــرف على الجيش والمدارس العسكرية ، ومن ثم رأت الحكومة سنة ١٨٧٩ م الغاء المدارس الحربية جملة ، ريثما تتهيأ الأســـباب لاعادة النظر فى وضع برنامج جديد للتعليم العسكرى وفق ظروف اقتصــــادية أفضل . مما يدفع الباحث الى دراسة التحولات الاقتصادية فى مصر فى تلك الفترة موضوع البحث .

هوامش الفصـــل الثالث

(١) عبد الرحمن بن حسن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٩٠ .

(٢) عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى السياسة ، سنة ١٨٨٢/١٩٣٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧ ، ص ٧ ، ٨ .

(٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٥١ ، ص ١٢ .

(٤) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة محمد على ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٥) عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى السياسة ، مرجع سابق ، ص ٩ — ١٠ .

(٦) السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٢٢٨ .

(٧) عبد الرحمن زكى ، الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير ، مرجع سابق ، ص ٣٧ .

(٨) تمام همام تمام ، الرقيق والجندية فى نظر محمد على ، المجـــلة التاريخية المجلد ٢٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ م ، ص ص ١١٩ — ١٥٣ .

(٩) الشيخ حسن العطار ، انشاء الشيخ حسن بن محمد العطار ، المطبعة العثمانية ، باب الشعرية ، القاهرة ، سنة ١٣٠٤ هـ سنة ١٨٦٦ ، ص ٥٠ .

(١٠) الشيخ خليل بن أحمد الرجبى ، فى الشأن الأكبر والتدبير البهى

الأبهر فى ذكر اختراع حضرة افندينا للعساكر الجهادية وما فى ذلك من جليل الحزم وعظيم المزية ضمن كتابه تاريخ الوزير محمد على باشا ، تحقيق دانيـال كريسيليوسى، وآخرين ، دار الآفاق العربية القاهرة ، سنة ١٩٩٧ ، ص ص ٢٣١ — ٢٥٥ .

(١١) المرجع الســابق .

(١٢) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، مرجع سابق ، ص ٥٤٩ .

(١٣) هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٢٩٤ .

(١٥) عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى السياسة ، مرجع سابق ، ص ١٠ .

(١٥) كريم ثابت ، محمد على ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، القاهرة ، د.ت ، ص ٨٥ .

(١٦) عمر طوسون ، صفحات من تاريخ مصر فى عهد محمد على ، الجيش المصرى البرى والبحرى ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٤١ ، ص ٣٢ .

(١٧) هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٣٠٢ .

(١٨) احمد عزت الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٨ ، ص ٣٨٩ .

(١٩) ثيموتى ميتشل ، استعمار مصر ، ترجمة بشير السباعى وآخرين ، سينا للنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠م ، ص ١١٧ .

(٢٠) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، ﺟ ٣ ، مرجع سابق ، ص ٢٥٤ .

(٢١) ثيموتى ميتشل استعمار مصر ، مرجع سابق ، ص ٧٢ .

(٢٢) عن المرجع السابق ، ص ٧٣ .
John Bowring, Report On Egypt and Candia, P. 49.

(٢٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصـر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٩٦ .

(٢٤) بنت بطوطة ، صفحات من تاريخ البحرية المصرية فى عهد محمد على باشا ، مطبعة حلبى بدمنهور ، سنة ١٩٤٧ م ، ص ٤١ .

(٢٥) عمر طوسون ، البعثات العملية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الاول وسعيد ، مطبعة صلاح الدين ، الاسكندرية ، سنة ١٩٣٤ م ، ص ص ٣٦ — ٤٢ .

(٢٦) عبد الرحمن زكى ، التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ م ، ص ٣٢٧ .

(٢٧) عمر طوسون ، البعثات العلمية فى عهد محمد على ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(٢٨) موقعة بحرية تمت بين بحرية الحلفاء (انجلترا وفرنسا وروسيا) والبحرية المصرية والتركية فى ميناء نافارين باليونان فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧ م وتم فيها تدمير البحرية المصرية .

(٢٩) عمر طوسون ، البعثات العلمية ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٣٠) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٩٠ .

(٣١) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، مرجع سابق ، ص ٤٠٠ .

(٣٢) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٩٢ .

(٣٣) محمد شفيق غربال ، أعلام الاسلام محمد على الكبير ، دار المعارف الاسلامية ، القاهرة ، د.ت ، ص ١١٠ — ١١١ .

(٣٤) محمد رفعت رمضان ، مصر والدولة العثمانية ، مرجع سابق ، ص ٧٥ .

(٣٥) أحمد عزت عبد الكريم ، حركة التجديد فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، محاضرات القيت فى معهد البحوث والدراسات العربية .

(٣٦) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، وبناء دولة مصر ، مرجع سابق ، ص ٤٧٤ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٣٨) على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة

والشهيرة ، ﺣ ٤ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٣٠٦ ﻫ ص ص ١٨٦ — ٢٠١ .

(٣٩) هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٣٠٧ .

(٤٠) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشـــا من سنة ١٨٦٣ م الى سنة ١٨٧٩ ، ﺣ ٢ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٣ ، ص ٢٤ .

(٤١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ﺣ ١ ، مرجع سابق ، ص ٢٢ — ٢٣ .

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٢٣ .

(٤٣) على شلبى ، المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر ، دار الكتاب الجامعى ، القاهرة سنة ١٩٨٨ م ، ص ٤٢ .

(٤٤) حقائق الاخبار عن دول البحار ، ﺣ ٢ ، المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية ، سنة ١٣١٤ ﻫ ، سنة ١٨٩٣ ، ص ٢٦٢ .

(٤٥) جورج زيدان ، تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ، ﺣ ١ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، سنة ١٩٠٢ ، ص ٣٣٣ .

(٤٦) محمد محمود السروجى ، الجيش المصرى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ٦٤ .

(٤٧) على شلبى ، المصريون والجندية فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(٤٨) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديوى اسماعيل باشا ، مرجع ســـــابق ، ﺣ ٢ ، ص ٢٥ .

(٤٩) جورج زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ﺣ ١ ، مرجع سابق ، ص ٣٣٢ .

(٥٠) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد اسماعيل باشا ، ﺣ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٦ .

(٥١) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، ﺣ ١ ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

(٥٢) احمد عزت عبد الكريم تاريخ التعليم فى مصر ، حـ ١ ، عصر عباس وسعيد ، مرجع سابق ص ١٩٣ ٠

(٥٣) المرجع السابق ع ص ١٢٢ ٠

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ ٠

(٥٥) محمد محمود السروجى ، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ١٣٨ ٠

(٥٦) صحيفة الكلية الحربية ، اصـــلاحات اسماعيل العظيم ، العـــدد السابع ، السنة السابعة ، سبتمبر سنة ١٩٥٠ ، ص ٨٦ ٠

(٥٧) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٩ ٠

(٥٨) المرجع السابق ، ص ٢٨ — ٢٩ ٠

(٥٩) احتلت روسيا بلاد الجركس والقوقاز وجورجيا ، فهاجر كثير من مسلميها الى تركيا التى وزعتهم على ولاياتها ، ومنها مصر التى كفلت لهم حياة طيبة بحكم الرابطة الدينية ٠

(٦٠) الرافعى ، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، مكتبة النهضـــة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٩ ، حـ ٢ ، ص ٦٣ ٠

(٦١) جورج زيدان ، تراجم مشاهير الشرق ، ط ٢ ، مرجع سابق ، ص ٣٣١ ٠

(٦٢) محمد محمود السروجى ، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٦٥ ٠

(٦٣) تفضيلا انظر على شلبى ، المصريون والجندية فى القرن التاســـع عشر ، مرجع سابق ٠

(٦٤) الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، ط ٢ ، مرجع سابق ، ص ٣١ ٠

(٦٥) على شلبى ، المصريون والجندية ، مرجع سابق ، ص ٢١٩ ٠

(٦٦) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، حـ ٢ ، عصـــر اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٦١٨ ٠

(٦٧) عبد الرحمن الرافعي ، عصر اسماعيل ، حـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٨٢ — ١٥٣ وكذلك أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، عصر اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٦٧٠ .

(٦٨) محمد محمود السروجي ، الجيش المصرى فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٢١٨ .

(٦٩) اسماعيل باشا سر هنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٣١٢ .

(٧٠) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، عصر اسماعيل : حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٦٢٧ .

(٧١) عبد الرحمن الرافعى عصر اسماعيل ، حـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٨٩ — ١٩٠ .

الفصـــل الرابع

التحــولات الاقتصــادية والتعــليم

مثل تجمع علماء الدين والتجار والحرفيين تحالفا ، كان يمكن أن يكون بداية تكوين بورجوازية مصرية وليدة خاصة عندما اعتمد محمد على على الاقتصاد كنقطة ارتكاز لبقية مشروعاته النهضوية وادرك « أنه دون قوة اقتصادية فلا استقلال سياسيا »(١) لولا أنه أقام اقتصاد مصـــر على ســـــياسة الاحتكار «Monopoly» التى قد تعنى :

١ — رأسمالية الدولة ، اى قيام الدولة بدور المستثمر فى مختلف المجالات .

٢ — اشتراكية الدولة ، تنظيم الاقتصاد على اساس ملكية الدولة لوسائل الانتاج الكبرى .

٣ — المركنتيلية «Mercantilism» وهو نظام اقتصادى نشأ فى أوروبا خلال تفسخ الاقطاع لتعزيز ثروة الدولة عن طـــريق التنظيم الحكومى الصارم لكامل الاقتصاد الوطنى وانتهاج سياسات تهدف الى تطوير الزراعة والصناعة وانشاء الاحتكارات التجارية الخارجية(٢) .

فقد تعارضت سياسة الاحتكار مع نمو وازدهار الراسمالية التجارية العالمية والتى اعتمدت على نظريات اقتصادية تؤكد :

١ رفض المركنتيلية واعتبـــار تدخل الدولة معوقا للنمو الاقتصادى .

٢ ــ اعتبار الانتاج الصناعى هو الثروة ، وليس الذهب .

٣ ــ ظهور مفكرين اقتصاديين جدد مثل جماعة الطبيعيين (الفيزيوقراط) فى فرنسا سنة ١٧٥٦/١٧٧٨ م والتى روجت لمنع الدول من التدخل فى الاقتصاد ورفعت شعار دعه يعمل دعه يمر «Laisser Faire Laisser» كما اعتبرت الزراعة نشـــاطا اقتصاديا وحيدا لانها تؤدى الى وفرة الانتاج أما التجارة فهى مجرد نقل مواد من مكان الى آخر ، ولهذا عرفوا باسم انصار الطبيعة ، وكذلك ظهور كتاب آدم سميث (ثروة الأمم) ١٧٧٦ م الذى اعتبر دستور الطبقة الصناعية الحديثة وروج لكثير من الأفكار اهمها ضرورة رفع يد الدولة عن الاقتصاد وقصر وظيفتها على الدفاع والأمن واقامة المشروعات التى لا يقبل عليها الأفراد لقلة أرباحها .

على ما يبدو اذن أن سياسة الاحتكار قد اصطدمت آلياتها بمصالح الدول الكبرى ، فعملت على اجهاضـــها بمعاهداتها مع السلطنة (مثل بلطة ليمان ١٨٣٨ م) وتمادت فى بسط نفوذها على مصر بالهجرات والقروض والاستثمارات والوصاية الى أن وصلت فى النهاية الى استعمارها(٣) .

وتحقيقا لسياسات الاحتكار فى مجال الزراعة قام محمد على بالغاء نظام الالتزام مستندا فى ذلك بفتوى تقرر « ان مصر بلاد فتحت عنوة مما يخول للحكومة حق امتلاكها »(٤) .

وكانت الأراضى الزراعية على نوعين : أراضى الوسية ، وأراضى الأثر . الأولى هى أراضى الدولة ، يتعهد الفلاح بزراعتها مقابل دفع ما عليها من ضرائب ، وفى حالة عجزه تؤول ملكيتها للدولة ، أما أراضى الأثر فهى التى يورثها الآباء ابناءهم ويكون للفلاح حق شرائها وبيعها ، لأن حقه فى امتلاكها كاملا ، وكثيرا من المشايخ كانوا يملكون الف فدان وأكثر من هذه الأراضى(٥) .

وقد توثقت العلاقة بين الفلاح والحكومة بعد الغاء نظام الالتزام مما مهد لتدخل الدولة فى تنظيم أمور الزراعة على النحو التالى :

١ — توزيع الأراضى على الزارع ، لكل زارع من ثلاثة الى خمسة أفدنة يزرعها نظير دفع الضرائب المقررة ، دون أن يكون مالكها .

٢ — تعطى للفلاح البذور وآلات الزراعة والمواشى اللازمة لزراعته ، ويبقى مدينا بثمنها لحين جنى المحصول .

٣ — تحدد الحكومة أنواع المحاصيل المراد زراعتها ، ومساحة كل محصول ، وبهذا أمكن ادخال محاصيل زراعية جديدة .

٤ — معاقبة الفلاح على اهماله ، وكانت العقوبات غالبا قاسية مما دفع الفلاح العاجز عن زراعة أرضه الى هجرها .

٥ — لا يحق للفلاح التصرف فى محاصيله ، بل يقدمها الى مخازن الحكومة بالسعر الذى تحدده وبعد خصم كل ما اخذه الفلاح أثناء السنة(٦) .

وكان نظام الاحتكار هو الحق الذى احتفظت به الحكومة لنفسها لتكون المشترى الوحيد للشطر الأوفى من حاصـــلات الأرض ، ولم يكن هذا الاحتكار سائدا على جميع المحاصيل ، بل كان مقصورا على المحاصيل النقدية كالقطن والأرز والسكر(٧) والتى اعتمد عليها كأساس للتجارة الخارجية .

ومن ثم لم تصبح الزراعة مقصورة على انتاج المواد الغذائية الاستهلاكية ، لكنها امتدت لانتاج المواد اللازمة للنهضة الصناعية الحديثة ، كما تنتج فائضا يصـــدر الى الخارج ، وهكذا خرجت الأرض الزراعية المصرية من النطاق المحدود الذى فرض عليها حتى القرن التاسع عشر — وهو مجرد اعاشـــة الناس وأداء مرتبات الجند — الى نطاق اوسع فتصبح الدعامة القوية للتجارة الخارجية والصناعات الكبيرة فى مصر ، وقد اقتضى تنفيذ تلك السياسة الزراعية الجديدة ثلاثة أمور **أولها** : تدبير الماء اللازم لتوسيع الرقعة الزراعية ، **الثانى** : تنويع الحاصـــلات الزراعية وادخال زروع جديدة ، وتحسين الزروع القائمة(٨) . **الثالث** : تقنين الملكية الزراعية .

اولا — مشـــــــروعات الرى :

اهتمت الحكومة بمشـــروعات الرى ، فحفرت الترع(٩) وشيدت الجسور ، وكان أول أعمال الرى فى عصر محمد على هو : سد ترعة الفرعونية سنة ١٨٠٩ لما سببته من اضـــــرار بالأراضى القائمة على فرع دمياط ، وانشاء ترع أخرى بديلة .

كما تم شق ترعة المحمودية التى حققت مكاسب اقتصادية عظيمة ، خاصة عمران مدينة الاسكندرية وضواحيها(١٠) .

ومن أعمال الرى المهمة بانشاء القناطر الخيرية التى توقع لها أن تحقق الأهداف التالية :

١ — رى حوالى ٣٫٨٠٠٫٠٠٠ فدان فى الوجه البحرى دون استخدام آلات رفع المياه .

٢ — امكان الرى الدائم بغض النظر عن طبيعة الفيضان .

٣ — تحسين الملاحة فى الترع ، وانخفاض تكاليف النقل .

٤ — حصول ترعة المحمودية على مزيد من المياه ، وبذلك تتحسن الملاحة فيها .

٥ — تزويد ترع القاهرة بكميات أكبر من الميـــــاه لتموين السكان(١١) .

وفى أيام حكم سعيد باشا تم تطهير ترعة المحمودية واعادة اصلاحها فيما شبهه الرافعى « اعادة حفرها من جديد »(١٢) .

أما فى عصر اسماعيل ، فقد زاد الاهتمام بمشروعات الرى لما أولاه الخديو من اهتمام بالزراعة التى اعتبرها ثروة مصـــــر الحقيقية ، فشق الكثير من الترع فى الوجهين البحرى والقبلى ، وبلغ عدد ما حفر أو أصلح فى عهده نحو ١١٢ ترعة أهمها ترعة الابراهيمية وترعة الاسماعيلية ، وما قام بانشائه من قناطر ٢٧٦ بالوجه البحرى و١٥٠ بالوجه القبلى ، كما تم فى عهده اصـــلاح بعض عيوب القناطر الخيرية التى ظهر بها خلل بسبب ضـــغط المياه سنة ١٨٦٧ م .

كما تم فى عصر اسماعيل انشاء مجالس بالأقاليم ســـميت مجالس تفتيش الزراعة للبحث فى الشئون الكفيلة بتحســـين الزراعة ، وانمـــائها وتوزيع مياه الرى ، كما انشـــئت وزارة للزراعة .

وكان لجهود اسماعيل أن زادت المســـاحة المزروعة من ٣٨٥٦٠٠٠ فدان أيام حكم محمد على الى ٤٨١٠٠٠٠ فدان اواخر أيام حكم اسماعيل(١٣) .

ثانيا — المحاصيل الجديدة واكثار الحيوانات :

كانت الحاصلات التى تزرع بمصر فى معظمها حاصـــلات غذائية ، وقليل من القطن الردىء ، فقام الوالى بتوسيع نطاق الزراعة باستحداث انواع جديدة زادت من ثروات مصر الزراعية مثل غرس أشجار التوت لتربية دودة القز ، وغيرها من الأشجار على اختلاف انواعها لاستخدام أخشابها فى بناء السفن وأعمال العمران . كما استحدث فى مصر زراعة أنواع جيدة من القطن مثل قطن جومل وقطن سى ايلاند والتى اقبلت على طلبها مصانع النسيج فى فرنسا وانجلترا حيث صدرت مصر منه سنة ١٨٢٧ م ٣٤٤ الف قنطار ، واصبح القطن بعد ذلك اساس ثروة مصـــر الزراعية(١٤) .

كما صلحت فى مصر زراعة الزيتون وبذور النيلة الهندية والقنب (التيل) لاستخدامه فى صنع الحبال .

وفى عهد عباس الغيت المدارس الزراعية والبيطرية ، وتم طرد الأطباء البيطريين من الخدمة فى الحكومة ، وبذلك حرمت مصر من تخريج أخصائيين فى الزراعة وفى الطب البيطرى .

وفى عهد سعيد اصبح الفلاح حرا فى زراعة ما يشاء من حاصلات زراعية .

اما فى عصـــر اسماعيل فقد تم انشـــاء مدرســـة زراعة الخضراوات بحديقة الجزيرة لدراسة النباتات التى يكون ادخالها

نافعا للقطر المصرى . وفيها أجريت التجارب الزراعية مما ادى الى اقلمة بعض النباتات الأجنبية ، وتحسين بعض النباتات الأهلية .

وفضلا عن المعلومات العلمية والعملية التى كان يتلقاها الشباب من الزراعيين فى الجزيرة ، كلف اسماعيل باشا ـ كرتواجير احد الأخصائيين فى زراعة الخضر بتأليف كتاب فى زراعة الحضر يشرح فيه أحدث الأساليب فى هذا المجال ، ثم تمت ترجمته الى الروضة البهية فى زراعة الخضراوات المصرية ونشر ١٨٧٣ م .

ورغبة فى ترقية الزراعة ونهضتها فى مصر ، تم انشاء نظارة الزراعة ومجالس للتفتيش وديوان تفتيش عموم الأقاليم للنظر فى جميع ما يلزم لزيادة اصلاح الأراضى ، وتحسين المزروعات .

وقد استوردت مصر كثيرا من الآلات الزراعية الحديثة ، استخدمها كبار الملاك فى الزراعة ، وان استمر الفلاح فى استخدام الآلات القديمة .

وقد تأثر توزيع الحاصلات الزراعية فى مصر بالحرب الأهلية الأمريكية حيث اشتد الطلب على القطن المصرى فى السوق العالمية مما ادى الى ارتفاع ثمنه ارتفاعا كبيرا وبالتالى أقبل على زراعته معظم الفلاحين(١٥) .

كما قامت الحكومة بتكثير الحيوانات لسد حاجات البلاد منها، فجلبت الخيل والبغال والجمال والبقر والضأن واغنام المارينو والماعز ، وعملت على زيادة انتاجها والعناية بها بيطريا ، وبالتالى قامت الحكومة سنة ١٨٢٨ م بانشا مدرسة الطب البطرى فى رشيد وارسلت البعوث الى فرنسا لتعلم الطب البيطرى .

وبالرغم من تلك الجهود ، فان تربية الحيوان فى مصر كانت أقل شأنا من انتاج النباتات ، وذلك لقلة المراعى الطبيعيـــــة والزراعية(١٦) .

ثالثا ــ تقنين الملكية الزراعيـــــة :

وجد محمد على أن نظام حيازة الأرض القائم فى مصـــر لا يوفر له الموارد اللازمة لتحقيق مشروعاته النهضوية ، ولهذا عمد الى تغييره فقام سنة ١٨٠٩ م بالغاء نظام الالتزام ، ثم قام سنة ١٨١٢ م بمسح كل الاراضى المزروعة وسجلها فى السجلات وقام بتخصيص الأراضى الخصبة لأفراد اسرته فيما عرف باسم الشفالك ، كما منح كبار رجال دولته أرضا يملكونها ولا يدفعون عنها ضـــــرائب فيما عرف باسم الابعاديات . ثم وزع الأرض على الفلاحين يقومون بزراعتها فى مقابل دفع ضرائب عنها ، دون أن يكون لهم حق ملكيتها او توريثها او تداولها بالبيع او الشراء أو الرهن(١٧) .

كما بدا محمد على منذ سنة ١٨٩٣ م بالتنـــازل عن بعض الاراضى لـــكبار العاملين فى الحكومة من الأوروبيين لتكون فى حوزتهم على الدوام فكانت مصر بذلك من أوائل البلاد التى أمتلك فيها الأجانب الأراضى الزراعية(١٨) .

وقد كانت الأبعاديات والشــــفالك تمتاز بعظم المساحة مما يمكن اعتبارها نواة لنشأة الملكيات الزراعية الكبيرة فى مصر ، والتى انحدرت من معظمها الأصول الراســــمالية فى مجالات الاقتصاد الاخرى ، خاصة بعد ان حصلت تلك الفئات على الحق الشرعى فى تملك الأراضى الى ما شاء الله(١٩) .

كما أصدر محمد على تشريعا ينظم حيازة الفلاحين للأرض فى ديسمبر سنة ١٨٤٦ م ، وهو ما يعرف بلائحة الاطيان الأولى حيث أجازت لهم حق رهن الأرض او اسقاط منفعتها الغير أو التنازل عنها وتأجيرها بسند يكون أساسا للحكم عند تنازع الطرفين : المؤجر والمستأجر(٢٠) .

وهكذا تعددت فى نهاية حكم محمد على فئات حيازة الأرض بين أعضاء الأسرة الحاكمة وعلى رأسهم الباشا نفسه ، والضباط الاتراك وكبار الموظفين وعدد محدود من الأجانب والفلاحين وقد وقد تحولت ملكية الأرض من الدولة الى الأفراد فى حدود ثلاثين سنة على النحو التالى :

١ — بعد معاهدة ١٨٣٨ م بين انجلترا وتركيا ، اصبح من حق رعايا انجلترا التعامل الاقتصادى الحر والمباشر مع رعايا الدولة العثمانية . وتمثل هذه الاجراءات بداية انهيار احتكارات محمد على .

٢ — وفى سنة ١٨٤٦ م أجيز نقل الملكية ورهنها قانونا .

٣ — وفى عهد سعيد ، وباصدار اللائحة السعيدية ، اعترف بحق الفلاح فى التملك وبالتالى فى التوريث .

٤ — وفى سنة ١٨٧١ م وبفضل قانون المقابلة ، تم منح حقوق كاملة ونهائية للملكية .

ورغم ما أسفرت عنه تلك الاجراءات من عيوب أهمها : تفتيت ملكية الأرض ، واغراق صغار الملاك فى الديون لصالح بنوك الرهونات . فانها اسفرت عن ايجابية مهمة وهى نشأة الراسمالية الزراعية والتى تحركت ووجهت الأحداث السياسية فى مصر عندما اشتدت الأزمة المالية أيام اسماعيل وتعارضت

مصالحها مع مصالح الدول الدائنة ، ومن الادلة الواضحة على نفوذ وقوة تلك الطبقة ان ما ساهمت به من قروض للدولة سنة ١٨٧٤ م بلغ ١٣½ مليون جنيه . ويعتبر عهد سعيد نقطة مهمة فى تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى ، حيث ساهمت اللائحة السعيدية فى تحديد التكوين الكامل والموقف المحدد للفلاحين .

ورغم أن اللائحة قد افادت الفلاحين بتمتعهم بحقوق الملكية ، فان كبار الملاك كانوا المستفيدين من حقوق الملكية اكثر من غيرهم . وهؤلاء هم زعماء الريف الذين اكسبتهم مراكزهم الاجتماعية والمالية مكانة عالية ، ومن ثم كانت صلاحيتهم للقيام بتمثيل الأهالى فى مجلس الشورى والنواب فى عصر اسماعيل(٢٢) . وهكذا بدا المجتمع الريفى يشهد تفاوتا كبيرا فى الثروة ، حتى أصبح هذا التفاوت من خصائص المجتمع الريفى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومابعده(٢٣) .

التعليم والزراعة :

لم تكون النهضة الزراعية مقصورة فقط على استنبات محاصيل زراعية جديدة والاكثار من الحيوانات وشق الترع واقامة الجسور وتعديل هيكل الملكية الزراعية ، وما ترتب عليه من حراك اجتماعى ونشاط سياسى ، بل ان النهضة الزراعية اقترنت وتلازمت مع مؤسسات تعليمية زراعية وفكر تربوى زراعى نهضوى حديث وقد تمثلت أهم ملامحه فى الآتى :

١ — الدرسخانة الملكية لتحصيل فن الفلاحة وعلوم الزراعة سنة ١٨٣٠ م .

٢ — مدرسة الزراعة بشبرا الخيمة ١٨٣٣ م وسط مائة فدان زراعة خصصت لها ، ليقوم العائدون من بعثاتهم الزراعية ،

ويعلمون ابناء كبار مشايخ البلاد والاغنياء المقتدرين ، حيث كان محمد على قد وعد بالانعـــام على كل واحد منهم بعد عودته من البعثة الى بلده بمائة فدان رزقه بلا مال ، على ان يعلموا اولاد الفلاحين ما تعلموه .

٣ ــ مدرسة الزراعة بنبروه ، والتى عين لها مبنى خاص والحق بها مزرعة نموذجية لتجربة المزروعات والطرق الأوروبية وكانت مساحتها حوالى ٢٠٠٠ فدان ، كما افتتح بها معامل لصناعة منتجات الالبان ، وكان يعلم بها صناعة استخراج السمن والجبن مدرس فرنسى(٢٤) .

أما فى عهد عباس فانه قد الغى مدرسة الالسن فى نوفمبر سنة ١٨٤٩ م ومن اقسامها الادارة الزراعية كما الغى مدرسة الطب البيطرى . وهكذا حرمت مصر من تخريج اخصـــائيين فى الزراعة والطب البيطرى يقودون نهضتها الزراعية .

وفى عصر اسماعيل انشئت مدرسة الطب البيطرى سنة ١٨٦٥ م ثم انشئت مدرسة الزراعة فى سنة ١٨٦٧ م والحقت بالمدرسة الأولى فأصبحت المدرستان تحت ادارة واحدة كما تم انشاء فرق للمساحة بمدارس الاقاليم ، وكذلك انشئت مدرســـة خاصة بالمساحة والمحاسبة .

الصـــــــناعة :

قبل أن يشرع محمد على فى انشاء الصناعات الحديثة طبق نظام الاحتكار على الصـــناعات الصـــــغيرة وفق برنامج اعتمد الخطوات التالية :

١ ــ اختيار سلعة شائعة .

٢ — جمع منتجى تلك السلعة ، والمتاجرين بها فى كل مدينة حتى يمكن احكام الرقابة ، واجتناب التهرب .

٣ — تعيين ناظر يعهد اليه بجمع المكوث المفروضة .

٤ — شراء الحكومة للخامات اللازمة للصناعة بالسعر التى تحدده .

٥ — احتكار البيع بالسعر التى تحدده الحكومة ايضا .

٦ — حظر انتاج السلعة دون ترخيص خوفا من ازدياد العرض ، وانزال العقاب لمن تسول له نفسه بيع الانتاج خفية .

٧ — ارغام مشايخ القرى والبلدان على شراء حصة من الانتاج بالثمن المحدد(٢٥) .

وقد ادى احتكار الحكومة للصناعات الصغيرة ان تحول الصناع الى مجرد اجراء فضلا عن تعرضهم لسوء المعاملة من جانب الموظفين المباشرين المكلفين بالاشراف عليهم .

ورغم ارتفاع ارباح الحكومة من الاحتكار الزراعى والصناعى والتى بلغت ٣٢٥ الف جنيه سنة ١٨٢١ م ، وذلك من مجموع دخل الحكومة البالغ ٢ر١ مليون جنيه(٢٦) فان سياسة الاحتكار كانت على وشك الاضرار بمصالح الحكومة ذاتها مما دعا محمد على الى التصريح ببيع القماش التيل فى السوق الحرة سنة ١٨٣٤ م وذلك بعد دفع ضريبة عن كل قطعة ، كما انه وضع حدا لاحتكار صناعة الحصر فى نفس السنة(٢٧) .

والى جانب الصناعات التقليدية ، اهتم محمد على بادخال الصناعات الحديثة الى مصر ، وربما كان وراء ذلك حاجته الملحة ازيادة موارده لمواصلة الحرب فى شبه الجزيرة العربية(٢٨) او

لادراك محمد على للصلات الوثيقة بين الزراعة والصناعة ، والتى تحتم تحويل الموارد الزراعية الخام الى مصنوعات فى نفس البلد التى تنتجها ، مع وفرة ما تنتجه مصر من محاصيل زراعية قابلة للتصنيع ، علاوة على توفر الأيدى العاملة وانخفاض أجورها ، والرغبة الهائلة عند محمد على للاكتفاء الذاتى .

ومن ثم فقد عمل محمد على على ادخال الصناعات الى مصر ، فأرسل سنة ١٨١٧ م عمالا مصريين الى أوروبا ليتعلموا مختلف فنون الصناعات الحديثة . واعاد تنظيم صناعة النسيج ، فبنى مصنعا فى الخرنفش ثم تلاه آخر فى بولاق .

وقد استطاع محمد على أن يمهد لانقلاب صناعى حديث لم تعرفه مصر من قبل ، وذلك حين جلب الخبراء والمهندسين من الخارج لأنهم يعرفون دقائق الصناعات الحديثة ، واشترى الآلات الجديدة التى لم تكن تعرفها البيئة المصرية(٢٩) وكان حريصا على أن يجلب مع الآلات الجديدة خبراء يتولون أمرها ، كما يعلمون أبناء البلد سر تشغيلها ، احسن محمد على معاملة هؤلاء الخبراء ولم يكن يمنح أى أجنبى رخصة بمزاولة صناعة أو حرفة فى مصر الا اذا علمها لعدد معين من المصريين ما ساهم فى خلق جيل جديد من المصريين قادر على ممارسة الصناعة بأسلوب حديث ويمكن أن يحل محل الأجانب .

وقد انتشرت المصانع الجديدة فى القاهرة والاسكندرية وقليوب وشبين والمحلة الكبرى وزفتى وميت غمر والمنصورة ودمياط وفوه والواسطى وبنى سويف وأسيوط وقنا واسنا ، أما الصناعات الحرفية فقد استوطنت فى القاهرة ليسهل الاشراف الادارى عليها(٣٠) .

وقد مرت الصناعة فى مصر بمراحل ثلاث كما حددها أنور عبد الملك(٣١) :

الأولى : ١٨١٦/١٨١٨ م ، حيث حافظ الانتاج الصناعى على طابعه الحرفى عندما استمر نفس الحرفيين فى عملهم مع تدخل الحكومة التى كانت تزودهم بالمواد الأولية التى يعيدونها مصنوعات مقابل أجور تدفع لهم .

وفى هذه المرحلة استحدث محمد على صناعة الحرير التى استقدم لها العاملين من الشام من أجل تعليم المصـــــريين هذه الصناعة على أن يكونوا شركاء فى ريع المحصول ، كما تأسست فيها مدرسة المهندسخانة ، أو على الأصح نواتها ، عندما أمر الباشا ببناء مكتب بحوش السراية لتكون نواة للتعليم الهندسى فى مصر قبل البعثات الخارجية ، واعتمد فيها الباشا على المصريين الذى وجد لديهم استعدادا جيدا لتحصيل المعارف ، وأن جعل من الأجانب رؤساء لهم ، كما استقدم رجلا روميا له معرفة بالحساب والهندسة لتعليم من كان أعجميا ولا يعرف العربية من الطلاب المماليك ، وجعل المعلم فيها حســـن أفندى المعروف بالدرويش الموصلى ، يقرر لهم بعض العلوم الرياضية والهندسية ، وأحضر لهم آلات هندسية متنوعة ، ورتب لهم المرتبات والكساوى ، وأطلق على هذا المكتب (المهندسخانة) ، واستمروا يجتمعون فيه كل يوم من الصباح الى ما بعد الظهر ، ثم ينزلون الى بيوتهم(٣٢) .

وانتشرت فى مصر فى تلك المرحلة صناعة الصابون وعسل النحل وشمعه والأخشاب والرصاص والقصـــدير الذى يستخدم فى صناعة البارود(٣٣) .

وفى ظل سياسة الاحتكار التى امتدت حتى للجزارة حيث

أبطلت الحكومة جميع المذابح فى أرجاء مصر ما عدا السلخانة السلطانية خارج الحسينية(٣٤) .

ورغم النشاط الصناعى فى تلك الفترة ، فان لم يســـاهم فى بلورة بورجوازية مصرية ، حيث اضمحل شأن طبقة التجار بمصر ، بسبب سطوة الحكومة وســـياسة الاحتكار التى أدت الى ثراء الحكومة فى مقابل تضاؤل الثروات الشخصية .

الثانية : ١٨١٨/١٨٣٠ مرحلة الصناعات الكبرى وخاصة النسيج والسلاح وغيرها من الصناعات التى اعتمدت على البخار كمصدر للطاقة ، حيث تكونت الوحدات الصناعية الكبيرة مثل مصانع الأسلحة والمدافع بالقلعة التى بلغت أوجها سنة ١٨٢٨ م فى عهد عزام بك ، مصنع المدافع بالترسانة ، مصنع البنادق فى الحوض المرصود سنة ١٨٢١ ، مصانع البارود الخمسة التى بلغ انتاجها ٩٥٫٨٧٤ قنطارا عام ١٨٣٣ ، الترســـــانة البحـــرية بالاسكندرية التى انشأها لوفيبور دى ســــيريزى سنة ١٨٢٩ ، والتى تطورت على يد رئيس عمالها العبقـــرى الحاج عمر ، ثم حوض الصيانة الذى انشأه موجيل سنة ١٨٤٤ ، ولقد أثارت هذه الانجازات اعجاب كل من المرشال مارمون وكلوت بك فيما كتبا عنها بعد ذلك معبرين عن دهشتهما الكبيرة .

وفى مجال الصناعات المدنية فقد تم انشاء ٣٠ مصنعا لغزل القطن ونســـــجه فى الوجه القبلى والوجه البحرى ، وكانت مصانع القاهرة تزود مصانع الأقاليم بالآلات والعدد وقطع الغيار ومواد الانشاء والفنيين لتجديد المنشآت ، ولقد كان الانتاج يسد حاجات البلاد ويحقق فى نفس الوقت فائضا قليلا للتصدير وأرباحا لخزانة الدولة تبلغ ١٠٠٪ . كذلك تم انشاء ٣ مصانع لنســـــج الصوف فى بولاق ودمنهور وفوه ومصنع كبير للحرير فى الخرنفش

ومصانع عديدة للكتان فى أنحاء البلاد ، و٣ مصانع للسكر و ١٧ مصنعا للنيلة ومصنعين كبيرين للزجاج ومدبغة رشيد سنة ١٨٢٧م ومصنع الورق بالقاهرة وستة مصانع لنترات البوتاسيوم أنشأها فرنسى يدعى حاييم ، وقد اعتمدت بعض المصانع الحديثة فى مصر على البخار كقوة محركة بفضل المهندس الانجليزى توماس جالواسى .

ولقد شدد محمد على من سـيطرة الدولة على الصناعات فقد اصدر سنة ١٨١٧ م مرسوما يقضى بوجوب بحث كل مشروع عن طريق مجلس وتكون الموافقة عليه بأغلبية الأصوات ، وللوالى حق اتخاذ القرار الأخير ، وما تتبعه من ظهور للادارات التالية : الحرير ، الطباعة ، المبيعات ، المشتروات ، الجلود ، والمجازر ، الذخيرة ، الملاحة ، الزيوت ومعاصر الزيت ، ثم ظهرت فى عام ١٨٣٠ المجالس التالية : طباعة الاقمشة ، الذخيرة ، الترسانات ، المعادن ، الدواب ، المبيعات ، وأخيرا فى سنة ١٨٣٧ أصـدر قرارا بتركيز النشـاط الاقتصادى على المستوى الحكومى وذلك بتكليف سبع وزارات رئيسية ، بالاشراف على هذا النشاط وهى وزارات المالية ، الحرب ، الملاحة ، المعارف العمومية ، الشئون الأوروبية والتجارية ، الداخلية ، الصناعة .

الثالثة : بدات سنة ١٨٣٠ هى مرحلة انهيار الاقتصـاد المصرى ، والتى تعود أسبابه الى عدة عوامل متفاعلة فيما بينها منها : سوء الادارة ونقص القوى المحركة وقلة الأيدى العاملة المدربة ومقاومة الدول الأوروبية لحركة التصـنيع فى مصـر ، وحملتها العنيفة ضدها ، واشاعة أنها بلد زراعى لا تصـلح للصناعة ، ومحاولاتها المستمرة للابقاء عليها سـوقا لترويج مصنوعاتها وذلك بعقد عدة اتفاقيات منها بلطة ليمان سنة ١٨٣٨

والتى حددت — بين ما حددته — الرسوم الجمركية (١٢٪ على الصادرات و ٥٪ على الواردات)(٣٥) . والتى عززتها معاهدة سنة ١٨٤٠ والتى التزم خـلالها محمد على ببنود اتفاقية بلطة ليمان سنة ١٨٣٨ م(٣٦) .

كما أنه ، وبمقتضى معاهدة سنة ١٨٤١ ، تم تخفيض عدد الجيش الى ١٨ الف جندى ، وان تدفع مصر جزية سنوية لتركيا مقدارها ٤١٢ الف جنيه ، مما يعتبر ضربة فى الصميم للصناعة المصرية ، حيث كان الجيش هو محور النهضة الصناعية التى قامت على انشاء جيش قوى وامداده بالضباط والقادة المدربين تدريبا علميا حديثا وتجهيز ما يحتاج اليه الجيش والاسطول من مؤن واسلحة ومعدات وذخائر فى مصـانع امتلأت بها القـاهرة والاسكندرية وغيرها من مدن مصر(٣٧) .

وغير ذلك من معاهدات حرمت الصناعة المصـرية الوليدة من الحماية الجمركية اللازمة ، فلم تعد تقوى على منافسـة المنتجات الأوربية التى سبقت الصناعة المصـرية بمراحل . كما فتحت تلك المعاهدات الباب لنمو الجاليات الأجنبية فى مصـر والتدخل الأجنبى فى شئونها .

اهم الصناعات فى عصر محمد على :

اولا — الصناعات الحربية والبحرية :

١ — مصانع القلعة ، أقيمت سنة ١٨١٦ م وكان يعمل بها ٤٠٠ عامل ، وتم بناؤها وبدأ الانتاج فى منتصف سنة ١٨٢٠ م تحت اشراف المسيو جونون وكانت تنتج ثلاثة انواع من الاسلحة وهى البنادق والمدافع والذخيرة(٣٨) .

٢ ــ مصنع الأسلحة الصغيرة (البنادق) فى الحوض المرصود سنة ١٨٣١ وعدد العمال به ١٢٠٠ عامل كانوا ينتجون ٩٠٠ بندقية فى الشهر(٣٩) ، وكانت الحكومة ترسل البعثات لتعلم صناعة الأسلحة وصب المدافع الى كل من ايطاليا وفرنسا وانجلترا .

٣ ــ مصانع البارود وبلغت ٦ مصانع فى القاهرة والبدرشين والاشمونيين والفيوم واهناسى والطرانة وكان أولها مصنع جزيرة الروضة وبلغ انتاجها جميعا حوالى ١٥٫٧٨٤ قنطارا سنة ١٨٣٣(٤٠) .

٤ ــ مسابك الحديد فى بولاق وتكلفت مليون ونصف المليون فرنك ، ووضع تصميمها المهندس الانجليزى (جالوية) مطابقة بمثيلاتها فى انجلترا وقامت بصناعة ادوات وآلات خاصة بالبحرية المصرية ومختلف المصانع الأخرى ، كما أنشأت الحكومة مسبكا آخر فى القلعة يقوم بحاجات المدفعية والبحرية(٤١) .

بالاضافة الى ما سبق كانت توجد معامل لصنع الحبال وقلاع المراكب وصناديق الذخيرة وعجلات المدافع والحراب والسيوف والبلط والمسامير والأقفال وغيرها من الصناعات الصغيرة .

٥ ــ صناعة السفن وتمثلت فى الآتى :

(أ) ترسانة بولاق : حيث بدأ ظهور البحرية المصرية فى تاريخها الحديث أوائل سنة ١٨١٠ حين شرع محمد على فى انشاء مراكب بالبحر الأحمر فى خليج السويس وطلب الأخشاب الصالحة لذلك ارسل الفنيين لقطع اشجار التوت والنبق من انحاء القطر المصرى ، واستورد بقية الأخشاب من الخارج وأنشأ ترسانة بساحل بولاق وجمع لها الصناع والنجارين والنشارين وغيرهم(٤٢)

فترسانة بولاق كان لها فضل كبير على البحرية المصرية حيث انشئت فيها السفن التى استخدمها محمد على فى الحملة على الوهابيين ، وانشئت فيها ايضا السفن التجارية التى استخدمتها الحكومة لنقل المتاجر والمهمات عن طريق النيل وشواطىء البحر الأبيض(٤٣) .

(ب) ترسانة الاسكندرية : كان الأسطول المصرى فى أول الأمر مكونا من السفن الحربية التى صنعت فى مصر على الطراز القديم ، والسفن التى اشترتها الحكومة من الخارج . والسفن التى صنعت لحساب مصر فى دور الصناعة بالموانىء الأجنبية(٤٤) .

ولما احترق أسطول مصر فى موقعة نافارين سنة ١٨٢٧ م، شرع محمد على فى انشأ دار بالاسكندرية(٤٥) لبناء السفن واصلاحها حيث بدأ العمل فيها سنة ١٨٢٩ م بفريق من العمال المصريين تحت اشراف معلمين أوروبيين وأمكن سنة ١٨٣١ م انزال سفينة ذات مائة مدفع الى البحر ، وتكونت اثر ذلك البحرية المصرية وصار لمصر اسطول يعتد به ، رفع ذكرها فى الحروب المختلفة وتدرب على القيام فى خدمته عشرة آلاف مصرى(٤٦) .

وانشأ محمد على ايضا مدرسة لتعليم علوم البحار وادخل فيها جملة من الشبان المصريين تحت قيادة معلمين مهرة وتحت اشراف المسيو سيريزى ، وبلغ عدد عمال ترسانة الاسكندرية نحو ٩٠٠ عامل عند بداية انشائها ثم وصل الى ١٥٠٠ عامل سنة ١٨٣٢ م وقد تعلم المصريون بالترسانة بناء السفن وترميمها وكل ما يلزمها من آلات بالطرق الحديثة(٤٧) .

وبلغ الاسطول المصرى سنة ١٨٣٢ ثلاثين قطعة تحمل ١٣٠٠ مدفع .

وهكذا يتضح ان ترسانة الاسكندرية كانت من اعظم المنشآت الحربية والبحرية ، كما كانت معهدا لتعليم المصريين بناء السفن وترميمها(٤٨) .

ثانيا — الصناعات المدنية :

١ — صناعة الغزل والنسيج : والتى كانت اساسا لنهضة صناعية كبرى حيث انتشرت تلك المصانع فى الوجهين البحرى والقبلى(٤٩) . ضمت ١٤٥٩ دولابا للغزل وتصنع ٤٦٣٣٠ رطلا من الخيوط يوميا(٥٠) ويصدر بعضها وينسج الآخر قماشا بمصر : جزء للاستهلاك المحلى والآخر للتصدير .

٢ — نسيج الصوف : وقد احضر لها الوالى خمسة من امهر عمال الجوخ بفرنسا عكفوا على ادارة المصنع مدة اربعة عشر عاما وقاموا بتدريب لفيف من الغزالين والنساجين والكباسين والصباغين والطباعين من الأهالى الوطنيين(٥١) .

٣ — مصنع الطرابيش بفوه : وهو من انفع المصانع لما قام به من سد احتياجات الجيش من الطرابيش ثم يباع الفائض للجماهير . وكان ينتج ستين دستة طرابيش يوميا .

٤ — الطباعة : حيث أسست مطبعة (صاحب السعادة) سنة ١٨٢٠ م وبدأت عملها سنة ١٨٢٢ وعرفت باسم مطبعة بولاق الأميرية ، وكانت تطبع الوقائع المصرية ، والكتب المدرسية ، وأرسلت الحكومة البعثات لتعلم صناعة طبع الكتب بالخارج .

٥ — فابريقة مالطة ببولاق : بالاضافة الى مهمتها فى صناعة غزل القطن ونسجه كان بها ورش من سائر الحرف ويعمل بها متخصصون فى اصلاح آلات مصانع الغزل بالوجهين البحرى والقبلى :

وغير ذلك من صناعات مثل المبيضة (لطبع الأقمشة) ، ومصنع الجوخ ببولاق ومصنع الحبال ومصانع نسـيج الكتان ومعمل لسبك المعادن ومصنع لألواح النحاس ومصـانع النيلة ومصانع السكر .... الخ .

وقد اعتمد محمد على فى تمويل صناعاته على الطرق الآتية :

١ ـــ ربح التجارة والاحتكار ، أو من المشروعات الصناعية القائمة .

٢ ـــ الضرائب والقروض الاجبارية ، والاستيلاء المباشـر على الموارد ، والالتجاء الى السخرة(٥٢) .

الصـــناعة أيام حكم عباس باشـا :

لم يثق فى قدرات المصريين وكفايتهم فغلب عنده العنصر العثمانى والالبانى ، كما لم يثق أيضا فى المدنية الغربية لأنه لم يعرف كيف يأخذ منها ما يلائم الطبيعة المصرية واحوالها كمجتمع اسلامى وانعكس ذلك على سـياسته نحو الأجانب فى مجال الصناعة ، هؤلاء الأجانبالذين ساهموا فى النهضة الصـناعية الصناعة ، هؤلاء الأجانب الذين ساهموا فى النهضة الصناعية التى بداها محمد على ، فعمل على اخراجهم من مصر بصـورة افضت الى توقف معظم المشروعات الصناعية التى بذل فيها جده جهدا كبيرا فى اقامتها(٥٣) .

ولعل الامتياز الوحيد الذى منحه عباس فى أيام حكمه كان لاحدى الشركات البريطانية لمد خط السكة الحديد بين القاهرة والاسكندرية ، والقاهرة والسويس(٥٤) . ليس هذا فقط ، بل انه لم يحاول الاستفادة من كثير من المصريين الذين اكتسبوا الكثير من اصول المدنية ، وكان يمكن ان يفيدوا البلاد بعلمهم وخبرتهم(٥٥).

غير أن البعض يصف سياسة عباس الاقتصادية، بأنها سياسة قومية لأنه اقفل المصانع فى ضوء تحديد عدد أفراد الجيش ، ورأى أن وجود معظم المصانع اسراف لا مبرر له ، كما ان حرية التجارة وترك الباب مفتوحا للواردات الأجنبية جعل من العسير الاستمرار فى الانتاج الصناعى الكبير ، اذ ان تكاليف انتاج المصنوعات فى مصر اصبحت اغلى من ثمن تلك المصنوعات فى السوق المصرية نفسها ونظيرتها المستوردة من الخارج ، كما أن استبعاد الأجانب قد أدى الى اختلال ادارة المنشآت الصناعية والسير بها الى نهايتها(٥٦) .

وفى مقابل الصناعات الكبيرة والحديثة اخذ عباس باشا فى تشجيع نظام الطوائف لما فيه خير الصناعات الصغرى ولما تتطلبه من أموال محدودة قابلة للتقدير والتعيين ، فمشاريعه كانت صغيرة تساير موارد مصر ، وعمل عباس على تشجيع المصارف الى حد ضيق ، فقامت الصيارف بعمليات القروض دون خوف أو وجل ، لذا كانوا فى اعمالهم ممهدين لانتشار البنوك فى مصر(٥٧) .

وساءت أحوال البحرية فى ايام حكمه ، واشتغل أكثر ضباطها وملاحيها فى اقامة الجسور بالخطوط الحديدية ومد أسلاك التلغراف وغيرها(٥٨) .

بيد أن القتال بين تركيا وروسيا سنة ١٨٥٣ جعل السلطان عبد الحميد يطلب من عباس امداده بجنود واساطيل ، فأمر عباس احمد بك مدير الترسانة ان يبدأ فى صناعة بعض السفن لمساعدة السلطان فعاد النشاط مرة اخرى للترسانة واستمر انعاشها حتى سنة ١٨٥٦ م فى ايام حكم سعيد باشا .

كما الغى عباس وابطل مصانع الغزل والنسيج بالوجه القبلى حتى بنى سويف لاقتصاد مصاريف نقل القطن اليها وأمر بانتخاب ٥ آلاف عامل من هذه المصانع الملغاة ليلتحقوا بالخدمة العسكرية(٥٩) . وخطأ عباس فى هذا يعود الى :

١ — ربح صناعة الغزل والنسيج الذى بلغ ١٠٠٪ فى عهد محمد على يعوض مصاريف نقل القطن الى الوجه القبلى .

٢ — كان عليه تشجيع زراعة القطن بالوجه القبلى .

أما الطباعة فى أيام حكم عباس فقد كان عدد عمال المطبعة ١٦٩ عاملا أصبحوا فى آخر أيام حكمه ١٠٣ فقط ، غير أنها كانت احسن حالا فى عهده عنها فى عهد سعيد . وبالنسبة لمطبعة المهندسخانة فعلى الرغم من ميل عباس الى اغلاق المدارس التى تأسست فى عهد جده فقد ظلت المهندسخانة مفتوحة وكذلك مطبعتها وعين على مبارك ناظرا لها سنة ١٨٤٩ م فجدد آلاتها ومعداتها(٦٠) .

الصناعة ايام حكم سعيد باشا :

تأثر سعيد بالبيئة المصرية مما جعله ينظر الى مختلف المصريين على أنهم مواطنون تنتظمهم قومية واحدة ، لا مجرد رعايا كما كان الحال فى عهد والده(٦١) ، وامتاز بعطف شديد على المصريين(٦٢) ، وعمل منذ بداية حكمه على الاصلاح الهادىء وشملت اصلاحاته الأرض وملكيتها للمصريين وحرية التجارة ، وزاد عدد الجيش وزاد عدد المصريين فيه وسمح لهم لأول مرة بالترقى الى رتب الضباط(٦٣) .

وكان سعيد صديقا للأجانب شديد الثقة بهم حتى أنه أمر

بمعاملتهم مثل الاهالى من رعايا الحكومة المحلية ، وصرح لهم بشراء أطيان من الأهالى لبناء مصــــانع لحلج القطن عليها ، فتضاعفت الجاليات الأجنبية فى عصره ، ويقول قنصل الولايات المتحدة فى مصر « ان شوارع القاهرة والاسكندرية كانت تموج وقتئذ بأخلاط غريبة من الأجانب وفدوا من كل فج عميق وتعددت جنســــياتهم ولغاتهم وعاداتهم(٦٤) ورغم ذلك لم يكن لهم دور فعال او مساهمة كبرى برؤوس أموالهم فى احياء الصناعة بمصر فى عهده ، صحيح أنه فى عهد سعيد لم يكن من مقدرة مصر أن تحاول احياء مشروع نهضتها الصـــناعية ، وذلك لأن الأراضى الزراعية استنفدت جهود غالبية المصريين ، وان صدمة معاهدة ١٨٤١ م أعجزت مصر عن الوقوف أمام منافسة الصناعات الأوربية علاوة على أن الأهالى قد فقدوا روح المنافســـة فى المجـــال الصناعى بسبب سياسة الاحتكار التى اتبعها محمد على .

— ومن مظاهر الاهتمام بالنشاط الصناعى المحدود أيام حكم سعيد باشا احياء البحرية المصـــرية بعد اضمحلالها ، حيث أصلحت السفن الحربية بعد عودتها من القرم ، كما تم انشاء سفن جديدة(٦٥) ، وبدأ فى صناعة المراكب والصنادل والحق بالترسانة ماكينة لصناعة الحبال والخيوط ، لكن انجلترا اوغرت صـــــدر السلطان بأن قوة اسطول مصر خطر عليها ، فأمر سعيد بالكف عن انشــــاء السفن الا بأمر منهم ، فاضمحلت القوة البحرية المصرية(٦٦) ، لكن سعيد عنى بالملاحة التجارية وشـــجع على انشاء شركتين للملاحة : احداهما للنقل المائى الداخلى ، والأخرى للنقل المائى الخارجى(٦٧) .

ورغم أن مصر لم تكن فى حرب ولم يكن لدى سعيد رغبة فى ذلك ، فان صـــناعة الســـلاح نشـــطت خاصة وتمت طلب

السلطان مساعدته فى حرب القرم ، فاستطاعت مصـــر انتاج بندقية متطورة وقتها تعرف باسم **التشــــخانة** بورش الحوض المرصود ، كما نشطت صناعة البارود والسيوف .

الصـــــناعة فى عصـــــر اسماعيل :

اهتم الخديو اسماعيل بالصناعة ، فأعاد النشاط الى ترسانة الاسكندرية مثلما كان فى عصر محمد على ، وأعاد الاهتمام بشئون التعليم البحرى ، فجدد المدرسة البحرية بالاسكندرية ، وأنشأ مدرسة بحرية اخرى بجوار الترسانة واحضر لها المدرســـــين الأكفاء من مصر والخارج ، وعهد بنظارتها الى ضابط انجليزى يدعى مكيلوب باشا ، واختار تلاميذها من المجدين من طلبة المدارس الأميرية والابتدائية ، وكانت تدرس فيها الفنون والعلوم البحرية ، ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات(٦٨) ، وفى هذه المدرسة تخرج اسماعيل باشا سرهنك مؤلف كتاب حقائق الأخبــــار عن دول البحار(٦٩) .

وتشجيعا للصناعات البحرية فى مصر أمر الخديو بالحاق حديثى الســـن الذين يضبطون بسرقات الى ترسانة الاسكندرية حتى يتعلموا الصناعات فيها ، كما شجع انبعاث المصريين الى الخارج ليتقنوا هذه الصناعات .

كما اهتم الخديو بالصــــناعات الحربية التى كانت أكثر مصانعها قد اغلقت فجدد مصانع الحوض المرصود للمدافع والآلات الحربية ، ومصانع اعداد مهمات البنادق ومصانع الأسلحة فى طره ومصانع البارود حيث أمر بشـــراء المكابس اللازمة لكبس البارود ، علاوة على الصــــناعات المدنية كحلج وكبس القطن والغزل والنسيج والسكر والطباعة وصناعة الورق ، فقد اعتنى

اسماعيل بمطبعة بولاق ، واشترى لها الآلات الحديثة من الخارج واستدعى الخبراء والفنيين الأجانب لتعليم المصريين ذلك الفن ، وتم التوسع فى الطاقة الانتاجية للمطبعة لتلبى احتياجات الحكومة وجميع كتب وزارة المعارف العمومية باللغتين العربية والتركية وكذلك اللغات الأوروبية .

وبجانب مطبعة بولاق كانت هناك مطابع أخـــــرى اهلية وحكومية .

وخلاصة الامر ان الخديو حاول أن يقيم صـــناعات حديثة ومتطورة ، لكنها اما ان تكون ملكا خاصا له كمصانع الســــكر وغيرها ، واما أن تكون ملكا للحكومة مثل الصـــــناعات الحربية والمحالج والغزل والنسيج التى امتلك اسماعيل جزءا منها ايضا ، غير أن فشل الحكومة فى ادارة بعض هذه المصــــانع فى فترة قصيرة جعلت الخديو يبيعها كمشـــــروعات خاصة . وقد امتلك الأجانب معظم هذه المصانع ، ومن ثم كان العنصــــر الوطنى فى الصناعة ضئيلا جدا ، وربما يعود ذلك ايضا الى قسوة الضرائب على الوطنيين فى حين كان الأجانب يتهربون منها ، وكذلك الفقر الفنى للمصريين فى الصناعة وذلك مقابل براعتهم فى الزراعة ، وهذا ما جعل اسماعيل يتجه نحو الصناعات وثيقة الصـــــلة بالزراعة كالسكر والغزل والنسيج وعصر الزيوت وغيرها .

لكن هذا لا يعنى أن عصــر اسماعيل لم يســـهم فى تطوير الصناعة المصرية ، فعلى الأقل هيأ المجتمع لمواكبة العصر ومجاراة التقدم الصناعى دوليا .

الراســـمالية الأجنبيـــة فى مصـــر :

أدى انهيار نظام الاحتكار الى فتح مصر على مصـــراعيها أمام الهجرات الأوربية فزاد عددهم من ثلاثة آلاف سنة ١٨٣٦ م الى ٦٨ الفا سنة ١٨٧٨ م ووفرت لهم الامتيازات الاجنبيـــة (الاعفاء الضريبى والمحاكمات الخاصة) بالاضـــافة الى الميول الخاصة بسعيد باشا والخديو اسماعيل نحوهم مما ســاعدهم على استثمار أموالهم حتى سيطروا على معظم تجارة مصـــر ، وصاحبت تلك الفترة فى مصر نمو الراسمالية العالمية فى مرحلتها الثانية .. اذ من المعروف أن الراسمالية الأوربية نشأت فى أواخر القرن ١٥ كرأسمالية تجارية حاولت خلالها الدخول الى مصـــر حيث كانت انجلترا البادئة من خـــلال معاهداتها مع المماليك بمصر(٧٠) حتى القرن ١٩ حيث حدثت الثورة الصناعية ، وهنا انتقلت الراســـمالية الأوربية الى مرحلتها الثانية وهى مرحلة الراسمالية الصناعية الثانية التى استمرت حتى النصف الثانى من القرن ١٩ حين حدثت الثورة الصناعية الثانية فى أوروبا وأمريكا. فاذا كان اكتشاف البخار واستخدامه فى الصناعة أحدث الثورة الصناعية الأولى فان استخدام الصـــلب والكهرباء أحدث الثورة الصناعية الثانية التى ادت الى الانتاج الصناعى الهائل ، كما ادت الى فائض راسمالى يمكن تصديره واستغلاله فى الخارج .

وعندما أصبح انتاج مصر الزراعى من القطن يخدم بصـــفة أساسية مصانع القطن فى انجلترا ، أصبحت مصـــر جزءا من الراسمالية الأوربية فى مرحلتها الصناعية .

لكن الغالب أن الراسمالية التى دخلت مصر وبسطت نفوذها فيها هى الراسمالية المالية وذلك واضح من خلال الأشـــكال التالية :

١ ــ الشركات الزراعية والتجارية التى تألفت فى مصــــر فى عصر اسماعيل كان حوالى ٩٦٪ من رأسمالها اوروبيا ، والباقى مصرى موزع بين الخديو والاتراك ، وهذا يعنى ان نشــــأة الرأسمالية العميلة (الكمبرادور) ترجع الى أواخر القرن ١٩ .

٢ ــ شركات الملاحة وفى مقدمتها شركة قناة السويس .

٣ ــ البنوك وفى مقدمتها البنك العثمانى ورأسماله فرنسى بصـــــفة خاصة .

٤ ــ القروض ذات الفوائد العالية .

وبلغ من قوة نفوذ رأس المال الأجنبى فى مصر انه تمكن من عزل اسماعيل عندما اراد الوقوف فى مواجهته(٧١) .

الصــــــناعة والتعــــليم :

اهتمام محمد على بالصناعة وعدم وجود القوى البشرية الفنية القادرة على القيام بأعبائها ، اضطرته الى استدعاء الفنيين الأجانب الذين عهد اليهم بمهمة مزدوجة : ادارة العمل ، وتعليم عدد من الشبان المصريين فنونهم ، فكان يلحق بالمصانع الأجنبى فريقا من الشبان المصريين ليعلمهم فى وقت محدد نظير مكافأة خاصة .

كما أرسل عددا كبيرا من المصريين الى اوروبا فى بعثات لخدمة الصناعات فى مهدها(٧٢) .

فالملاحظ أن المصانع التى اقيمت فى عصر محمد على كانت فى نفس الوقت مدارس لتعليم الصناعات التى اراد ادخالها الى مصر ليعود المصريين على الصناعة ، حيث قال لبورنج : « ان

هدفنا ليس تحقيق الأرباح وانما صبغ الشعب بالصبغة الصناعية »(٧٣) .

وتسهيلا لقيام المصانع بمهامها كمدارس انها وضعت تحت اشراف ديوان المدارس .

كما بذل محمد على المكافآت لجذب المصريين الى الصناعة ، كما يذكر ذلك الجبرتى « جمعوا مشايخ الحارات والزموهم بجمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى الصناع ويتعلموا ويأخذوا اجرة يومية ويرجعوا لأهليهم اواخر النهار »(٧٤) .

كما أمر بالحاق فريق من تلاميذ مدرسة قصر العينى بمصانع الحكومة لتعلم الصناعات تحت اشراف الصناع الأجانب . وكان محمد على يظهر الاحترام لأهل الصناعة وينعم عليهم بالعطايا ، وأجلس رؤساءهم فى مجلس المشورة .

وقد أنشأ محمد على مدارس صناعية يتعلم فيها التلاميذ مختلف الصناعات ، والغرض منها تخريج رؤساء من الصناع الحاذقين مثل :

١ — مدرسة الكيمياء سنة ١٨٣٠ لتعليم صناعة الكيمياء تحت صانع أجنبى يدعى ايوون .

٢ — مدرسة المعادن لتخريج متخصصين فى استخراج المعادن ارسل بعض تلاميذها الى سوريا والنمسا لاتمام دراستهم .

٣ — مدرسة العمليات أو الفنون والصناعات ببولاق ، وكانت تدرس فيها الخراطة والبرادة والحدادة والنجارة وبعض العلوم(٧٥) . وفى عصر الخديو اسماعيل اعيد تأسيس مدرسة الفنون والصنائع التى عرفت باسم مدرسة العمليات سنة ١٨٦٨

فى حى المصانع ببولاق بغرض اخراج الفنيين ، ومنهم مهندسو الوابورات البرية والبحرية وسائقوها وعمال مصلحة السكك الحديدية ، واشرف عليها خبير فرنسى هو جيجون بك والذى قام بتأليف معجم فرنسى انجليزى عربى للمصطلحات الفنية التى لم تكن شائعة أفاد منه كل ذى فن وصناعة(٧٦) وبلغ عدد التلاميذ بها سنة ١٨٧٩ ٥٧ تلميذا كان يخصص جزء من ثمن منتجاتهم لهم كى يبدأوا حياتهم الجديدة بعد خمسة أعوام من الدراسة بالمدرسة وكان بعضهم يرسل الى بعثات بالخارج للاستزادة فى تعلم الصناعات(٧٧) . وازدهرت تلك المدرسة والحق بها مطبعة لتدريب الطلاب على فن الطباعة(٧٨) .

٤ — مدرسة التلغراف سنة ١٨٦٨ والحقت بمدرسة الفنون والصنائع .

٥ — فرقة النقاشة سنة ١٨٦٩ م .

٦ — كما قرر ديوان المدارس انشاء مدرسة صناعية يلتحق بها تلاميذ المدرسة الابتدائية الذين لا يتمكنون من متابعة الدراسة فى المدارس التجهيزية بسبب بلادة الذهن ، وافتتحت سنة ١٨٧٥ وكان بها خمس ورش وبدأت بثلاثين تلميذا غير أنها نقلت الى مدرسة الفنون والصنائع سنة ١٨٧٩(٧٩) .

٧ — فرقة عمليات المرور ، تأسست سنة ١٨٧٠ .

التجارة وانقسمت الى :

١ — التجارة الداخلية :

انعكست سياسة الاحتكار على التجارة فأصبحت تجارة مصر الداخلية عن طريق الحكومة حيث احتكرت تجارة الغلات الزراعية : شراءها وبيعها ونقلها وتخزينها فى الشون الأميرية

ثم اجبار المزارعين على شراء ما يحتاجون اليه من تلك الشون . وكان الاحتكار اما جزئيا واما كليا(٨٠) . وطبقت الحكومة الاحتكار لأول مرة سنة ١٨١٢ حيث احتكرت الأرز والكتان والنيلة وبذرة السمسم وقصب السكر والقطن .

كما طبقت الحكومة سياسة الاحتكار على المنتجات الصناعية الصغيرة كالمنسوجات والحصير وعصر الزيوت ... فكانت الحكومة تعطى الصناع المواد الأولية وتشترى منهم المنتجات ثم تعود فتبيعها للمستهلك بالثمن الذى تحدده . فتحول الصناع الى مجرد اجراء . اما الصناعات الكبيرة فكانت ملك الحكومة . وبعد معاهدة سنة ١٨٤١ تم الغاء الاحتكار ، ورغم ذلك ظل الفلاح مقيدا حيث ان حريته فى بيع محصوله مربوطة بدفعه الضرائب التى كانت تحطها الحكومة عينا او نقدا . ولذلك عندما قرر سعيد باشا تحصيل الضرائب نقدا بدا الفلاح يشعر بحقيقة حريته فى بيع محاصيله ، ومثلما اضرت سياسة الاحتكار بالفلاح والحرفى اضرت بالتاجر الذى كان له شأن كبير ما لبث أن تدهور .

وكانت أهم مراكز التجارة الداخلية فى مصر ايام حكم محمد على الاسكندرية ، ورشيد ، ودمياط ، وطنطا ، والقاهرة .

وفى عهد سعيد باشا تقرر تحصيل الضرائب نقدا وابطلت الشون وتم الغاء الاحتكارات التى فرضها عباس ، وبذلك صارت التجارة الداخلية حرة من كل قيد(٨١) .

أما فى عصر اسماعيل فقد فتحت الشون الأميرية فى الوجه القبلى وحددت سعر الشراء على أن تخصم الضرائب عينيا لمن يرغب .

ونظم اسماعيل عملية بيع القطن فى حلقات يحضرها معاون وقبانى وعلى راسهم شيخ خبير بالمهنة ، ويتم تسجيل عمليات البيع والشراء فى دفاتر حكومية على ان يتم تحصيل اجرة معينة لهذه العملية .

٢ ــ التجــارة الخــارجية :

ادت سياسة الاحتكار على التجــارة الداخلية الى احتكار الحكومة ايضا لتجارة الصــادرات ، اما تجارة الواردات فكانت سـيطرتها عليها اقل مما دفعها الى زيادة الرســوم الجمركية على الواردات . لكن يبقى ان الحكومة نفسها كانت اكبر مستورد فبلغت وراداتها ٤٠٪ من جملة واردات مصر سنة ١٨٣٦ بسبب استيراد ما تحتاج اليه مصانعها وبناء السفن ومشروعات الرى . وكانت الحكومة تبيع بالطرق الآتية :

(أ) البيع للتجار الأجانب مباشرة داخل مصــر بحكم استحواذها على معظم المنتجات وسيطرتها على طرق ووسائل النقل الداخلى .

(ب) البيع فى الخارج لحساب الحكومة .

(جـ) البيع بالنسئية اى اخذ الأموال من التجــار مقــدما واعطائهم المحاصيل عند حصادها .

(د) البيع بالمزاد(٨٢) .

وقد ساعدت الحرب الأهلية الأمريكية فى زيادة صادرات مصر الخارجية ، لكنها عادت وانخفضت بعدها .

ورغم ان تركيا كانت أولى من حيث العــلاقات التجارية فانه ومنذ منتصف القرن ١٩ تفوقت انجلترا فى هذا المجال بسبب

تقدم الصناعات القطنية الانجليزية ، ومن ثم قدرتها ، أكثر من غيرها ، على استيعاب محصول القطن المصرى(٨٣) .

٣ — التجارة العابرة بين الشرق والغرب عبر مصر والتى اخذت تزداد أيام محمد على بسبب استتباب الأمن وتيسير طرق المواصلات البرية فقدرت عائداتها سنة ١٨٤٠ بـ ١٠ ملايين جنيه علاوة على قوافل الحجاج من شمال افريقيا الى مكة والتى أدت زيادتها الى ضرورة انشاء السكة الحديد من القاهرة الى السويس ومن القاهرة الى الاسكندرية .

أما بعد افتتاح قناة السويس فقد زادت حركة التجارة العابرة كثيرا(٨٤) .

اثر التحولات الاقتصادية على القوى الاجتماعية فى مصر فى القرن ١٩ :

١ — احتلت اسرة محمد على والعناصر الموالية لها من الأتراك والشركس قمة الهرم الاجتماعى خاصة بعد مذبحة القلعة والقضاء على المماليك ، والغاء الالتزام وحرمان الباقى منهم من نفوذهم الاقتصادى .

٢ — تراجع الدور السياسى لعلماء الأزهر خاصة بعد تجريدهم من قوتهم الاقتصادية بمصادرة الأوقاف والالتزامات التى كانت بأيديهم(٨٥) .

٣ — ظهور شريحة اجتماعية جديدة من المثقفين الذين شكلوا نواة الجهاز البيروقراطى فى الدولة والذين أتيح لمعظمهم ، خاصة فى ظل ظروف التحديث وحاجة الدولة اليهم ، والتمتع بنفوذ اجتماعى وثراء مادى كبيرين . هذه الشريحة بحكم ما تلقته من تعليم وثقافة كانت المحرك الأول للنهضة كما رسمته الدولة فى

اغلب الأحيان ورغم صرامة الدور الذى صاغته لها الدولة فقد نجحت هذه الشريحة على المدى البعيد فى نشر الثقافة والعلوم العصرية ، واسهمت فى زيادة الوعى السياسى والثقافى فى البلاد وخير نموذج لذلك الطهطاوى وعلى مبارك(٨٦) .

٤ — الضعف التدريجى لطوائف الحرف على اختـــلاف شرائحهم وذلك ربما يرجع الى سياسة الاحتكار التى حوات معظم الصناع والحرفيين الى مجرد اجراء او بسبب ارتباط مصر بالسوق العالمية وما ترتب على ذلك من عدم القدرة على منافسة الأسواق العالمية(٨٧) .

٥ — ترتب على توزيع الملكية الزراعية ، بدءا من الخطوط الأولى فى عصر محمد على مرورا باللائحة السعيدية سنة ١٨٥٨ ثم قانون المقابلة فى عصر اسماعيل سنة ١٨٧١ ، ترتب على ذلك ظهور طبقة جديدة من كبار الملاك الزراعيين ، ضمت الى جانب الأرستقراطية التركية كبار اعيان الريف المصرى ، وقد تزايد نفوذ هذه الطبقة على حساب الفلاحين بمختلف شرائحهم ومن يقعون فى اسفل الهرم الاجتماعى(٨٨) .

٦ — تزايد الاعتماد على الأجانب بشكل ملحوظ منذ عصر محمد على ثم ازدياد تدفقهم على مصر بعد معاهدة سنة ١٨٤٠ وارتباط مصر باقتصاد السوق الذى وصلت ذروته فى عصـــــر اسماعيل والذى تمخض فى نهايته عن عزله والمساهمة فى بلورة وعى سياسى نهضوى جديد مما يدفع لوقفة بحثية تتأمل نهضة الفكر السياسى وتعرجاته فى القرن ١٩ .

هوامش الفصـل الرابع

(١) راشد البراوى ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٦٤ .

(٢) المورد ٩٠ ، منير البعلبكى ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ســنة ١٩٩١ ، ط ٢٤ .

(٣) محمد أنيس ، دراسة فى المجتمع المصرى من الاقطاع الى الاشتراكية ، الكاتب العدد ٥١ يوليو ١٩٦٥ ، ص ص ٣٩ — ٥٠ .

(٤) محمد فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٢١٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص ٢٣١ .

(٦) مصطفى التونى ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٤ ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٧) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٩٥ .

(٨) أحمد عزت عبد الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٢٤٧ .

(٩) بيان بالترع الرئيسية التى اعتمدت عليها الزراعة بالوجهين البحرى والقبلى فى هيلين آن ريفيلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر ، مرجع سابق ، صفحات ٣١٠ — ٣٤٢ وكذلك عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع ص ٤٨٨ — ٤٨٩ .

(١٠) عبد الرحمن الرافعى ، عصـــر محمد على ، مرجع ســابق ، ص ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩١ .

(١١) هيلين آن ريفيلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر ، مرجع سابق ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(١٢) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، حـ ١ ، دار المعارف ، ط ٤ ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م ، ص ٣٢ .

(١٣) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

(١٤) عبد الرحمن الرافعى : عصر محمد على ، مرجع سابق ، صفحة ٤٩٧ — ٤٩٨ .

(١٥) احمد احمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ — ١٤٣ .

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٢٨ — ١٢٩ .

(١٧) عبد الرحمن الرافعى ، عصر اسماعيل ، حـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٦ .

(١٨) محمد فؤاد شكرى ، بناء دولة مصر ، محمد على ، مرجع سابق ، ص ٧٦٤.

(١٩) هيلين آن ريفيلين ، الاقتصاد والادارة ، مرجع سابق ، ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢٠) محمود متولى ، الاصول التاريخية للراسمالية المصرية وتطورها ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(٢١) هيلين آن ريفيلين ، الاقتصاد والادارة ، مرجع سابق ، ص ٩١ — ٩٢ .

(٢٢) الكسندر شولسن ، مصر للمصريين ، تعريب رؤوف عباس ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٤٣ .

(٢٣) احمد عزت عبد الكريم ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ .

(٢٤) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٤٨ .

(٢٥) على الجريتلى ، تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ م ، ص ٦٦ .

(٢٦) Shaes Issawi, The Economic History of the Middle East, 1800 — 1917, The Universtiy of Chicago, Press 1966, P. 384.

(٢٧) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٤٨٦ .

(٢٨) هيلين آن ريفيلين ، الاقتصاد والادارة فى مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٨٢ .

(٢٩) أمين مصطفى عفيفى ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، ط ٣ ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ ، ص ٢٣٥ .

(٣٠) حسين خلاف ، التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٣١) نهضة مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٩ — ٣٣ .

(٣٢) الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، مرجع سابق ، ص ٩٥٥ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ .

(٣٣) المرجع السابق ص ٩٤٩ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٩٧١ .

(٣٥) جاد طه ، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ ، ص ١٢٨ .

(٣٦) عبد العظيم رمضان ، صراع الطبقات فى مصر ١٨٣٧/١٩٥٣ ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨ ، ص ١٢٩ .

(٣٧) شحاتة عيسى ابراهيم ، الكتاب الأسود للاستعمار البريطانى فى مصر ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٦٥ ، ص ٢٣ .

(٣٨) نوال قاسم ، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد جمال عبد الناصر ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ ، ص ٤٠ .

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٤٠) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، ج ٢ ، تعريب محمد مسعود ، مرجع سابق ، ص ٤٥٢ — ٤٥٣ .

(٤١) المرجع السابق ، ص ٤٥٢ .

(٤٢) الجبرتى ، تاريخ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٣ ، مرجع سابق ، ص ٢٧٨ .

(٤٣) الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٢٦ .

(٤٤) نوال قاسم ، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد جمال عبد الناصر ، مرجع سابق ، ص ٤٣ .

(٤٥) اسماعيل باشا سر هنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(٤٦) ابراهيم مصطفى ، فضل محمد على على مصر ، مطبعة العلوم بشارع الخليج ، القاهرة ، ١٩٤٦ م ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤٧) نوال قاسم ، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد جمال عبد الناصر ، مرجع سابق ، ص ٤٤ .

(٤٨) ابراهيم مصطفى ، فضل محمد على على مصر ، مرجع سابق ، ص ٣٤ .

(٤٩) تفصيلا انظر الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٥٠٥ / ٥٠٨ .

(٥٠) المرجع السابق ، ص ٥٠٧ .

(٥١) كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، مرجع سابق ، ص ٤٤٨ .

(٥٢) حسين خلاف ، التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، مرجع سابق ص ١٨٤ .

(٥٣) رأفت غنيمى الشيخ ، مصر والسودان فى العلاقات الدولية ، ط ٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٦٥ .

(٥٤) الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٢ — ١٣ .

(٥٥) راشد البراوى ومحمد حمزه عليش ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مطبعة السعادة بمصر ، سنة ١٩٤٩ م ، ص ٩١ .

(٥٦) محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٤ م ، ص ٢٠١ — ٢٠٢ .

(٥٧) المرجع السابق ص ٢٠٣ — ٢٠٤ .

(٥٨) اسماعيل باشا سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ﺣ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٩ — ٥٠ .

(٥٩) تفصيلا أنظر الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٥٠٥/

(٦٠) خليل صابات ، تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٨١ .

(٦١) مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) فى القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٥ م ، ص ٥٠٥ .

(٦٢) راشد البراوى وآخر ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، مرجع سابق ، ص ٩٢ .

(٦٣) رأفت غنيمى الشيخ ، تاريخ العرب الحديث ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥م ، ص ٦٦ .

(٦٤) عبد العزيز محمد الشناوى : السخرة فى حفر قناة السويس ، ط ٢ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، سنة ١٩٦٦ م ، ص ١١ .

(٦٥) اسماعيل باشا سرهنك ، حقائق الأخبار ، ﺣ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٧ .

(٦٦) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، مرجع سابق ، ص ٣٣ .

(٦٧) محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

(٦٨) جميل خانكى ، تاريخ البحرية المصرية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٨ ، م ص ٣٧٠ .

(٦٩) اسماعيل باشا سرهنك ، حقائق الأخبار ، ﺣ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٨٤ .

(٧٠) محمد انيس ، المجتمع المصرى فى ظل الاقطاع ، مرجع سابق ، ص ص ٣٩ — ٥٠ .

(٧١) المرجع السابق ، ص ٢٩١ .

(٧٢) احمد عزت عبد الكريم ، التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٧٧ .

(٧٢) عن أنور عبد الملك ، نهضة مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٣ .

(٧٤) الجبرتى ، عجائب الآثار ، مرجع سابق ، حـ ٤ ، ص ٣١٢ .

(٧٥) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٨١ .

(٧٦) جال تاجر ، حركة الترجمة بمصر ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

(٧٧) صالح رمضان ، الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر اسماعيل (١٨٦٣/١٨٧٩) منشأة المعارف ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٧ ، ص ١٩٨ .

(٧٨) اميل فهمى حنا شنودة ، تاريخ التعليم الصناعى حتى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ ، ص ١٥٠ .

(٧٩) اميل فهمى حنا شنودة ، تاريخ التعليم الصناعى حتى ثور ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ : مرجع سابق ، ص ١٥٠ .

(٨٠) احمد احمد الحته ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٢٧٧ .

(٨٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ .

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

(٨٤) أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٣١٤ .

(٨٥) محمد أنيس ، السيد رجب حراز ، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٧١ ، ص ١١٠ .

(٨٦) أحمد عزت عبد الكريم ، حركة التحول فى بناء المجتمع القاهرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، حـ ١ ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ ، ص ١٥٦ .

(٨٧) ج ، بير ، دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة عبد الخالق لاشين وعبد الحميد فهمى الجمال ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٧٦ ، ٣٠٣ .

(٨٨) على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ م حتى ١٩١٤ م وأثره على الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧ ، ص ١٥٤ .

الفصـــــل الخـــامس

أثر الفكر السياسى فى الحركة المجتمعية

ثمة اختلاف حول تحديد مفهوم الدولة وتخصيصه فى مصر سياسيا ، **فهناك أولا :** من يعرف الدولة بالمفهوم التاريخى العام وذلك بربطها بفكرة المركزية والسيطرة على الاقليم وتسيير شئونه ومن ثم تعود فكرة الدولة فى مصر الى عصر الفراعنة ، حيث ارتبطت ارتباطا وثيقا بتدبير نظام الرى الصناعى فى البلاد . بل ربما كانت مصـــر والصـــين بهذا المفهوم هما اقدم الدول فى العالم .

وهناك ثانيا : من يربط مفهوم الدولة بالافـــكار القانونية الخاصة بالسيادة وتحطيم أو اخضاع « المنظمات الوسيطة » واعتماد مبدأ المواطنة (بدلا من الهوية العرقية أو الدينية) بما تفترضه من مساواة بين أفراد الوطن فى مجالات من قبيل جمع الضرائب وفرض التجنيد ، ومن ثم يعود مفهوم الدولة فى مصـــر عندهم الى عصر محمد على بانى الدولة الحديثة فى مصر .

وهناك ثالثا : من يتناول مفهوم الدولة من منظور « الاقتصاد السياسى » فيرى فى الدولة تعبيرا قانونيا وسياسيا عن مرحلة التطور الرأسمالى والرغبة فى توحيد الأســـواق وتحويل العمل

الى سلعة (عن طريق تطبيق مبدأ الفردية والتعامل النقدى) ومن ثم يحدد تاريخ الدولة فى مصر تحديدا حديثا نسبيا ويرجعه الى فترة ما بين الحربين العالميتين ومحاولة الراسمالية المصرية (الراسمالية الخاصة أولا ثم راسمالية الدولة فيما بعد) لتأكيد سيطرتها على السوق المصرية وعلى عملية اعادة انتاج القوة العاملة وعلاقات الانتاج . الدولة هنا تأخذ مفهوم السوق الموحد ، ذى الاقتصاد النقدى والقوة العاملة المؤجرة وجهاز السلطة الذى يسعى الى تحقيق استقلالية رمزية عن مصالح الفئات الراسمالية المباشرة(١) .

ومن بين هذه الاختلافات يميل الباحث الى تحديد مفهوم الدولة سياسيا فى مصر باعتماد مبدأ المواطنة بالمعنى المدنى بديلا عن العرقية أو الدينية وهو ما تحقق فى مصر فى عصر محمد على .

على ما يبدو فان العلاقة بين الحاكم والمحكوم فى مصر . لم تكن علاقة واضحة يعرف كل منهما حقوقه وواجباته . ويعلل البعض ذلك بأنه ربما يعود الى ان مصر قد حكمت بواسطة جهاز تنفيذى قوى (وطنى او اجنبى) وان انتشار خدمات الحكومة ووظائفها ، كان اكبر من قدرة الجمهور على استيعابه بالسرعة الكافية(٢) كما أنه حقيقة أن مصر لم تشهد حكما مصريا وطنيا لفترة طويلة قد اسهم — على ما يبدو كذلك فى اضفاء خاصية عدم توافق بين الشعب والحكومة ، اذ كان الوضع السائد وباستمرار ، هو وجود اقلية حاكمة غريبة تضطهد الأكثرية .. فخلق هذا — عند غالبية المصريين — ما يمكن ان يسمى بالنظرة اللاسياسية(٣) وهذا ما يوضحه الجبرتى من انصراف العامة عن الأمور السياسية .. فما ان يدب الصراع بين أمراء المماليك ، حتى يعود كل الى بيته مغلقا عليه بابه ، ومنتظرا ما يسفر عنه الصدام !(٤) .

وهكذا فان ميدان السياسة كان مقصورا على القائمين به من الأمراء ، وفى بعض الأحيان كانت تتم الاستعانة بعلماء الأزهر للتوسط بين الأطراف المتصارعة ، ولم يكن للعامة صوت الا بقدر ما يعظم عليهم الأمر ويشتد فى طلب الضرائب(٥) .

وعلى الرغم من أن الدور السياسى لعلماء ومشايخ الأزهر اقتصر على مطالبة الحكام برفع المظالم عن الأهالى ، فانه أثناء الحملة الفرنسية امتد دورهم لتزعم جماهير الشعب فى الثورة على الوجود الفرنسى والتخلص منه تحت راية الوازع الدينى ، علاوة على مساهماتهم فى الرأى فى مسائل الحكم عن طريق الديوان العام الذى أسسه بونابرت والذى يعد نواة لاسلوب ديمقراطى فى الحكم لم تألفه مصر .. غير أن هذه النواة لم تثمر نظاما ديمقراطيا فى عهد محمد على الذى كان — بحكم طبيعة المرحلة التاريخية التى تمر بها مصر من تغيرات جذرية معظم خيوطها فى ذهنه وحده — مستبدا ، وفى نفس الوقت يحكم شعبا لم يعلمه الديوان الفرنسى شيئا من مبادىء الديمقراطية فلم ير فى حكامه سوى مجموعة من الطامعين ، لما رآه من سابق مظالمهم ، وخاصة محمد على الذى لم يألف الشعب ما قام به من تغييرات فى الزراعة والتجنيد والتعليم ..

وعلى الرغم من الحكم الشخصى لمحمد على ، فانه نظم أمور الحكم بشكل يتيح له الاستفادة من خبرات من هم حوله فيكون الديوان العالى(٦) ليتداول مع أعضائه أمور الحكم قبل تنفيذها ، كما ألف لكل فرع من فروع الحكومة ديوانا يختص به ، وكانت تلك الدواوين فروعا للديوان العام .

ثم ألف المجلس العالى سنة ١٨٣٤ من نظار الدواوين ورؤساء

المصالح واثنين من العلماء واثنين من التجار واثنين من ذوى المعرفة بالحساب واثنين من أعيان كل مديرية .

وكانت المجالس السابقة مجالس حكومية تنفيذية ، ثم ألف مجلس المشورة من ١٥٦ عضوا ، ٣٣ من كبار الموظفين والعلماء و٢٤ من مأمورى الأقاليم و٩٩ من كبار الاعيان ، وهو مجلس استشارى ويعد نواة لنظام الشورى فى مصـــر . ومن الجدير بالذكر أن أولى جلساته كانت خاصة بمناقشة أمور التعليم(٧) . وعندما وضع محمد على قانون السياستنامة سنة ١٨٣٧ نظم أمور السلطات وحصرها فى سبعة دواوين .

وســـنة ١٨٤٧ ألف ثلاثة مجالس جـــديدة هى المجلس الخصوصى، ومجلســـان عموميان احدهما بالقاهرة ، والآخر بالاسكندرية .

وغلب على تلك الأجهزة الطابع الادارى الحكومى اذ كان هدفها الأساسى تقنين ســياسات محمد على ، واعطاءها طابع المشروعية وملاحقة من يخرج عليها .

ورغم أن عباس باشا اعاد تأليف المجلس الخصوصى بمقتضى لائحة صدرت سنة ١٨٤٩ ، ليختص بالنظر فى المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين ، فان عهده ، اضافة الى عهد سعيد باشا ، ظلا عهدين للحكم الشخصى الذى يتولاه رجل واحد يقبض على الســـلطات التشـــريعية والقضائية والتنفيذية فى يده(٨) .

وفى عهد الخديو اسماعيل تم انشاء مجلس شورى النواب الذى عرف بمجلس الأعيان ، والذى أفتتح فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ م وقد مرت الحركة الفكرية السياسية داخل ذلك المجلس بمرحلتين :

المرحلة الأولى : وفيها ركز النواب على الشئون الداخلية والشئون العامة .

المرحلة الثانية : وفيها طالب النواب بالغاء قانون المقابلة وطالبوا بحقهم فى الاطـــــلاع على المالية والمطالبة باقرار مبدأ مسئولية الوزراء أمام المجلس(٩) .

فالمجلس هيئة مستقلة عن ولى الأمر ، يشاركه فى الحكم وتحمل المسئولية ، وأعضاؤه متضامنون فى المســـئولية وتؤخذ قراراته بالأغلبية . وتوجيه شئون المجلس من حقوق رئيســــه وليس للخديو أن يراسه(١٠) .

ويعتبر المجلس مظهرا من مظاهر احتماء الخديو بالبورجوازية المصـــرية التى لجأ اليها فى شـــــكل هذا المجلس عندما أخذت التناقضات بينه وبين المصــــــالح والقوى الامبرايالية تزداد وتهدد وجوده ذاته . فاستعان بها لمواصلة نضاله ضدها ، وكان الثمن هو مشاركتها فى الحكم(١١) .

وتبدى ناتج مشاركة البورجوازية فى الحكم ومساندة الخديو فى دورة نوفمبر سنة ١٨٧٦ ودورة فبراير سنة ١٨٧٧ ، عندما رأى الأعضاء ، أنه من اختصاصهم البحث فى مسألة تســـوية الديون . ثم بعد ذلك أخذوا حق معارضة الادارة الأجنبية التى أرغم اســـــماعيل على قبولها . ثم بلغ المد الثورى للبورجوازية ذروة مداه حين أعد أعضاء المجلس بالتعاون مع ضباط الجيش والموظفين والتجار مشروع لائحة وطنية ورفعوها الى الخديو فى ابريل سنة ١٨٧٩ م يطالبون فيها تنقيح لائحة النواب الأساسية النظامية بما يمنح المجلس الحقوق التى للمجالس المثلة له فى أوروبا .

وقد أستجاب اسماعيل ، وقدمت الوزارة الوطنية التى كان يرأسها شريف باشا للمجلس فى ١٧ مايو سنة ١٨٧٩ م ما اعتبر أول مشروع لدستور برلمانى كامل(١٢) .

وهنا ادركت الامبريالية العالمية مدى الخطر على مصالحها من بقاء الخديو فتم خلعه وذلك قبل اصدار المرسوم الخديوى بذلك الدستور .

العوامل التى ساهمت فى بلورة الفكر السياسى فى مصـــر فى القرن ١٩ :

رغم أن السياسة الرسمية للدولة وتوجهاتها فى مجتمع مثل مصر يحكم حكما مطلقا ، تكون من شأن الحكام وحدهم فقط ، فان الفكر السياسى للمجتمع ليس من الضـــــرورى أن ينشأ وينمو ويتبلور فى أحضان هؤلاء الحكام .

فثمة فكر سياسى فى مصر فى القرن ١٩ تمثل فى آراء وتوجهات كوكبة من مفكريها الذين تأثروا — ان سلبا أو ايجابا — بالسياسة الرسمية للدولة ، لكنهم تفاعلوا أيضا وبشكل أساسى مع مجموعة من العوامل ساهمت فى انضاجهم وبلورة فكرهم ، ومن هذه العوامل :

١ — الحملة الفرنسية وثورات المصريين عليها ، حيث جاءت الحملة الفرنسية الى مصر وهى محملة بفكر قومى(١٣) ساعد على تكوينه الثورة الفرنسية والحرب النابليونية ، حيث تكون لأول مرة بفرنسا جيش من الشعب بعد أن كانت الجيوش مجرد منظمات محترفة ، كما وجد لأول مرة علم قومى ونشيد قومى ، كما تحددت القومية فى المطالبة بتأسيس الدول على أسس قومية ، وانعكست هذه الروح القومية على أول منشور اصـــدره بونابرت

بمصر حيث كان باللغة العربية ، وبداه « بسم الله الرحمن الرحيم ، لا اله الا الله ، لا شريك له فى ملكه » . ثم وصف مصر بأنها بلد جميل وانه جاءها لمساندة مبادىء الحرية ، وان الفرنسيين يعبدون الله العظيم ويجلون النبى والقرآن الالهى ، وأن كل الناس متساوون أمام الله ، ولكن العقل والمواهب والمعارف فقط هى التى تشكل الفروق بينهم ، وأن البكوات لا يتميزون عن سائر المصريين فى ذلك حتى — يستأثروا بكل تلك الثروات ، وانه لن يحرم احد من أهل مصر من الوصول الى أرقى الوظائف وأعلى مراتب الشرف . ثم يحث المنشور الجنود الفرنسيين على احترام شعائر المسلمين وأن يتحلوا بالتسامح الدينى .

ورغم ذلك ، فقد كان للاختلاف الدينى أثره فى قيادة العلماء والمشايخ الى الثورة الشعبية ضد الفرنسيين ، مما جعل بونابرت يقرر « ان مركزنا فى مصر تطور الى مشكلة عويصة ، فاما أن نجلو، واما ان نسالم الآراء الدينية السائدة فى مصر »(١٤) .

٢ — استمر تأجج الثورة الشعبية ، وتوثب الروح الوطنية حتى تم تولية محمد على حاكما لمصر باختيار الشعب وممثليه من علماء الدين الذين أملوا عليه شروطهم ، وساندوه وثبتوه فى مواجهة غيره من الطامعين فى حكم مصر ، وكذلك فى مواجهة السلطات العثمانية نفسها .

وعندما بدأ محمد على فى الخروج من تلك الشروط ، ظل بعض علماء الدين — عمر مكرم مثلا — معارضا ومعاديا لمحمد على مما ينم عن يقظة وطنية ، وروح ثورية متوثبة للتحرر والنهوض .

٣ — نشاط الجيش المصرى بدءا من التكوين والزخم المعنوى المساند والمؤيد لذلك التكوين ، خاصة التأييد الدينى الذى سبق

توشيحه ، ثم بعد ذلك الانتصارات المبهرة للجند المصـــريين فى حروب سوريا والاناضول وكذلك مساهماتهم فى حروب السلطنة، واخيرا دورهم فى الفتوحات الأفريقية ومســـاهماتهم فى تكوين امبراطورية مصرية فى الجنوب ، كل ذلك ادى الى تفجر الاحساس بالذات الوطنية ونمو الوعى السياسى .

٤ ــ التعليم المدنى الحديث والبعثات العلمية وكذلك التعليم الدينى بالأزهر وغيره من المساجد كان عاملا مهما فى الاستنارة وتفتيح الأذهان على أحوال البلاد والمقارنة بين ما هى عليه وما يجب أن تكون عليه ، بحيث صار المصريون أرهف حسا وأبعد أملا فى اصلاح ونهضة بلادهم .

٥ ــ الصحافة وخاصة الصحافة السياسية ، سواء منها الرســمى أو الأهلى والتى الهبت المشاعر الوطنية بالدعوة الى الدستور ومجلس للنواب ، خاصة فى الثلث الأخير من القرن ١٩ ، مثل ابو نظارة زرقا ليعقوب صنوع ، والوطن لميخائيل عبد السيد ، وجريدة مصر لأديب اسحق والكوكب الشرقى لسليم الحموى ، والتنكيت والتبكيت للنديم وغيرها والتى عملت تحت ضـــغط محاولات أوروبية استعمارية مستفزة ومستنفرة للمشاعر الوطنية، وفى الوقت نفسه صادفت تلك الحركة الصحفية الناهضة بروز اتجاه اسلامى متأجج تمثل فى الدعوة الى الجامعة الاســلامية كرد فعل للضغوط الأوروبية الاستعمارية وتبنى الكثير من المفكرين لذلك التوجه ، كما قامت بتشـــجيع من الخديو اسماعيل الذى استعان بها فى صراعه مع قوى الرأسمالية العالمية التى التفت حوله واربكته بحبائل ديونها .

٦ ــ جمال الدين الأفغانى ، الذى كان مجيئه الى مصـــر ــ متفاعلا مع الظروف الأخرى ــ فاتحة عهد جديد فى نمو الوعى

السياسى ، واعطاء دفعة لزعماء الاصلاح فيها . اذ اجتهد فى نشر المبادىء الوطنية بينهم ، واخذ يبث فى النفوس روح الاعتزاز بالنفس ومحاربة روح الذل والاستكانة(١٥) ، كما قام بتشجيع زعماء الاصلاح على الكتابة فى الصحف لأنها اقرب الى عقول العامة وأكثر دفعا فى نفوسهم وأشد تحريكا لشعورهم(١٦) كما دفع الأفغانى الى انشاء بعض الصحف ، حيث لا جامعة لقوم لا لسان لهم ، ولا لسان لقوم لا آداب لهم ، ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم ، ولا تاريخ لقوم اذا لم يقم فيهم أساطين تحمى وتحيى آثار تاريخ رجالها ، فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم(١٧) .

ويمكن تتبع ملامح الفكر النهضوى فى مجال السياسة فى مصر فى القرن ١٩ خلال مجموعة قضايا وموضوعات على النحو التالى : :

تصـــــور نشـــــأة الدولة :

يضـــــع الطهطاوى تصورا لنشأة الدولة فيرى أن تكوين النواحى سابق الوجود على تكوين الحكومات(١٨) وأقدم منها فى التجمعات التأنسية ، فالنواحى أصل الممالك ، فقد كانت النواحى مشيخات صغيرة منفرد بعضها عن بعض على قرية أو اكثر أو على بندر أو مدينة بوصف دائرة بلدية ، وكان الحامل لاهلها على الاجتماع والاتحاد اقتضاء الحاجة الانســـانية للتأنس والتعيش والتحفظ حيث احسوا باحتياجاتهم الى ادارة داخلية لدائرتهم ، فاحتاجت تلك الادارة الى عمل ومحافظة وحسن تدبير وملاحظة فاستدعى الحال الى رئيس يقوم بادارة تلك الدائرة ويســـوس أمرها ويقيم أودها ، فاختار أهل هذه الدائرة لهذه الوظيفة أعقل العشيرة وأنورهم بصـــيرة ، وكانوا فى بادىء الأمر يختارون بالرغبة والطوع لمثل ذلك شيخا من شيوخ الأهالى الطاعنين فى

السن مما أفادتهم كثرة التجارب والمعلومات القوية والهيبة والوقار ويجعلونه كبير الناحية او شيخ الناحية .

وللبلد والناحية والحارة مشيخة ، واستمر الحال على هذه التسمية حتى انتظمت النواحى فى الحكومات وانخرطت فى سلك الممالك وصارت اجزاء لكل أو جزئيات لكليات ، وبقى اسم الشيخ دالا على كبير القوم ايا من كان عمره ، ثم بتداول الأزمان وترتيب البلد وانضمام عدة أقاليم أو مدن تحت رياسة واحدة تنظمت النواحى رسميا تابعا لأقسام البلاد الى ممالك ، والممالك الى ايالات والايالات الى كور أو مديريات والمديريات الى أقسام ، والأقسام الى اخطاط والأخطاط الى نواح ودوائر بلدية أو الى مدن والمدن الى أجزاء . وسمى شيخ المملكة سلطانا أو ملكا أو رئيس جمهورية وسمى حاكم الأيالة واليا أو أميرا ، وحاكم المدينة محافظا أو مأمورا ، وحاكم المديرية مديرا . وهكذا على حسب عرف كل بلد(١٩) .

وتقسيمات الطهطاوى السابقة هى نفسها تقسيمات محمد على التى ادخلها على تنظيم الادارة فى مصر ، حيث قسم مصر الى سبع مديريات ، وكل مديرية الى مراكز وكل مركز الى اخطاط ، ولكل مديرية مدير ولكل مركز مأمور ولكل اخطاط ناظر(٢٠) والدولة عند الطهطاوى تطلق عادة على ما يعم المملكة والسلطنة أى الولاية المحكومة بملك أو سلطان ، وتطلق بالخصوصية على السلطة أى الولاية التى صاحبها يحكم عدة ممالك ، ويلقب (ايمبراطور) أى سلطان عظيم أو سلطان سلاطين . وعلى هذا يفرق فى العرف بين السلطنة والمملكة(٢١) .

وللدولة عند الطهطاوى ، ركنان اساسيان هما الحاكم والمحكوم ، أو القوة الحاكمة والقوة المحكومة(٢٢) ولا يفهم اى

منهما الا بالآخر ، كالأبوة والبنوة او الروح والجسد . فى حين يرى جمال الدين الأفغانى ان الدولة تتكون من قوتين هما قوة الجنس وقوة الدين :

قوة الجنس : تدعو للاتحاد لمغالبة من سواهم ، ويكون فيها النعرة والعصبية .

وقوة الدين : وتقوم مقام الجنسية فى جمع الكلمة ، وتوحيد الوجهة وطلب الغلب بتلك القوة لمن خالفهم فيها .

ويدلل الأفغانى على صـــــدق فكرته بالأمة العربية ، قبل الاسلام توافر لها قوة الجنس فتوافر لها النجدة والبأس والقوة ، ولكنها وزعت تلك القوة فى القبائل وعاشت عيشة متناحرة الى ان جاء الاسلام فجمع الأهواء ووحد الكلمة ومنع الدعوة العصبية وأقام قواعده مقام القوة الجنسية مع حفظ ما الفوه من الحرية بكل معناها ، ومساواة بأصح مبناها ، وعدل شامل ، والاجمال ما يطهر النفس ويلطف الشعور .

وتقهقر العرب يرجعه الأفغانى الى ترك حكمة الدين وترك العمل بها ، وهو الذى — اى الدين — جمع الأهواء المختلفة والكلمة المتفرقة ، وكانت للملك أقوى من عصبة الجنس وقوته(٢٣) .

واجب الحـــاكم وصـــفاته :

تطلع الفكر السياسى فى مصر فى القرن ١٩ نحو أهداف مثلى للدولة ، وواجبات للحاكم تتجاوز ما يقوم به من واجبات .

فالدولة تأسست — كما يتصور الطهطاوى — لحفظ حقوق الرعايا بالتسوية فى الأحكام والحرية وصـــيانة النفس والمال والعرض على موجب احكام شرعية واصول مضبوطة فرعية(٢٤) .

وواجب الحاكم ليس مجرد الفصل فى النوازع الشخصية ، ولا مباشرة جزئيات الادارة ، انما النظر فى كليات الامور ، وتفقد أحوال الرعايا ، والاعانة على تكثير البضائع والعلوم الموصلة الى تهذيب الأخلاق ونمو الأرزاق والعناية بتنظيم العساكر وتحصين الثغور لحفظ الدين والوطن واصلاح أحوال العلاقات مع الدول الأجنبية بما ينمو به عز المملكة وثرواتها(٢٥) وتعود اهمية الحاكم عند الطهطاوى الى أنه يحسن سياسة امته ويدبر مصالحها وبدونه « لا تأمن الأمة على التمتع بحقوقها المدنية ومزاياها البلدية ، ولا تحفظ نفسها ولا مالها ولا عرضها ، فالرئيس هو المحافظ على اجراء الأحكام والقوانين وعلى حفظ الشريعة والدين »(٢٦) .

والحاكم هو رئيس أمته ، وصاحب النفوذ الأول فى دولته ، وهو خليفة الله فى أرضه ، وأن حسابه على ربه ، فليس عليه فى فعله مسئولية لاحد من رعاياه .

وليس معنى هذا أن الحاكم غير محاسب أو ان سلطانه مطلقة بلا حدود ، بل هى مقيدة بالقانون ، فهو حاكم متصرف بالأصول المرعية فى مملكته ، وأنه يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين . وعلى المحيطين بالحاكم أن يبصروه بأخطائه برفق ولين حتى تتنبه ذمته التى تتأثر بالانبساط من الخير والانقباض من الشر . فالذمة حكم عدل ، تحمل الملوك على العدل .

لذلك ميز الطهطاوى الحاكم بمجموعة صفات منها : التبصر فى العواقب ، وأن يستحضر فى دائم أوقاته وحركاته وسكناته أن الله سبحانه وتعالى اختاره لرعاية الرعية ، وجعله ملكا عليهم لا مالكا لهم ، وراعيا لهم ، لا آكلا لهم .

واذا كان الحكم فضلا من الله ينعم به على من يصطفيه من خلقه ، وان الحاكم لا يسأل ، فان على الرعية الطاعة فان ثقل عليهم شىء من احكامه صبروا الى أن يفتح الله لهم باب هدايته للخير وارشاد دولته للعدل(٢٧) .

وهذا الموقف من الطهطاوى ، هو نفسه الموقف العام لعلماء مصرآنذاك ، فالجبرتى يورد نص رسالة ارسلها علماء مصر الى الباب العالى فى بداية حكم محمد على .. نحن ممثلون لولاة أموركم فى جميع ما هو موافق للشريعة المحمدية ، حسب قوله تعالى (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولى الأمر منكم) فلا تسعنا المخالفة فيما يرضى الله ورسوله ، فان حصل منهم خلاف ذلك نكل الأمر فيهم الى مالك الممالك ، الا ان أهل مصر قوم ضعاف(٢٨) .

وعندما كان محمد على يتمادى فى فرض الضرائب كان العلماء يلزمون بيوتهم ولا يثيرون الفتن ويقتصرون على حالهم ويصبرون على قدر الله(٢٩) .

وهذا الموقف يعتبره الطهطاوى لصالح الرعية ، لان اجراء المصالح العمومية بهذه المثابة تنتهى بسرعة ، يكون منوطا بارادة واحدة بخلاف ما اذا انيط بارادات متعددة فيكون بطيئا(٣٠) .

فالحاكم هو العقل الأول الذى يدير المملكة ادارة اجمالية(٣١) ومن ثم يعلق الطهطاوى السلطات الثلاث على شخص الحاكم وحده ، فلم يقر ولا حتى يذكر مبدأ الفصل بين السلطات(٣٢) .

والهيئات المعاونة للحاكم يقتصر دورها على مجرد تقديم المقترحات له(٣٣) . ورغم ذلك فان للحاكم ضوابط اخلاقية

كالعدل والرحمة والحلم ، ومن الضوابط التى تحكم سلوك الحاكم الرقابة الذاتية ورقابة الرأى العام « فالملوك يستحيون من اللوم العمومى ، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك(٣٤) .

وعلى ما يبدو ، فقد كان لنفى الطهطاوى الى السودان تأثير مهم فى فكره السياسى . فقد أخذ يضيق بالحكم المطلق للحكام ، ويحث الناس على معاملة حكامهم بمثل معاملاتهم لهم « أما تعلم أن الملوك اذا اعتادوا فى القوانين والأحكام أن يجروها على ارادتهم وفعلوا ما تسوله أنفسهم بدون مانع ، فليس لهم رعايا احرار وليس عندهم أهالى أهل اعتبار . فلا يحجز هذا الطوفان الفايض بطغيانه على الأهالى والبلدان غير الخروج عن طاعة هؤلاء الملوك ، وسلوك سبيل العصيان ، فأن ذلك قد ينتهى باسقاطهم من كراسى ملكهم(٥) .

اذ لا يسوغ للملك ان يتوقع من الناس الا ان يعاملوه بعين ما جرت به المعاملة ، وبمثل ما صنعه معهم ، فالخير والشر معارضة ومبادلة(٣٦) .

فالملوك الطغاة لا تشتغل الا بالتخويف والارهاب وهضم رعاياها بقصد الاطاعة ومنع الارتياب ، هم كناية عن طاعون ووباء يهلك بهم الناس ويضيعون هباء(٣٧) .

وربما يكون هذا ما دفع الطهطاوى فى شروحه للسياسة الفرنسية الى التركيز على أن الحاكم هو ملك ولكن وفق شروط ، وهى أن يعمل وبما هو مذكور فى القوانين التى يرضى بها أهل الدواوين ، ومن ثم فقد حدث معاصريه لأول مرة عن السلطة التشريعية والدوائر الانتخابية والانتخابات المباشرة وغير المباشرة ومسئولية الوزراء والحصانة البرلمانية ، فى الوقت الذى كان فيه الفرد فى مصر يعيش فى دولة لا يستطيع فيها التمييز بينها وبين شخصية الحاكم(٣٨) .

ولذلك يمكن اعتبار ترجمة وشروح الطهطاوى للدستور الفرنسى اول محاولة فكرية صريحة فى الفكر السياسى العربى تطرح مقولة : فصل الدين عن الدول واقامة مجتمع مدنى لا تنبع فيه الشرائع من قواعد الدين(٣٩) .

غير ان الطهطاوى لم يكن يميل بالكلية الى العقل الغربى ، فاذا كانت احدى عينيه ترقب باعجاب منجزات العقل الغربى ، فان عينه الأخرى كانت تقلب فى التراث بحثا عن عوامل بعث الثقافة الاسلامية من جديد . ولم يأت مقارنة الطهطاوى بين عصر محمد على والعصر العباسى من فراغ ، بل كانت رمزا للرغبة الصادقة فى التواصل مع الزمن الثقافى الممتد عبر قرون طويلة ، وبالتالى فانه لم يستطع التخلص من تلك الثنائية التراث / الغرب فى معظم الأحيان(٤٠) ويتفق الافغانى مع الطهطاوى فى ضرورة ان يكون الحاكم مقيدا بشروط « لأن بالقوة المطلقة يكون الاستبداد، ولا عدل الا مع القوة المقيدة . وحكم مصر بأهلها انما اعنى به الاشتراك الاهلى بالحكم الدستورى الصحيح . فاذا صح أنه من الأشياء ما ليس يوهب ، فأهم هذه الأشياء الحرية والاستقلال . لأن الحرية الحقيقية لا يهبها الملك والمسيطر للأمة عن طيب خاطر، والاستقلال كذلك ، فان هاتين النعمتين انما حصلت وتحصل عليها الأمم اخذا بقوة واقتدار .

واذا اتاح الله لمصر رجلا قويا عادلا يحكمه بأهله ، ذلك الرجل اما أن يكون موجودا أو تأتى به الأمة فتملكه على شرط الأمانة والخضوع لقانونها الأساسى ، وتتوجه على هذا القسم ، وتعلنه له . ويبقى التاج على رأسه ما بقى هو محافظا امينا على صون الدستور ، وانه اذا حنث بقسمه وخان دستور الأمة اما ان يبقى رأسه بلا تاج ، أو يبقى تاجه بلا رأس(٤١) .

اما المرصفى فينظر لمهام الحاكم نظرة يغلب عليها الطابع

الأخلاقى فالحاكم يحكم الناس ليحد من تنافسهم وعداوتهم وبذلك تتهيأ الفرصة المجتمع للتقدم . والحاكم يقود رعيته بالمحبة والاحترام لا بالارهاب الذى يجعل المحكوم خائفا . والحاكم لا يحتقر المحكومين ، بل هو فى خدمة المحكومين ، فالحكم مثله مثل اى حرفة ، عملية ضرورية فى بقاء الانسان وحسن سياسته(٤٢) .

السـياسة :

السياسة مصطلح عربى يقابل المصطلح الاوروبى بوليتيقا . وقد استخدم الطهطاوى الكلمة الأوروبية للدلالة على أحوال الدولة داخليا وخارجيا(٤٣) وتعنى عنده الأصول والأحكام التى بها ادارة المملكة اى الحكومة أو كل ما يتعلق بالدولة وأحكامها وعلاقاتها وروابطها(٤٤) .

والسياسة عند الطهطاوى عدة تصنيفات فمنها : الشرعى والوضعى ، ومنها العادلة والظالمة ، فالسياسة الظالمة تحرمها الشريعة ، وأما السياسة العادلة التى تخرج الحق من الظالم ، وتدفع كثيرا من المظالم ، وتردع اهل الفساد ، وتوصل الى المقاصد الشرعية ، فالشريعة توجب المصير اليها والاعتماد عليها فى اظهار الحق(٤٥) ورغم أن دساتير اوروبا وضعية ، تختلف عن التشريع الدينى الاسلامى فان فيها أمورا لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل(٤٦) وهذا ربما يفسر حرص الطهطاوى على ترجمة الدستور الفرنسى والاعجاب به .

وللسياسة عند الطهطاوى اقسام :

١ ـ السياسة النبوية ، خاصة بالأنبياء والرسل .

٢ ـ السياسة الملوكية ، اى السياسة العليا للدولة وخاصة حفظ الشريعة (القانون) .

٣ — السياسة العامة ، اى تطبيق السياسة العليا على المصالح والأقاليم .

٤ — السياسة الخاصة بالمنزل والاسرة .

٥ — السياسة الذاتية اى تفقد الانسان افعاله(٤٧) .

وكان تركيز الطهطاوى على السياسة الملوكية لانها هى التى تحدد طبيعة التطبيقات فى السياسة العامة .

ولقد ربط الطهطاوى بين السياسة والمنفعة العامة ؛ بل انه اعتبر السياسة فى جوهرها هى القدرة على تحقيق النفع العام للمجتمع .

هذا وقد صنف الطهطاوى الحكم فى الدولة الحديثة الى نوعين :

١ — ملكية : وهى على نوعين : مطلقة ومقيدة .

٢ — جمهورية : وهى على نوعين ديمقراطية وارستقراطية(٤٨) .

ويفضل الطهطاوى النظام الملكى لأن المصريين من قديم الزمان كانوا معتادين للحكم الملوكى ، فكانوا مطيعين لملكهم ، وكان الملك منقادا ايضا لقوانين المملكة واصولها ، فكانت حركاته وسكناته على (طبق القوانين)(٤٩) .

واختيار الملك لا يتم بالانتخاب ، بل بالوراثة ، فالانتخابات تؤدى الى الصراعات ، واقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح ، اختيار التوارث فى الأبناء وولاية العهد على حساب اصول كل مملكة بما تقرر عندها(٥٠) .

واذا كان الطهطاوى يقسم السياسة الى خمسة اقسام ،

فان على مبارك يقسمها الى اربعة ليس من بينها سياسة النبوة ، وهى سياسة الانسان لنفسه وسياسته لأسرته ولمدينته ولدولته(٥١) .

وسياسة الدولة تعتمد على القانون ، والقانون اما الهى او مدنى مصدره التفكير والتعقل وتدقيق النظر ومقارنة الاحوال وموازنة العواقب .

وأيا كان مصدر القانون فلابد أن يحقق غاية الوجود الكبرى وهى حفظ حياة الانسان أصلا وتوابع . والانسان هنا يعنى الفرد والنوع على حد سواء اذ لا تعارض بينهما ، أما اذا حدث التعارض فتقدم المصلحة العامة ، اما اذا حدث العكس كان الفساد(٥٢) ولا يكفى القانون وحده اذ يجب أن يخضع له الجميع ، حاكما ومحكوما ، والحاكم اولى لانه القدوة .

كما يجب ان يكون القانون عادلا ، وهى صفة فى النفس تقتضى المساواة فلم يخلق الله احلى مذاقا من العدل ، ولا أمر مذاقا من الجور .

فالعدل عند على مبارك هو أساس الملك ، فعدل السلطان انفع من خصب الزمان ، ولا عز للملك الا بالرجال ، ولا قوام للرجال الا بالمال ، ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ، ولا سبيل الى العمارة الا بالعدل والانصاف سواء كانت الدولة اسلامية أو غير اسلامية(٥٣) .

السياسة والدين :

ربما توضع الأمور السياسية فى مقابل الأمور الشرعية ذات الطابع الدينى(٥٤) ، غير ان الطهطاوى ، فى أعماله الأخيرة يستخدم مصطلحا ثالثا هو السياسة الشرعية ، وهذه المقابلة

وضحت عند كلام الطهطاوى عن الدستور الفرنسى والقوانين الفرنسية ، فوصفها بأنها مخالفة بالكلية للشـــــريعة(٥٥) ، أى مصدرها بشرى ، ورغم ذلك لا يخفى الطهطاوى اعجابه بها لقدرتها على تحقيق العدل ، رغم ايمانه فى نفس الوقت بقدرة القوانين والدساتير السماوية على التعبير عن حاجات وظروف العصـــــر وتحقيق تلك العدالة المنشودة ، ويتضح ذلك من قوله : « ثم ان الحالة الراهنة اقتضت أن تكون الأقضـــــية والأحكام على وفق معاملات العصـــر بما حدث فيها من المتفرعات الكثيرة المتنوعة بتنوع الأخذ والعطاء من أمم الأنام ، ومن المعلوم أن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة الا احصاها وأحياها بالسقى والرى .

ولم تخرج الاحكام السياسية عن المذاهب الشرعية لا على سبيل التهاون ولا على سبيل الشذوذ بل سارت على مشاعب المذاهب لمجاراة النوازل والنوائب وما شرع مذهب السيف الا لنصرة مذاهب الشرع لانها أصل وجميع مذاهب السياسات منها بمنزلة الفرع . فاختلاف مذاهب الائمة رحمة وجواز تقليد اى واحد منهم والرجوع الى اجتهاد الآخرين للحاجة نعمة »(٥٦) والعبارة السابقة ربما توضـــــح حرص الطهطاوى على الربط بين ملاءمة الشريعة لظروف العصر من جهة ، وضرورة فتح باب الاجتهاد من جهة أخرى ، كما أجاز للمسلم فى ظل ظروف معينة الأخذ بمذهب آخر غير مذهبه .

واعتبر البعض(٥٧) الطهطاوى أول من خطا خطوة فى هذا السبيل ، وأن هذا المبدأ قد اعتمد عليه كتاب لاحقون لايجاد نظام حديث وموحد للشريعة فى مصر وغيرها يحدث توازنا بين القوانين الوضعية والشريعة الاسلامية .

وربما يكون هذا هو سبب حرص الطهطاوى على ترجمة الدستور الفرنسى ، ورغم كونه دستورا وضعيا فان فيه « امورا لا ينكر ذوو العقول انها من باب العدل » والله سبحانه وتعالى يقيم الدولة العادلة وان كانت مشركة ولا يقيم الدولة الظالمة وان كانت مسلمة ، فالدولة تدوم مع العدل والشرك ، ولا تدوم مع الظلم والاسلام(٥٨) .

الوطن والوطنيـــة :

ساهمت كل من تجربة محمد على بما حققته من انجازات وانتصارات شارك فيها المصريون ، وكذلك المكاسب السياسية التى حققها الخديو اسماعيل بحصـوله على الفرمانات العثمانية المتوالية ، لا سيما فرمان سنة ١٨٧٣ حيث صارت مصر كيانا متميزا فى الدولة العثمانية(٥٩) وايضا التغيرات التى سمحت بوجود جيش اهلى ، وطبقة من الموظفين الوطنيين وطائفة ملاك زراعيين محليين ، وبعبارة اخرى ظهرت مصالح اهلية متفردة باوضاعها الخاصة وتصدر فى حركتها عن نفسها وتقيم هيكل مجتمع جديد(٦٠) .. كل ذلك وغيره ساهم فى ايقاظ الشعور الوطنى على نحو ما عند الطهطاوى وغيره ، غير ان الطهطاوى كان اكثر من غيره قدرة على التعبير عن هذا الشعور .. فالوطن عنده هو عش الانسان الذى فيه درج ومنه خرج ومجمع اسرته ومقطع سرته ، وهو البلد الذى نشأته تربته ، وغذاؤه وهواؤه ورباه نسيمه وحلت عنه التمائم فيه(٦١) .

ومن الواضح ان تعريف الطهطاوى للوطن ليس استنتاجا نظريا من مبادىء فلسفية ، بل هو شعور حار يتغنى فيه بعظمة مصر ، ويهتم بمستقبلها ويكتب القصائد الوطنية يمتدح فيها وطنه وحكامها وجيشها الوطنى عبر تاريخها الطويل من الفراعنة حتى

محمد على . فالوطن عند الطهطاوى هو مصر منذ الفراعنة حتى محمد على ، وأبناء مصر هم الفراعنة والأقباط والمسلمون وحتى الغزاة الذين اندمجوا فى عظمتها التليدة(٦٢) .

واذا كان لويس عوض يرى وطنية الطهطاوى ، وطنيـــة قومية مصرية عربية دون اتجاه اسلامى(٦٣) فان عزت قرنى ، وهو الأرجح ، يرى أن عروبة الطهطاوى جزء من وطنيته المصرية، وعروبته ما هى الا شعوره الدينى الاسلامى واللغوى والثقافى فالانتماء الوطنى عند الطهطاوى لا يتعارض مع انتمائه الدينى(٦٤) فالاخوة عند الطهطاوى أخوة انسانية وأخوة دينية وأخوة قرابة وأخوة وطنية ويضع الطهطاوى الأخوة الدينية جنبا الى جنب مع الأخوة الوطنية ، ولم يجعل للرابطة الدينية الدور الحاسم فى الأخوة الوطنية ، فتكفيهم وحدة اللســـان ووحدة الدولة ووحدة الأخلاق والعوائد . فمفهوم الوطنية عند الطهطاوى يعتبر انتقالا من مفهوم الجماعة الدينية الى مفهوم الجماعة الوطنيـــة ، ومن الوعى الدينى الى الوعى القومى(٦٥) فى الوقت الذى ســـادت الشرق الوحدة الدينية ، ولم يكن هناك ظل لوعى قومى منفصل . وكان لفظ الدولة يشير الى كيان سياسى واحد هو الدولة العثمانية ذات الطابع الدينى والعلاقات الدينية مع ولاياتها ، وهذا ما يؤكده محمد كريم فى دفاعه عن الاسكندرية ضد الأســـطول الانجليزى حيث قال : « هذه بلاد السلطان ، ليس للانجليز ولا غيرهم عليها سبيل(٦٦) لكن الطهطاوى جاء ليوفق بين الانتماء الوطنى والانتماء الدينى فى شعاره « حب الوطن من الايمان » .

ومن هذا المنطلق ينظر الطهطاوى الى الأقليات الدينية نظرة سياسية اجتماعية من منظور المواطنة ، لذلك اعتبر أن لأهل الذمة كافة الحقوق وعليهم نفس الواجبات(٦٧) ولهذا امتدح الطهطاوى

محمد على ومن بعده اسماعيل لتسامحهما الدينى . واعتبر الاستعانة بأهل الذمة فى أمور الدولة ، بالاضافة الى الخبرة الأوروبية ، وظهور القضاء التجارى المختلط .. كل هذا يعد اشارة الى بداية علمنة البناء الاجتماعى ، كما أن الدعوة الى المساواة القانونية وحق الجميع فى تولى الوظائف ، قد أكدت عليه منشورات التنظيمات الخيرية ، خاصة منشور يونيو سنة ١٨٥٦(٦٨) .

ويتفق عبد الله النديم مع الطهطاوى فى عشقه للوطن وتغنيه بالوحدة الوطنية والتسامح الدينى . فيصف النديم الوطن بانه السر الذى تبعثه الخواطر الى الافكار فتتوجه بالهمم الى أعالى الأمور على مراقى الحرية ، ولا يقوم بهذا السر فى كل أمة الا رجال العزائم وأهل الاقدام على صعاب الحوادث يقطعون العقبات بالصبر على المشاق(٦٩) .

فالوطن عند النديم ليس مجرد مكان ، بل الانسان ، وليس الانسان فى حالة سكون بل فى حالة حركة ونشاط وفعل مبدع ، ومن ثم يكون اساس الوطنية هو حفظ الوطن وعمارته وتمدنه ، وذلك بالمساواة بين كافة افراده فى الحقوق والحريات ، لا يفرق بينهم جنس ولا دين(٧٠) .

وقد تغنى النديم بالوحدة الوطنية والتسامح الدينى بين المصريين واشاد بالاختلاط بينهم لمدة ١٣ قرنا حيث قضى المسلمون مع الاقباط ثلاثة عشر قرنا وهم فى اختلاط أهل بيت ، ومعاملة عشيرة ، واتحاد عائلة ، وما جرى بينهم واقعة عدوانية مسببة عن اختلاف الدين ، بل بقيت معهم كل هذه المدة نتبادل الوظائف والزيارات وامتلاك الطين والعقارات(٧١) .

كما أن القبطي يسكن في قرية من قرى الريف ، وجاره المسلم يحرسه ويقضى له أشغاله ويحفظ أمواله(٧٢) .

العدل والحــــرية والمســـــاواة :

ارتبطت الكلمات الثلاث عند الطهطاوى ، فلا حـــرية بلا مساواة ، ولا مساواة بغير حرية ، وهما في الوقت ذاته معبرتان عن وجود العدالة(٧٣) .

... العـــــدل :

فكرة العدل ، استرعت انتباه المصريين ، فالجبرتي يصف الفرنسيين وعدلهم في رعيتهم مع كفرهم بحيث لا يوجد منهم فقير ولا مستجد ولا ذو فاقة(٧٤) ونقطة البداية في النهضـــــة عند الطهطاوى هي العدل ، الذى هو محور الحكم الاسلامى « قل ان يقدم ملك اسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وســـــنة رسوله(٧٥) أما سلوك الحكام وكثرة خروجهم عن الكتاب والسنة فهو أمر شخصى — فقد صارت الشـــــريعة مطية استعان بها الحكام لتحقيق أهدافهم ، فأصبحت الشريعة تتبع دائرة السياسة، فهى الوسيلة الضامنة للنظام والأمن(٧٦) .

فالعدل أهم أفكار الطهطاوى وشــــعار دولته المتمدينة ، افتتح به تخليص الابريز عندما توسل الى محمد على في نشر الوية العز والعدل على سائر الأقطار المصرية(٧٧) أما الظلم فيفضى حتما الى الثورة على الحكام(٧٨) .

ويتحقق العدل عند الطهطاوى ، بالتزام الحـــاكم بتطبيق الشرع ، ووسائل ذلك .. تطبيق مبدأ الثواب والعقاب ، وحسن اختيار رجال القضاء والعدالة في تحصيل الضرائب ومســـــاواة

الناس امام القضاء . والله تعالى يقيم الدولة العادلة وان كانت مشركة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وان كانت مسلمة ، فالدولة تدوم مع العدل والشرك ، ولا تدوم مع الظلم والاسلام(٧٩) .

.. الحـــــرية :

حديث الطهطاوى عن الحرية كان يبدو غريبا على اذهان معاصريه بالرغم من أن هذه الكلمة عادية الاستعمال لدى الفرنسيين فى القرن ١٩ ، وكان المفهوم بديهيا لا يحتاج الى تعريف ، لكن علماء الاسلام لم يستعملوا الكلمة عادة ولم تعـــــرف رواجا الا كترجمة اصـــطلاحية للكلمة الأوروبية ، فكانوا لا يتمثلون بدقة وبسهولة مفهوم الحرية(٨٠) .

كما كان الهدف من الكلام عن الحرية هو رفع الحواجز أمام شخصية الفرد ولم يكن هناك اهتمام بتأصيل وتنظير هذا المفهوم ، بقدر ما كانت الدعوة اليها تتخذ هدفا عمليا فى المقام الاول لالغاء قوانين أو محو عادات ، أو تغيير ســـــلوك ، اى الدعوة الى الاصلاح فى نطاق نشاط اجتماعى(٨١) .

فالحرية عند الطهطاوى هى رخصة العمل المباح من دون مانع غير مباح ولا معارض محظور ، فحقوق جميع أهالى المملكة المتمدنة ترجع الى الحرية فتتصف المملكة بالنسبة للهيئة الاجتماعية بأنها مملكة متحصلة على حريتها ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر(٨٤) .

والحرية عند الطهطاوى اقسام خمسة هى :

الحرية الطبيعية : تعبر عن الضرورات البشـــرية كالأكل والشرب .

الحرية السلوكية : حرية الفرد فى سلوكه التابع من ذاته والمعبر عن اخلاقه فى تعاملاته مع الغير .

الحرية الدينية : وهى على ثلاثة مستويات :

(أ) حرية العقيدة فيباح التعبد ســــائر الأديان(٨٣) . وبالتالى ضرورة التسامح الدينى ونبذ التعصب .

(ب) حرية الاجتهاد الدينى وترك التقليد والجمود وتفسير الشريعة الاسلامية فى ضوء ظروف العصر بشرط عدم الخروج عن الاصول .

(جـ) حرية الاجتهاد فى المسائل السياسية أيضا ، فالاتفاق على الاهداف لا يعنى الطريق الواحد والقرار الواحد ، بل تعدد وتنوع الطرق والقرارات والوسائل .

الحرية المدنية : ويقصد بها حقوق العباد والاهالى الموجودين فى مدينة بعضهم على بعض ، فكأن الهيئة الاجتماعية المؤلفة من اهالى المملكة تضامنت وتواطأت على اداء حقوق بعضهم لبعض وان كل فرد من أفرادهم ضمن للباقين ان يساعدهم على فعلهم كل شىء لا يخالف البلاد والا يعارضوه وان ينكروا جميعا على من يعارضه حريته بشرط الا يتعدى حدود الأحكام(٨٤) .

الحرية السياسية : وهى القسم الخامس ، وتعنى الحرية الدولية وهى تأمين الدولة لكل فرد من أهاليها على امـــلاكهم الشرعية المرعية ، واجراء حريته الطبيعية بدون ان تتعدى عليه فى شىء منها ، فبهذا يباح لكل فرد أن يتصرف فيما يملكه جميع التصرفات الشرعية فكأن الحكومة بهذا ضمنت للانسان ان يسعد فيها مادام متجنبا لاضرار اخوانه(٨٥) .

فالحرية السياسية اذن مرادف للالتزام بالقانون ، وحرية الفرد تتضمن اداءه لواجباته تجاه وطنه مثل المساهمات المالية عن طريق الضرائب ، والدفاع عن وطنه عند الاخطار . وهذه لا تمثل تعديا من الدولة على الأفراد ، بل هى واجبات عليهم أن يؤدوها لضمان حقوقهم وحرياتهم(٨٦) .

- المســـــاواة :

هى صـــــفة طبيعيـــة فى الانســـــان تجعله فى جميـــــع الحقوق البلدية كاخوانه . والمساواة جامعة للحرية المدنيـــــة والحركة الملكية ، وذلك لأن جميع الناس مشتركون فى ذواتهم وصفاتهم والمساواة أمر نسبى ، فالناس تتباين فى الصـــــفات المعنوية والصفات الطبيعية ، ومع أن الله فضل بعضهم على بعض فى الرزق ، فقد جعلهم فى الأحكام سواسية ، لا فرق بين الشريف والمشروف والرئيس والمرؤوس . فليس للتسوية معنى آخر الا اشتراكهم فى الأحكام بأن يكونوا على حد سواء(٨٧) .

ويعتبر الطهطاوى الحرية والمساواة أساس استقرار الدولة فكل ملة تتخذ أصل قانونها التسوية من أصل الفطرة فى الحقوق ويداومون على مراعاة هذه التسوية فان حريتهم توضـــــع على أساس متين وتكون مملكتهم راسخة القواعد لا يعتريها الخلل ، وبهذا تقوى على المدافعة عن بلادها وتحمى وطنها ، فهذه هى الأمة القوية الشوكة فى الداخل والخارج مهابة عند الجميع(٨٨) .

ويشيد الطهطاوى بالمساواة القانونية فى تعليقه على مواد الدستور الفرنسى بأن لها تسلطا عظيما على اقامة العدل واسعاف المظلوم وارضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم(٨٩) .

وهذه المساواة توفر مبدأ تكافؤ الفرص ، فكل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان أو أى رتبة كانت(٩٠) .

وربما عاش الكواكبى جل حياته لمقاومة الاستبداد والتنديد بطبائعه فقد رأى انه من أسباب تخلف العرب انتشــــار الحكم المستبد الذى يتصرف فى شئون الرعية دون حساب يؤديه ولا خضوع للمراقبة والتحقيق . ومن ثم كانت دعوته للحريات التى من بينها تساوى الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء عن الشعب وحرية التعليم والخطابة والمطبوعات والبحث العلمى فاذا فقد الشعب الحرية فانه يفقد رغبته فى الحياة أساسا(٩١) .

شـــارك النديم الكواكبى وســـليم النقاش(٩٢) وأديب أسحق(٩٣) وغيرهم فى أن استبداد الحكام هو علة شـــرور الشرق ، وأنه لا اصلاح مع الاستبداد . ومن ثم يرى النديم أن نقطة البداية فى الاصلاح السياسى هى علاج الاستبداد ، وذلك بتحديد الحقوق والوجبات لكل من الحاكم والمحكوم ، والشورى التى هى غرس الأفكار فى أرض التبادل وسقيها بماء الحـــرية وخدمتها بيد الاعتدال تنبت العدل وتزهر الحق وتثمر العمران(٩٤).

وهذا ما دعا النديم الى المطالبة بتكوين أحزاب سياسية وان يكون لكل حزب جريدته الخاصة لنشر أعماله وتأييد أقواله . كما ناشد الحاكم أن يتدرع بدرع الوقاية من شهوات نفســـه ، وأغراضه الذاتية وينزل عن جواد الجبروت الى أرض التواضع واللين ، وبشاور فى أمره أولى العقل والخبرة ، ويقلد فى أعماله أهل العفة والأمانة والصدق(٩٥) . وهكذا اتخذ النديم من الحرية والدستور والشورى واجبات على الحكومات حتى تســـتطيع الوصـــول الى التقدم والازدهار لبلادها ، كما رأى أن تكون الســـيادة والســـلطة للأمة لأن الحكام لم يوجدوا الا لخدمة الشعب(٩٦) . وقسم النديم المصريين الى فقراء واغنياء وأمراء

وطالب بالمساواة والعدل بينهم حتى يتقدم المجتمع لأن الانسان ما لم يشعر بقيمته وتقدير المجتمع له فلن يكون منتجا ، وهذا العدل وتلك المساواة من مبادىء الاسلام « فالقانون الالهى يسوى بين الأمير والحقير ، والقوى والضعيف ، ويحكم بمسئولية كل فرد من الأفراد عن أقواله وأفعاله بين يدى مولاه »(٩٧) ، ومن ثم يرى النديم ضرورة تمثيل الفقراء والفلاحين فى المجالس النيابية لأنهم أصحاب المصالح الحقيقيون وأدرى بمشاكلهم من غيرهم واتفق فى ذلك مع الأفغانى الذى رأى أن كل اصلاح الى زوال ما لم ينبعث من الجماهير أصحاب المصلحة فى تحقيق الاصلاح .

وضع مصر السياسى :

ساد مصر حتى القرن التاسع عشر تفكير دينى تبدت انعكاساته السياسية فى اختيار محمد على (الألبانى المسلم) واليا فى اطار التبعية الكاملة للخلافة العثمانية .

وبدءا من بدايات القرن ١٩ وبفضل الانفتاح على الغرب وانتشار التعليم المدنى الحديث وظهور الصحافة وانتشار حركة الترجمة والتأليف والنشر ، ظهرت على ساحة الفكر عموما ، والفكر السياسى خصوصا تيارات وتوجهات أخرى تتفق أو تختلف بدرجات مع التيار الاسلامى الرئيسى الذى يدعو للخلافة الاسلامية كرابطة وجامعة وشكل قانونى لوضع مصر السياسى . ومن هذه التوجهات : الاتجاه الأفريقى ووحدة وادى النيل ، والاتجاه المتوسطى الذى يربط مصر بدول حوض البحر الأبيض المتوسط ، والاتجاه المصرى الفرعونى الاقليمى ، وغيرها .

وبالنسبة للمفكرين الذين كان لهم تصور عن وضع مصر السياسى فى تلك الفترة كان الطهطاوى الذى أقر حق مصر فى الاستقلال السياسى عن الدولة العثمانية . فمصر ، رغم كونها

ولاية عثمانية فانها فى سعيها للاستقلال ، هى جديرة به ؛ فالدولة العثمانية قد أصابها الانحلال فى جميع فروع الادارة ، وذات ظلم للرعايا ، وجميع أقاليمها مملوءة بالفتن وضجر الأهالى، وفى كل ركن من أركانها العصاة على السلطنة ، وبجوارها الأعداء أرباب طمع وشوكة(٩٨) مما يشير الى قرب انحلال نظامها وتشتت شملها(٩٩) .

وحكومات مصر عموما ، وبالذات ، لا تفلح الا بانفراد الحاكم بالتصرف فيكون نائب مصر قديما وحديثا له خصوصيات ومزايا ومعافاة دون غيره من نواب الممالك العثمانية الأخرى ، ولم يكن فى زمن من الأزمان تابعا تبعية مطلقة ، بل تبعية ظاهرية فقط ، فقل أن تجد نائبا على مصر لم يبحث عن الاستقلال(١٠٠) .

أما على مبارك ، فعلى الرغم من كونه تربويا رائدا ، فانه كان سياسيا متواضعا ، ورغم كونه فلاحا فان تعليمه ووظائفه العالية جعلته فى صف الطبقات الأرستقراطية بالمعنى الذى يبعده عن طبقات الشعب المصرى الحقيقية .

فعندما يتناول وضع مصر السياسى فانه يعلقه على أولى الأمر القائم ، فقد رأى أنه لا اصلاح سياسيا بدون ارتكاز على اصلاح تعليمى ، وبالتالى عارض مبادىء الثورة العرابية لأنه اعتقد أن الوطنية هى الطاعة التامة لأولى الأمر ، ورأى أنه من يخرج عليه متمرد . واعتبر ثورة عرابى بسبب الحقد الكامن لدى الثوار من الأعمال الاصلاحية التى تمت فى وزارة رياض باشا الثانية . واعتبر الثورا خوارج ، والفلاحين المشاركين فيها عصاه مارقين ، والقوات الانجليزية التى جاءت الى الاسكندرية جاءت لتقرير الأمن واطفاء نار الفتنة !!!(١٠١) .

أما عن التوجه الاسلامى لمصر وضرورة انضوائها تحت لواء الجامعة الاسلامية فقد عبر عنه جمال الدين الافغانى اقوى تعبير وهو الرجل الذى حدد هدف حياته فى انهاض الدول الاسلامية من ضعفها ، وتبصير شعوبها بحقوقها ، ورفع نير الأجنبى عنها وتحديد مركز الحاكم والمحكومة فيها .

وكان للأفغانى دور عظيم فى الترويج للجامعة الاسلامية ، وكان يهدف من ورائها الى مواجهة الغرب بنفس سلاحه ، بحرية الفكر والتقدم العلمى والاصلاح وفق المدنية الحديثة ، وتطهير الدين من الخرافات وترك الجمود حتى تصل الشعوب الاسلامية الى مستوى الشـــعوب المتقدمة . وكان من الطبيعى أن تكون الدولة العثمانية ، اقوى الدول الاسلامية فى ذلك الوقت ، هى محور تحقق فكرته .

فالأفغانى أراد للعالم الاسلامى أن يسترد حريته ووحـــدته وتقدمه ورقيه ، ولكن فى ظل الخلافة العثمانية الاسلامية(١٠٢) .

ونتيجة لظروف مصر الاقتصادية والسياسية المضطربة ، وما صاحبها من تذمر شعبى ، ظهرت فى مصر يقظة وطنية تبلورت فى الرغبة فى التخلص من التدخـــلات الأجنبية ، وظهرت فكرة مصر للمصريين التى يرجعها البعض(١٠٣) الى سعيد باشا الذى رأى نفسه مصريا ، وبالتالى وجب عليه أن يربى أبناء الشـــعب ويهذبهم ويجعلهم أهلا لأن يخدموا بلادهم ، ويستغنى بنفسه عن الأجانب .

وقام سعيد باشا بالفعل بترقية المصريين فى وظائف الادارة مما ساهم فى ابراز الشخصية المصرية ، واظهارها خاصة فى مجال الاحتجاجات الوطنية والتذمرات الشعبية على عدم كفاءة

بعض الموظفين الأوروبيين مع ارتفاع رواتبهم ، واعفاء الاجانب من الضرائب ، وعدم خضوعهم لقوانين البلاد .

كما تضمنت دعوة مصر للمصريين أن يصير حكم البلاد فى أيدى أبنائها ومنع التدخل الأجنبى وسيطرة الشراكسة والأرمن وغيرهم على الوظائف الحكومية(١٠٤) فدعوة مصر للمصريين لم تكن موجهة ضـــــد الترك أو غيرهم من المسلمين حيث كان ولاء المصريين للسلطنة دينيا ، فهم مكلفون شرعا بطاعة السـلطان باعتباره الخليفة والأب الروحى للمسلمين(١٠٥) .

فالفكرة المسلطة على عقول المصريين هى ضـــرورة طاعة السلطان حيث أن له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة والسلطان الشامل ، وله حق القيام على دينهم ، فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، فهو نائب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعليهم أن يسمعوا له ويطيعوه لأن طاعة الائمة من طاعة الله ، ويؤيد ذلك كل من الشيخ على يوسف(١٠٦) ومحمد عبده(١٠٧) ومصـــطفى كامل(١٠٨) بالاضافة طبعا الى الأفغانى(١٠٩) المروج الـــكبير للجامعة الاسلامية .

غير أن للنديم رأيا مخالفا ، حيث يفضل الولاء للوطنية عن الارتباط بجامعة الدين ، بحيث اذا تعارض الدين مع الوطنية ، فانه يفضل الوطنية(١١٠) ، وعندما يصدر السلطان منشــــورا بعصيان عرابى ، يهاجم النديم المنشور ويطالب بالاستمرار فى الدفاع عن الوطن حتى لو اشتركت عساكر عثمانية ضدهم(١١١) ويقارن النديم بين عز الاســـتقلال بالوطنية ، والذل تحت راية الدين ، ويقرر أنه يفضل الأول(١١٢) .

ويتفق النديم فى موقفه هذا مع يعقوب صنوع الذى لم ير الدين فاصلا بين مصرى وآخر ، فالمصرى مصرى سواء كان يهوديا أو مسيحيا أو مسلما(١١٣) .

السياسة والتعليم :

دعا الطهطاوى الى تعليم أبناء الأمة أمور السياسة بطرق الشرع لا بطرق العقول المجردة(١١٤) .

وهذا لا يعنى التعارض بين السياسة كما حددها الشرع الدينى ، والسياسة كما حددها العقل البشرى ، بل يعنى التوفيق بينهما . فأحكام الشرع لا تتعارض مع احكام العقل ، فالشرع لا يحظر جلب المنافع ولا درء المفاسد ، ولا ينافى المجددات المستحسنة التى يخترعها من منحهم الله تعالى العقل(١١٥) .

والسياسة الشرعية التى تبناها الطهطاوى دعوة رددها كثير من الفقهاء مثل ابن القيم الجوزى ، الذى نقل عن ابن عقيل قوله : «السياسة ما كان فعلا يكون معه الناس اقرب الى الصلاح، وان لم يضعه الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولا نزل به وحى ، فان اردت بقولك الا ما وافق الشرع ، اى لم يخالف ما نطق به الشرع فصحيح ، وان أردت لا سياسة الا ما نطق به الشرع فغلط ، وتغليط للصحابة »(١١٦) .

وتعليم السياسة عند الطهطاوى يكون بتنمية الوعى السياسى للأفراد عن طريق ادخال مبادىء العلوم السياسية ضمن المناهج الدراسية الى جانب العلوم الأخرى ، لا سيما فى المراحل الأولى لأن ذلك فى النهاية مؤد الى فهم أسرار المنافع العمومية(١١٧) ، مثل خدمة الوطن فى العسكرية ، والالتزام بدفع حصة مخصصة من المال بوصف خراج أو عوائد أو نحو ذلك من جبايات الحكومة .

وهذا الوعى السياسى له تأثير معنوى فى تهذيب الأخلاق ، ومنه تفهم الأهالى ان مصالحهم الخصوصية لا تتم ولا تتجزأ الا بتحقيق المصلحة العمومية التى هى مصلحة الحكومة وهى مصلحة الوطن(١١٨) .

فالسياسة ليست من اسرار الحكومة الملكية لا ينبغى علمها الا لرؤساء الدول ونظار الدواوين ، بل هى مباحة لكل أبنـــــاء الأمة ، وربما يكون هذا سبب اعجاب الطهطاوى بالخديو اسماعيل الذى وصفه بأنه ، ليس فى ملوك مصر من يفخر به الأهالى مثل افتخارهم بالخديو الأكرم . حيث أنه تأســـست فى أيامه قواعد عدلية لا تحصى ، ومآثر منافعها جلية لا تستقصى ، ولو لم يكن له من المآثر الا كونه حمل الأهالى على أن يستنبوا عنهم نوابا ذوى فكرة المعية ليتذاكروا فى شأن مصالحهم المرعية لكفاه ذلك شرفا ومجدا وعزا وسعداء ، حيث صار مسئولا عن أمة حرة الراى باستشارتها فى حقائق التراتيب والتنظيمات التى يراد تجديدها لأجلهم(١١٩) .

ورغم أن الطهطاوى يرى أن الموضوعات السابقة تصلح لتعليم أبناء عامة الشعب ، وكذلك ابناء الملوك والطبقة الحاكمة ، فانه يشترح لتعليم ابناء الحكام مؤدبين ومعلمين أفضـــــن وأرقى وابعد عن « أرباب الدناءة »(١٢٠) ليتحقق للأمة بذلك سعدها ، مما يؤكد أن للتعليم دورا مهما ومؤثرا فى تشكيل مجمل التوجهات النفسية والاجتماعية للفرد ، مما يستلزم وقفة عند ملامح وقسمات التعليم المصرى فى تلك الفترة موضوع البحث .

هوامش الفصـــل الخامس

(١) نزيه نصيف الأيوبى ، الدولة المركزية فى مصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٨٩ ، ص ١٢ — ١٣ .

(٢) مورو ، بيرجر ، البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة ، درابسات من موظفى الحكومة ، ترجمة محمد توفيق رمزى ، النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٩ ، ص ٢٨ — ٢٩ .

(٣) عفاف لطفى السيد ، تجربة مصر الليبرالية ١٩٢٢/١٩٣٦ ، ترجمة عبد الحميد سليم ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ ، ص ١٣ .

(٤)راجع على سبيل المثال عجائب الآثار ، ح ٢ ، ص ص ٨٤ — ١٦٩ .

(٥) صبحى وحيدة ، فى أصول المسألة المصرية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ ، ص ١١٥ .

(٦) وعرف أيضا باسم الديوان الخديوى أو ديوان المعاونة .

(٧) تفصيل ذلك الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٥٢١ — ٥٢٣ .

(٨) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ح ١ ، مرجع سابق ، ص ٤٩ — ٥٠ .

(٩) أنور عبد الملك نهضة مصر ، ومرجع سابق ، ص ٢٨٨ — ٢٩٦ .

(١٠) فيليب حتى ، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى ، ح ١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، سنة ١٩٨٢ ، ص ١٣٢ .

(١١) عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى السياسة ، ١٨٨٢/١٩٣٦ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧ ، ص ١٢ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(١٣) ظلت كلمة قومية نادرة الاستعمال حتى ما قبل الحرب العالمية الأولى، واستخدمت مكانها كلمة وطنية .

(١٤) عن احمد محمد الحوفى ، وطنية شوقى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٣٩ .

(١٥) الرافعى ، عصر اسماعيل ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٥٩ .

(١٦) محمد قاسم ، جمال الدين الأفغانى ، حياته وفلسفته ، الأنجلو المصرية القاهرة ، د.ت ص ٢٦ .

(١٧) محمد باشا المخزومى ، خاطرات جمال الدين الأفغانى الحسينى ، المطبعة العلمية ، بيروت ، سنة ١٩٣٢ ، ص ١٣٨ .

(١٨) لم يفرق الطهطاوى بين الدولة والحكومة ، وشاركه معظم معاصريه فى ذلك مثل بطرس البستانى الذى يعرف الدولة بأنها الحكومة اجمالا والسلطة وكل ما يتعلق بالأحوال السياسية ، فى دائرة المعارف ، م ٨ ، مطبعة المعارف ، بيروت ، سنة ١٨٨٤ م ، ص ١٥٧ .

(١٩) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مطبعة شركة الرغائب بمصر ، سنة ١٩١٢ ، ص ٣٦١ .

(٢٠) الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٥٢٥ — ٥٢٦ .

(٢١) الطهطاوى ، التعريفات الشافية لمريد الجغرافية ، ط ٢ ، بولاق ، القاهرة ، سنة ١٨٣٨ م ، ص ٧٦ .

(٢٢) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٤٩ .

(٢٣) جمال الدين الأفغانى ، عصبة الجنس وعصبة الدين ، فى الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٣١٢ — ٣١٣ .

(٢٤) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٥٣ .

(٢٥) الطهطاوى ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، مرجع سابق ، ص ٩٩ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٩٦ .

(٢٧) الطهطاوى ، مناهج الألباب ، مرجع سابق ، ص ٣٥٤ .

(٢٨) الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، حـ ٤ ، مرجع سابق ، ص ١١ .

(٢٩) مرجع سابق ، ص ١٠١

(٣٠) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

(٣١) الطهطاوى ، مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك ، المطبعة السورية ، بيروت ، د.ت ، ص ٧١١ .

(٣٢) غالى شكرى ، النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث ، مرجع سابق ، ص ١٥٥ .

(٣٣) الطهطاوى ، مناهج الألباب ، مرجع سابق ، ص ٣٥٧ .

(٣٤) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(٣٥) الطهطاوى ، مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك ، مرجع سابق ، ص ٦٩٧ — ٦٩٨ .

(٣٦) المرجع السابق ، ص ٧٧٦ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٥١ .

(٣٨) عزت قرنى ، العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة ، عالم المعرفة رقم ٣٠ ، الكويت ، سنة ١٩٨٠ ، ص ٣٩ .

(٣٩) لويس عوض ، المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ، معهد الدراسات العربية العالمية ، م ٢ ، سنة ١٩٦٣ ، ص ١٣٦ .

(٤٠) محمد عابد الجابرى ، نقد العقل العربى ، تكوين العقل العربى ، دار الطليعة ، بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٠ ، ص ٣٦ .

(٤١) جمال الدين الأفغانى ، مصر والشرق ، فى الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، مرجع سابق ، ص ٤٧٧ .

(٤٢) الشيخ حسين المرصفى ، الكلمة الثمان ، مطبعة الجمهورية ، القاهرة ، سنة ١٩٠٣ ، ص ١٩ — ٢٠ .

(٤٣) الطهطاوى ، التعريفات الشافية لمريد الجغرافية ، ط ٢ ، بولاق ، سنة ١٨٣٨ م ، ص ٦٩ .

(٤٤) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٥٠ .

(٤٥) الطهطاوى ، نهاية الأيجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، مطبعة المدارس الملكية ، القاهرة ، سنة ١٨٧٣ م ، ص ٤٤٢ .

(٤٦) الطهطاوى ، تخليص الابريز الى تلخيص باريز ، دار التقدم ، القاهرة ، سنة ١٩٠٥ م ، ص ٧٣ .

(٤٧) محمد عمارة ، رفاعة الطهطاوى رائد التنوير فى العصر الحديث ، ط ٢ ، دار الشروق ، القاهرة ، سنة ١٩٨٨ ، ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٤٨) محمود فهمى حجازى ، أصــول الفكر العربى الحديث عند رفاعة الطهطاوى . الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ ، ص ٤٧ .

(٤٩) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مرجع سبق ص ١٧٨ .

(٥٠) المرجع السابق ، ص ٣٥٤ .

(٥١) محمد عمارة ، الفكر الاجتماعى عند على مبارك ، دراسات اشتراكية ، أغسطس سنة ١٩٧٨ ، ص ص ٦٢ — ٧٦ .

(٥٢) المرجع السابق .

(٥٣) نفس المرجع .

(٥٤) الطهطاوى ، الكنز المختار فى كشف الأرض والبحار ، مالطة ، سنة ١٨٣٦ م ، ص ٧٨ .

(٥٥) الطهطاوى ، تخليص الابريز الى تلخيص باريز ، مرجع سابق ، ص ٨٥ .

(٥٦) مناهج الألباب ، مرجع سابق ، ص ٣٨٨ .

(٥٧) البرت حورانى ، الفكر العربى فى عصر النهضة ، ترجمة كريم هزقولى ، دار النهار ، بيروت ، سنة ١٩٦٨ ، ص ٩٩ .

(٥٨) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

(٥٩) يونان لبيب رزق ، رفاعة الطهطاوى وقضايا عصره ، ندوة رفاعة الطهطاوى ، مطبوعات جامعة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٦٠) صبحى وحيدة ، فى أصول المسألة المصرية ، الانجلو ، القـــاهرة ، سنة ١٩٥٠ ، ص ١٦٩ .

(٦١) المرشد الأمين ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٦٢) أنور عبد الملك ، نهضة مصر ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٦٣) لويس عوض ، المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ .

(٦٤) عزت قرنى ، العدالة والحرية ، مرجع سابق ، ص ٢٤٨ .

(٦٥) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .

(٦٦) الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، مرجع سابق ، ص ٣٢٢ .

(٦٧) أنظر مطلبة تسوية الذمى بالمسلم وحرمه ظلمه فى مناهج الألباب ، مرجع سابق ، ص ٩٩ — ١٠٠ .

(٦٨) محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ ، ص ٢١٧ .

(٦٩) النديم ، الحياة الوطنية ، فى الأستاذ العدد الثانى ، ٣ أغسطس سنة ١٨٩٢ .

(٧٠) المرجع السابق .

(٧١) النديم، لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ، الأستاذ ، العدد ٢ ، يناير سنة ١٨٩٧ م .

(٧٢) النديم ، الجامعة الوطنية والأختلاط الوطنى ، الأستاذ ، العدد ٤ ، ٣ سبتمبر سنة ١٨٩٢ .

(٧٣) ليتين . ر . ك ، الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث فى لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة بشير السباعى ، دار ابن خلدون ، بيروت ، سنة ١٩٧٨ ، ص ٣٩ .

(٧٤) الجبرتى ، عجائب الآثار ، حـ ٤ ، مرجع سابق ، ص ٤٢ .

(٧٠) عبد اللطيف حمزه ، أدب المقالة الصحفية فى مصر ، حـ ١ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ ، ص ١٣٢ .

(٧٦) عبد الله العروى ، مفهوم الدولة ، المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٩٧ .

(٧٧) تخليص الأبريز ، ص ٢ .

(٧٨) مواقع الأفلاك ، مرجع سابق ، ص ٤٠٩ .

(٧٩) نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز ، مرجع سابق ، ص ٣٥٩ .

(٨٠) عبد الله العروى ؛ مفهوم الحرية ؛ المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء ، سنة ١٩٨٣ ، ص ١٢ .

(٨١) المرجع السابق ، ص ٢٥ .

(٨٢) المرشد الأمين للنبات والبنين ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ .

(٨٣) تخليص الابريز ، مرجع سابق ، ص ١٩ .

(٨٤) المرشد الأمين للبنات والبنين ، مرجع سابق ، ص ١٢٨ .

(٨٥) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٨٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٨٧) الطهطاوى ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، مرجع سابق ، ص ١٢٩ .

(٨٨) المرجع السابق ، ص١٣٠ .

(٨٩) الطهطاوى ، تخليص الابريز الى تلخيص باريز ، مرجع سابق ، ص ٩٠ .

(٩٠) المرجع السابق ، ص ٨١ .

(٩١) من نبيل راغب ، موسوعة الفكر القومى العربى ، حـ ٢ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٩ ، ص ص ٢١١ — ٢١٧ .

(٩٢) سليم النقاش ، الاستبداد فى الشرق ، جريدة العصر الجديد فى ١١ مارس سنة ١٨٨٠ .

(٩٣) أديب اسحق ، آثار الاستبداد فى الدولة الشرقية عموما والدولة العثمانية خصوصا ، جريدة مصر ، ٣١ يوليو ، سنة ١٨٧٩ م .

(٩٤) التنكيت والتبكيت ، العدد ١٤ فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٨١ .

(٩٥) جريدة مصر ، العدد ٤٢ فى ١٨ ابريل سنة ١٨٧٩ ، مقال النديم بعنوان (الحال) .

(٩٦) توفيق على برو ، العرب والترك فى العصر الدستورى العثمانى

١٩٠٨/١٩١٤ ، معهد الدراســـــات العربية العلمية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ ، ص ٢١ .

(٩٧) النديم ، كان ويكون ، ص ! ، مطبعة المحروسة ، القاهرة ، سنه ١٨٩٢ م ، ص ٢١ .

(٩٨) الطهطاوى ، التعريفات الشافية لمريد الجغرافية ، حـ ٣ ، مرجـــع سابق ، ص ٩١ .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٢ .

(١٠٠) الطهطاوى ، أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر ، وتوثيق بنى اسماعيل ، مطبعة بولاق ، سنة ١٨٦٨ م ، ص ٢٣٨ .

(١٠١) على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر لقاهرة وبلادها القديمة والشهيرة ، حـ ٩ ، مرجع سابق ، ص ٥٨ .

(١٠٢) محمد رفعت ، تاريخ بلاد المشرق ، معهد البحوث والدراســـات العربية ، لاقاهرة ، سنة ١٩٦٣ ، ص ٣٧ .

(١٠٣) احمد عرابى ، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، جزان ، مطبعة مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢ م .

(١٠٤) ذوقان قرقوط الوجه العربى لثورة عرابى ، الكاتب (١٢٧) اكتوبر سنة ١٩٧١ م ، ص ٤٦ .

(١٠٥) محمد انيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ١٥١٤/١٩١٤ م ، ط ٢ ، مكتبة سعيد رافت ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧ ، ص ١٢ .

(١٠٦) الشيخ على يوسف ، مصر بين يدى أميرها الجديد ، المؤيد ، أول فبراير سنة ١٨٩٢ .

(١٠٧) محمد رشيد ، تاريخ الأستاذ محمد عبده ، حـ ١ ، مطبعة المنار ، القاهرة سنة ١٩٣١ ، ص ٩٠٩ .

(١٠٨) على فهمى كامل ، مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا سيرته وأعماله من خطب واحاديث ورسائل سياسية وعمرانية ، حـ ٣ (٦ اجزاء) مطبعة اللواء ، القاهرة ، د.ت ص ٢٠٤ .

(١٠٩) الأفغانى ، الجنسية والديانة الاسلامية ، العروة الوثقى ، ٢٦ يوليو سنة ١٨٨٤ م .

(١١٠) النديم ، تجاذب الجنسيات والأديان ، الأستاذ ، العدد (٣٠) فى ١٤ مارس سنة ١٨٩٣ م .

(١١١) سليم خليل النقاش ، مصر للمصريين ، حـ ٥ ، (٩ اجزاء) مطبعة المحروسة ، الاسكندرية ، ص ٢٤٨ .

(١١٢) النديم ، لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا ، الأستاذ ، العدد ٢٢ فى ١٧ يناير سنة ١٨٩٣ م .

(١١٣) يعقوب صنوع ، أبو نظارة زرقاء ، أول يوليو سنة ١٨٧٩ م .

(١١٤) الطهطاوى المرشد الأمين للبنات والبنين ، مرجع سابق ، ص ٦٢ .

(١١٥) المرجع الســـــابق .

(١١٦) ابن القيم الجوزى ، الطرق الحكيمة فى السياسة الشرعية ، قدم له وعرف به محمد محيى الدين المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦١ ، ص ، ١٦ .

(١١٧) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٥ .

(١١٨) المرجع السابق ، ص ٣٥٠ .

(١١٩) المرجع السابق ، ص ٣٢٣ .

(١٢٠) الطهطاوى ، المرشد الأمين ، مرجع سابق ، ص ٦٧ .

الفصـــل الســـادس

معالم السياسة التعليمية فى خدمة الدولة

يمكن تتبع ملامح النهضة التعليمية فى مصـــــر فى القرن التاسع عشر ، ومدى مساهمتها فى خدمة اغراض الدولة المدنية الحديثة ، من خلال الموضوعات المتداخلة الآتية :

اولا — هيمنة الدولة على التعليم :

كان التعليم المصرى فى العصـــر العثمانى المملوكى نشاطا أهليا حرا يعتمد على الأوقاف والأعمال الخــــيرية فى الكتاتيب والمدارس الملحقة بالجوامع الى جانب الأزهر . الى ان وصل محمد على الى الحكم ، وفى محـــاولة لتأسيس الدولة بالمفهوم السياسى الحديث ، سعى الى هيمنة الدولة على كافة مناشط المجتمع ، ومن بينها التعليم المدنى الحديث الذى عمل على انشائه .

وقد ظل الدينى — كما كان نشاطا أهليا حرا ، وان قام الأزهر بدور معسكر الامداد بالرجال لمدارس محمد على المدنية الحديثة ، وبالتالى لم يكن من الحكمة أن يقطع محمد على علاقته بالأزهر ، رغم ما ابداه الأزهر من عدم مقدرة على تقديم تدريب بمســـتوى متطور للعلوم العصرية الحديثة . مما جعل من الضرورى على

محمد على أن يمد يده للخارج حتى تضيق الفجوة العلمية بين مصر وأوروبا(١) .

وربما يرجع قيام محمد على بانشاء تعليمى مدنى حديث الى ايمانه بأن التعليم قوة ، وبأنه قادر على اعادة تشكيل العقول ، وعلى تزويده بالرجال ذوى الولاء والتقبل والحماس لسياسات دولته ، والقادرين على الدفاع والذود عنها وقت الحاجة ، وكذلك على تحديث مؤسساتها ونظمها .

وربما يكون هذا ما دفع محمد على الى الاشراف بنفسه — بادىء الأمر — على كافة المنشآت والاصلاحات التى بدأها بمصر والتى استمدت كيانها من ارادته القوية ، اذ كان فى قرارة نفسه يميل الى تربية الرجال ليعاونوه على القيام بشئونها ، وسبيله الى ذلك تلك المجالس التى أنشأها كشورى الجهادية وشورى المدارس وشورى الأطباء .. هذه المجالس لا تعدو أن تكون فى كثير من النواحى — مدارس الأستاذ فيها محمد على نفسه ، والتلاميذ هم الموظفون ، والدروس هى تلك الأوامر والنصائح التى كان يوالى توجيهها اليهم ليحثهم فيها على العمل لرفعة بلادنا العزيزة « كما كان يقول دائما »(٢) .

وبالنسبة لاشراف الدولة وهيمنتها على التعليم ، تشكلت لجنة التعليم التابعة لديوان الجهادية سنة ١٨٢٦ م لممارسة تلك المهام . ثم فى سنة ١٨٣٦ م تم تشكيل مجلس عام للنظر فى تنظيم المدارس ، وكان هذا تمهيدا لانشاء ديوان المدارس سنة ١٨٣٧ م تحت رياسة مصطفى مختار بك الذى نقل كثيرا من نظم الادارة الفرنسية بحكم تعلمه فى فرنسا « حيث كانت المركزية تسود نمط الادارة التعليمية هناك ، فالجامعة الامبراطورية التى أنشأها

نابليون تحتكر التعليم وتشرف على المدارس كلها ، والجـامعة بدورها خاضعة كل الخضـوع لنابليون ، تستمد منه كيانها وسلطاتها ، ورغم سقوط نابليون وانحلال جامعته فان المركزية كانت من تقاليد التعليم الفرنسى »(٣) .

ومن ثم كان ديوان المدارس فى مصر هو الجهة الوحيدة التى تشرف وتوجه وتهيمن على التعليم الحديث ، وتفرض عليه سلطانها « فهى التى تضع اللوائح والقوانين ، ومنها تصدر الأوامر والنشرات الى المدارس التابعة لها ، وهى التى تعين موظفى المدارس ، وتعزلهم ، وتعاقبهم ، وهى التى تضع الخطط والمناهج ، وتقرر قبول التلاميذ ونقلهم من فرقة الى أخرى ، ومن مدرسة الى اخرى ، وهى التى تعد الامتحانات ، فأصـبحت المدارس نمطا واحدا ، وهذه مسألة كانت ضرورية لترسيخ نظام تعليمى حديث فى بدايته ، لذلك كان بحاجة الى وسيلة فعالة تخضع كل المدارس لسلطاتها وتتمكن من تحقيق ما أوكل اليها من مهام(٤) .

وبالرغم من انكماش حركة التعليم بعد سنة ١٨٤٠ ، فقد بقى ديوان المدارس يرعى الباقى من المنشآت التعليمية ، لذلك احتفظ عباس به رغم انه لم يكن فى فترة حكمة سوى مدرستين هما الطب والمهندسخانة . أما التعليم فى المفروزة فقد كان تابعا لديوان الجهادية .

وقد تمثلت أهم مهام الديوان فى الاشـراف على المبـانى والعمارة التى كان عباس مولعا بها .

لكن سعيدا الذى أبطل العمل بالعمارات ألغى الديوان سنة ١٨٥٤ م ومن ثم أصيب التعليم بالاضطراب بين انشاء والغاء ؛ وتبعية للمحافظة وتبعية للجهادية وتبعية للداخلية ، وأصـبحت

التعليم ثانوية بالنسبة الحاكم نظرا للجمود الذى اصـــاب حركة التحديث فى المجتمع والدولة .

وعندما تولى اسماعيل الحكم احيا ديوان المدارس ليشرف على توجيه النهضـــــة التعليمية ويرعاهـــا بما يتفق وطموحاته ومشروعاته فى محاكاة نظم الحياة الأوربية ومجالاتها العمرانية والحضارية . ولهذا اهتم فى نفس الوقت بانشاء المدارس ، حيث كان التعليم عنده من أهم مرافق البلاد ، ومن ثم وجب أن تخصص له الدولة جانبا من رعايتها . ومن ثم أصبح قيام ديوان المدارس بهيئاته الفنية والادارية خير ضمان لتحقيق الاتساق والانسجام بين مختلف معاهد التعليم التابعة له بما يضعه من سياسات ، ويرسم من قواعد ، ويصدر من أوامر ، وهو خير ضمان أيضا لأن تكون المشورة التى تقدم فى مسائل التعليم صادرة عن خبرة فنية وتجربة وروية .

كانت مركزية السلطة ، وهيمنة الدولة وسيلة فعالة لنمو التعليم واصلاحه خاصة ما كان فى مناطق بعيدة عن ســـلطان الحكومة ، كما كان وسيلة لنشر التعليم فى أوساط الشـــــعب المختلفة ، وخاصة اذا لم يكن لهيئات أخـــرى غير الحكومة من الكفاية ما يمكنها أن تقوم بنجاح بقسط كبير فى شئون التعليم(٥) . وهذا ما يؤكد عليه الطهطاوى ويبرره عندما يرى ان العــــلوم لا تنتشر فى عصر الا باعانة صاحب الدولة لأهله ، وفى الأمثال الحكيمة « الناس على دين ملوكهم » . فالأولاد فى الحكومة انما هم أبناء الحكومة والوطن ، ففيهم للوطن الأمل والرجــاء على العموم ، فأمر تربيتهم وطرق تاديبهم الى الحكومة موكول ، وعلى كاهل الملكة محمول(٦) .

لكن على مبارك يعارض هذا التوجه ويرى أن التعليم يجب ان يكون من متطلبات البيئة ويساير حاجاتها وبالتالى يجب أن يكون مسئولية شعبية ، بالاضافة لكونه مسئولية حكومية (٧) . ومن ثم فقد فتح باب تمويل التعليم من الأوقاف التى انقـــــرض مستحقوها ، والهبات والعون المالى من الأهالى وكذلك المصروفات المدرسية التى تدفعها الأسرة فى تعليم أبنائها وبالتالى يؤكد على مسئولية الأسرة فى تعليم أولادها .

ويتفق عبد الله النديم مع على مبارك فى توجهه السابق ، ويعتبر أن انتشار التعليم والمعارف من أهم عناصر الوطنية ، فيقول : « ان الحياة الوطنية هى انتشار المعارف والصنائع فى الأمة ، وأن التدهور والتذمر مع الجهل والفراغ من المعدات لا يفيد الا الخذلان »(٨) .

ونادى الأغنياء باسم الوطنية بالتعاون على رفعة الوطن فى المساهمة بما لديهم من مال وفكر وقوة ، فقال : لو علمت الوطنية ودرستها على خبير بها لعلمنا أن البلاد محتاجة الى فكرك وقوتك ، والأهل مفتقرون الى مالك »(٩) .

ثم ناشد النديم الأغنياء المســـاهمة فى انشاء المدارس ، فقال : « ما بالنا لا نتعاون على تشييد المدارس فى بلاد أوقعها الجهل فى موقع الخسران ، مع العلم بأن المدارس هى الأصل الذى نبنى عليه نجاح المقاصد ، اذ أنها هى الواسطة العظمى فى اكتساب الفضائل التى أقل ما فيها حسن تربية الأبناء التى نحن فى حاجة اليها »(١٠) .

وربما كانت دعوات النديم لتحمل الأغنياء جزءا من نفقات

التعليم انفعالا وتجاوبا مع ظاهرتين متناقضتين فى التعليم المصرى فى سبعينات القرن التاسع عشر وهما :

١ — الصعوبات المالية الهائلة التى واجهت الحكومة المصرية ، ومن ثم جعلت معظم الاصلاحات التعليمية وقتها مجرد حبر على ورق (١١) .

٢ — الجهد الخاص والطائفى المدعوم ببذخ من الحكومة فى مجال اقامة المدارس الخاصة والطائفية والتى شهدت رواجا وازدهارا وقتها(١٢) .

مما برر قيام النديم بزيارة انحاء مصر يحث أهلها على افتتاح الكتاتيب والمدارس الأهلية ، لأنه لا اصلاح بدون « افتتاح المدارس ونشر المعارف والتفنن فيما يجلب الثروة ويحفظ الأمة »(١٣) .

ثانيا — تنظيم التعليم :

تم تنظيم التعليم المدنى الحديث فى مصر فى القرن التاسع عشر على النحو التالى :

١ — التعليم الابتدائى ، عرف فى مصر باسم مكاتب المبتديان (بغض النظر عن التعليم الأولى بالكتاتيب والزوايا والمساجد) والتى بدىء فى انشائها سنة ١٨٢٣ م وبلغت حوالى ٥٢ مدرسة بالمحافظات ، وكانت تابعة للمديريات التى انشئت بها ، وتحت اشراف ديوان الجهادية ، وذلك لتعليم وتثقيف التلاميذ وتهيئتهم للمدارس التجهيزية ، ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات يبدؤها التلميذ أميا يتعلم خلالها القراءة والكتابة ومبادىء الحساب والدين(١٤) .

وقد تذبذبت أوضاع تلك المكاتب فحينا تعمها الفوضى والاضطراب وحينا تمد لها الحكومة يد الاصلاح والتنظيم ، ويوما

نراها مجرد اداة للاعداد للمدارس التجهيزية ، ويوما نراها اداة لنشر التعليم بين سواد الشعب ، وقد يأتى وقت يزداد عددها ليربو على الستين ، وقد يأتى وقت يقل فيه عددها حتى لا يتجاوز اصابع اليد الواحدة(١٥) .

ويمكن تتبع تعرجات تلك التذبذبات فى الأشكال التالية :

(أ) فى سنة ١٨٣٦ م نظم شورى المدارس هذه المكاتب واشتد اشرافه وسلطانه عليها باستخدام مفتش لهذا الغرض وحددت غرض هذه المكاتب بالتحضير للمدارس التجهيزية ، ونشر مبادىء العلوم للأهالى ولمدة ثلاث سنوات ، وانشئت ٤ مكاتب بالقاهرة ، وواحد بالاسكندرية .

(ب) فى سنة ١٨١٤ م اعادة ترتيب تلك المكاتب وفق غرضها وهو اعداد التلاميذ للمدارس التجهيزية ، فنقص عددها الى ٤ مكاتب بالأقاليم ومكتب فى كل من القاهرة والاسكندرية وذلك بعد معاهدة سنة ١٨٤٠ م التى ادت الى انكماش حركة التعليم ، وعرفت منذ ذلك الحين باسم مدارس المبتديان .

(ج) فى سنة ١٨٤٤ م زاد اهتمام ابراهيم باشا بهذا التعليم فأنشأ مكتبا نموذجيا تجريبيا على غرار ما كان بفرنسا وانجلترا وكان العزم انشاء مكاتب شبيهة لنشر التعليم بين المصريين فى أقرب وقت وبأسهل طريقة(١٦) .

وفى أيام عباس الغيت المكاتب الأربعة بالاقاليم وتحولت الى مكاتب أهلية ، وضم مكتب القاهرة الى مدرسة المهندسخانة ، كما انتهى عصر سعيد وليس بمصر من المدارس الحكومية سوى مدرستين ، المدرسة الحربية بالقلعة ، ومدرسة الطب بالقاهرة ،

اذ الغى سعيد مدارس المبتديان لانه « لدى النظر بعين المصلحة مى تقويمها على وجه الانتظام ، راى ان بقاء هذه المدارس بالحالة التى هى عليها الآن لا ينتج منه الفوائد المقصودة »(١٧) . غير أن هذه حجة واهية تخفى غرض سعيد الحقيقى من اغلاق تلك المدارس ، ذلك الغرض الذى يفصح عنه فى قوله عن التعليم « لماذا افتح اليه اعين الناس ؟ ان حكمهم يصبح اصعب »(١٨) . ومن هذا يبدو التعليم الضـــــحية الكبرى لجهل الحكام وتخلفهم ومعاداتهم لنهضة الشعوب . وهو ما يؤكده اغفال سعيد لمشروع لائحة المكاتب الأهلية التى تقدم به كل من ابراهيم أدهم والطهطاوى والذى ظل كذلك حتى جاء على مبارك ووضعه موضع الاهتمام ضمن لائحة رجب فى عهد الخديو اسماعيل(١٩) . وفى ٢٦ يناير سنة ١٨٦٣ م أمر اسماعيل بانشاء مدرستين ابتدائيتين ، واحدة بالقاهرة واخرى بالاسكندرية .

وتعد بداية الحياة النيابية فى مصر سنة ١٨٦٦ م مؤشرا مهما فى تطور ذلك النوع من التعليم ، حيث نصت اللائحة الداخلية للمجلس على ضرورة تعلم العضو القراءة حتى عمر ١٨ سنة ، والناخب حتى عمر ٣٠ سنة مما يعنى أن التعليم قد غدا واجبا قوميا وفعلا سياسيا بالاضافة لكونه فعلا تربويا .

وتداقر المجلس النيابى مجموعة مبـــــادىء مهمة فى هذا المجال منها ضرورة انشاء مدرسة ابتدائية لكل مديرية مع ضرورة العناية بتنظيم المدارس القائمة بالقاهرة والاسكندرية ، ويكون الالتحاق بها حقا لجميع المصريين اغنياء وفقراء على اختـــــلاف دياناتهم شرط الا يتجاوز السن ١٤ سنة ، وتعتمد فى ميزانتيها على الأوقاف التى انقرض مستحقوها ، وعلى هبات الأهالى .

وقد وضع على مبارك لائحة تضع المبادىء السابقة موضع التنفيذ عرفت باسم لائحة رجب فى مايو سنة ١٨٦٨ م تتضمن الاعتماد على التعليم الشعبى فى المكاتب الأهلية أو الكتاتيب ، وهو التعليم المتصل بروح الشعب وعاطفته وتحت هيمنة الحكومة وبتمويل أهلى ، كما يقوم الأهالى القادرون بالانفاق على أبنائهم بتحمل مصروفاتهم المدرسية ، وكانت تلك الخطوة أهم معالم التجديد للتعليم المصرى فى القرن التاسع عشر .

٢ ـ المدارس التجهيزية ، هى مدارس تعتمد فى طلابها على مدارس المبتديان ، وتؤهل للمدارس الخصوصية العالية ، ولمدة ٤ سنوات ، ويرجع تاريخها الى سنة ١٨٢٥ م ، حيث انشئت مدرسة قصر العينى التجهيزية لاعداد تلاميذها للمدرسة الحربية والطب والمهندسخانة ، وكانت تضم علوما مدنية وعلوما عسكرية نظرا لتبعيتها لديوان الجهادية ، وكان التعليم فيها باللغة التركية ، وان كان التلاميذ يتعلمون العربية والايطالية(٢٠) . وكانت واحدة بالقاهرة ، واخرى بالاسكندرية . وفى سنة ١٨٤١ ضمت تجهيزية القاهرة لمدرسة الالسن ، ثم الغيت ، ثم الحقت بمدرسة المهندسخانة .

أما تجهيزية الاسكندرية فكانت بالمدرسة البحرية التى ضمت ابتدائية وتجهيزية معا أى ست سنوات . والى جانب المدرستين السابقتين ، انشىء المكتب العالى بالخانكة سنة ١٨٣٦ م الذى يضم تلاميذ متميزين من أبناء الأمراء والمماليك واهتم المكتب بالألعاب الرياضية .

وبعد معاهدة سنة ١٨٤٥ م ، واثناء حكم عباس لم يكن بمصر سوى مدرسة تجهيزية واحدة الغاها سعيد بعد توليه

وعندما تولى اسماعيل الحكم أمر بانشاء مدرسة تجهيزية بالقاهرة سنة ١٨٦٣ م .

٣ — التعليم العالى ، بدأ محمد على النظام التعليمى الحديث بالمدارس العالية ، ويصف الرافعى ذلك بأنه : « نعم ما فعل محمد على لأن الأمم انما تنهض أولا بالتعليم العالى الذى هو أساس النهضة العلمية »(٢١) . وهو الذى أمد محمد على بالقوى البشرية اللازمة لأعمال الحكومة والجيش وكانت أولى المدارس العالية هى مدرسة المهندسخانة بالقلعة سنة ١٨١٦ م وأحضر لها الباشا الآلات اللازمة ، وأمدها بقرابة ثمانين تلميذا توسم فيهم القابلية للتعليم ، ورتب لكل منهم مصروفا شهريا وكسوة ، كما رتب لهم وسائل نقلهم من والى المدرسة ، وعين لها المدرسين سواء من المصريين أو الأجانب الذين عين لهم مترجمين .

وفى سنة ١٨٣٤ م ونتيجة لشدة حاجة البلاد الى خريجى الهندسة ، تم انشاء مدرسة أخرى ببولاق .

وفى سنة ١٨٢٧ م تم انشاء مدرسة الطب باقتراح من كلوت بك ، وكانت ملحقة بالمستشفى العسكرى بأبى زعبل ، واختير لها مائة طالب من الأزهر ، وعين لها أساتذة من فرنسا لتدريس التشريح والجراحة ، وأساتذة آخرون لتدريس الفرنسية للطلبة واشتغل خريجو مدرســـة الطب — بعد خمس ســـنوات من الدراسة — بالمستشفيات وفيالق الجيش ، ومنهم من بقى مدرسا بها أو ارسل الى بعثات لتعليم الطب بأوربا .

وألحقت بمدرسة الطب مدرسة خاصة للصيدلة ثم مدرسة القابلات والحكيمات ، واستقرت المدرسة سنة ١٨٣٧ م بقصر العينى بالقاهرة .

ثم توالت بعد ذلك المدارس العالية كمدرسة الالسن سنة ١٨٣٦ م ومدرسة المعادن ، ومدرسة الزراعة بنبروه ، ومدرسة المحاسبة بالسيدة زينب ، ومدرسة الفنون والصنائع (العمليات) ، ومدرسة الطب البيطرى ، مما يواجه حاجة المشروعات النهضوية فى مجالات الزراعة والصناعة وامدادها بالخبراء اللازمين ، كما حاجة البلاد بأدوات الاتصال بالدول الأجنبية ونقل علومها الحديثة الى اللغة العربية . وبعد معاهدة سنة ١٨٤٠ م لم يبق من تلك المدارس العالية سوى عدد محدود لاعداد الضباط والمهندسين والمترجمين . ولم يزد عدد المدارس فى عهد عباس عن أربعة : المبتديان والتجهيزية والمهندسخانة والطب التى الغاها سعيد بعد توليه الحكم .

وعندما تولى اسماعيل الحكم عمل على تنظيم مدرستى الطب والحربية ، كما افتتحت فى عهده العديد من المدارس كمدرسة الطب البيطرى بالعباسية سنة ١٨٦٤ م ، والمهندسخانة بالعباسية سنة ١٨٦٦ م ، ومدرسة الزراعة بالعباسية سنة ١٨٦٧ م ، ومدرسة الادارة والحقوق ومدرسة المساحة والمحاسبة سنة ١٨٦٨ م ، ومدرسة اللسان المصرى سنة ١٨٦٩ م ، ودار العلوم سنة ١٨٧٢ م لسد احتياجات النظام التعليمى الحديث الى مدرسين متخصصين فى مجال اللغة العربية وآدابها .

ولقدساير الطهطاوى ذلك التنظيم السابق فى كتاباته وتصوراته عن تنظيم التعليم اذ يرى : أن يكون النظام التعليمى على النحو التالى :

ـ **تعليم أولى :** عام لجميع الناس ، الأغنياء والفقراء وهو ما يحتاج اليه كل انسان حاجته الى الخبز والماء(٢٢) ويميل الطهطاوى الى جعل هذه المرحلة مسئولية الدولة ، ويشيد ببعض

الدول مثل بلاد جرمانيا « حيث دخول البنات والغلمان للمدارس واجب قانونى »(٢٣) .

— **التعليم الثانوى** : الذى لاحظ الطهطاوى انصراف الكثيرين عنه لصعوبته ، ومن ثم وجب على الحكومة حث الأهالى وترغيبهم فيه لأن به « يكون تمدن جمهور الأمة وكسبها درجة الترقى فى الحضارة والعمران »(٢٤) .

— **التعليم العالى** : وهو مرحلة يراها الطهطاوى مقصورة على أناس قلائل ، وكل من طلب الاشتغال بالعلوم العالية لابد أن يكون صاحب ثروة ويسار ، ويكون مقيداً بقيود خاصة فى الفنى والاعتبار ، بحيث لا يضر تفرغه للعلم بالملكة ، فمن الخطر على من له صناعة يتعيش منها ، وينتفع منه الناس أن يترك هذه الصناعة ليدخل فى دائرة معالى المعارف التى لا تصلح أن تكون له بصناعة(٢٥) .

واذا كان على مبارك قد اعترض على دمج التعليم العسكرى بالتعليم المدنى — كما فى مدرسة المفروزة — ونجح فى الفصل بينهما فان عبد الله النديم قد اعترض على الفصل بين التعليم الدينى والتعليم المدنى حتى يخرج رجال الدين من انكماشهم ، وخصوصا فى النواحى السياسية ، لأنه رأى أن العلوم الدينية من السياسة(٢٦) . غير أنه لم ينجح فى دمجهما وظل النظام التعليمى يفصل بين ما هو دينى وما هو مدنى .

ثالثا — التعليم والحراك الاجتماعى :

يعد التعليم عاملا مهما فى تحديد الوضعية الاجتماعية للفرد حيث يسهم فى تشكيل الحراك الاجتماعى والتفاضل فى سلم

المكانة والنفوذ . كما أن التكوين الطبقى للمجتمع يفرض لونا وخطا معينا للنسق التعليمى(٢٧) .

وهذا ما يبدو فى شكل ووظيفة التعليم فى مصر فى القرن ١٩ ، فقد كان التعليم قبل محمد على تعليما دينيا يغلب عليه الطابع الأخلاقى التهذيبى ، ويتم فى اطار روحانى ، نقلى ، شكلى يهتم باللفظ دون الفكر ، ويرمز بوجه عام للروح السائدة فى أصول الفقه والمنطق الصورى . وتم فى المساجد كمسجد عمرو بن العاص ومسجد أحمد بن طولون ، ومنذ سنة ٩٧٠ م اضطلع الأزهر بدوره التعليمى فى نشر علوم اللغة والدين والفقه سواء فى القاهرة أو فى فروعه المنتشرة فى أنحاء مصر عبر مساجدها الصغيرة أو فى الكتاتيب — صورة مصغرة للأزهر والمدرسة الوحيدة المؤهلة له — التى مثلت التعليم الابتدائى فى حين أن الأزهر كان يمثل التعليم العالى والذى حبست عليه الأوقاف من أغنياء المسلمين لتدر الخير عليه وعلى طلابه .

وعلى الرغم من أن التعليم الدينى فى مصر كان خلوا من علوم الدنيا التى تفيد صاحبها فى زراعة أو صناعة أو تجارة أو غيرها ، وأنه ظل تعليما لفظيا ، فقد ظل الأزهر الينبوع الذى تنهل منه الثقافة فى مصر . ثم كان منهــــلا انتهلت منه المدارس الحديثة فى نشأتها ، فاستمدت منه الكثير من طلابها سواء المدارس العالية أو فى البعثات أو فى مجال تنقيح وتهذيب الكتب المترجمة .

وقد ظلت القوى البشرية المتعلمة تعليما أزهريا الأكثر عددا والأكثر انتشارا حيث بقوا فى كل الأحوال على ســــطح الحياة المدنية ، كما ظل التعليم الدينى يحتضن أبناء مصر فى المدن والقرى غير متأثر بمزاج حاكم أو اتفاقية دولية .

ورغم ذلك فان ثنائية التعليم المدنى/الدينى قد أثرت وبشكل فعال فى عملية الحراك الاجتماعى ، خاصة فيما يتعلق بوضع طبقة علماء الدين وطبقة المثقفين الجدد .

فثمة دولة حديثة تبدو فى الأفق ، وثمة خطوات عديدة يجرى تنفيذها على قدم وساق لارساء دعائم هذه الدولة من جيش واسطول ونهضة اقتصادية ونمط تعليمى حديث ، وهذا التغيير لابد أن يحمل فى طياته بذور الحراك الاجتماعى ، وان كان بطبيعته محدودا وبطيئا فانه سيتيح للمصريين المشاركة بنصيب فى هذه التغيرات القائمة ، فكانت استعانة محمد على بالمصريين فى الجيش والأسطول ، بالاضافة الى تزايد الاعتماد على العنصر الوطنى فى الوظائف الادارية ، حتى وصل بعضهم الى مديرى مديريات فى عهدى سعيد واسماعيل(٢٨) .

وذلك أن محمد على عندما فكر فى تنظيم أمور الدولة كان فى حاجة ماسة الى قوى بشرية متعلمة وتمدربة تعليما وتدريبا يتفق مع طبيعة الدور الجديد فى دولة ناهضة ، فأنشأ نظاما تعليميا حديثا ، ونقل علوم الغرب وفنونه فى صورة منظمة وافية ، ومن ثم اتجه الى الأجانب ينشئون المدارس ويشرفون عليها ويضعون برامجها ولوائحها ، فكان تعليما غربيا عونا للقيام بما استجد من نظم مستمدة أيضا من بلاد الغرب(٢٩٦) .

ورغم ذلك لم تتجاهل تلك الاجراءات التقليدية الدينية والقومية فى مصر ، بل انها اعتمدت فى بدايتها على القوى البشرية المتعلمة تعليما دينيا لتكون نقطة البداية فى مشروع النظام التعليمى الحديث .

وبناء على ذلك ، لم يقم محمد على بتحويل التعليم الدينى الى تعليم مدنى . فقد كان لعلماء الدين فى مصر مكانة كبيرة لاشتغالهم

فى أمور الدين مما أضفى عليهم الاحترام والتبجيل فأهلهم ذلك لدور الوساطة بين المصريين والحكام .

وقد تجلت قوة هذه الطبقة فى أعلى درجات صعودها عندما ظهرت على مسرح الأحداث السياسة وقت الحملة الفرنسية ، ونشاطها فى الديوان الذى أقامه بونابرت ، وكذلك نشاطها فى تحريك الشعب وقيادته للثورة عليها .

وكانت مساهمة هذه الطبقة فى اختيار والى مصـــــر وفق شروطها تتويجا للدور السياسى لها .

أما على مستوى الفعل الاقتصادى ، فقد جمعت هذه الطبقة ثروات هائلة ، وكان عدد كبير منهم ملتزمين على مساحات شاسعة وامتلكوا ملكيات ضخمة ، وكانوا يديرون عددا كبيرا من الأوقاف المهمة(٣٠) ، كما عمل بعضهم بالتجارة سواء الداخلية أو الخارجية مما يعد أعلى درجات الاستثمار لما كان يتطلبه من قدر كبير من راس المال(٣١) .

لكن فى عهد محمد على ضعف مركز تلك الطبقة اقتصاديا وذلك بسبب الغاء نظام الالتزام واستيلاء الحكومة على الأوقاف الخيرية ، واتباع سياسات الاحتكار . كما ضعف مركزهم السياسى بعد صدام محمد على بزعاماتهم الدينية ، ونفى عمر مكرم ، أما مكانتهم الاجتماعية فقد تراجعت خاصة بعد قيام الدولة الحديثة واحلال النظام التعليمى المدنى الحديث محل نظام التعليم الدينى ، وكذلك الانفتاح على الغرب ، وظهور طبقة المثقفـــــين المتأثرين بالثقافة الغربية(٣٢) . غير أنهم عادوا الى التمتع بمكانة اجتماعية كبيرة فى عصر اسماعيل لما ابدوه من ولاء وعدم المعارضة أو المطالبة بأى حقوق سياسية ، فعاشوا فى بحبوحة من العيش ورفلوا فى نعيم البلاط وتمتعوا باحسان الحاكم(٣٣) .

غير أن الأزهر بمجيء الأفغانى مصر ، خرج من دوره التقليدى وبدأ بعض علمائه بالمساهمة فى نقد المجتمع واظهار مساوئه واقتراح حلول لعلاجها ، كما ظهرت طائفة اخرى من العلماء اهتمت بالدفاع عن الدين وتنقيته من الدخلاء وعملوا على نشر الوعى الدينى بين طبقات المجتمع المصرى(٣٤) .

وتمثلت قمة التأثير الأزهرى فى المجتمع المصرى فى الدور الفعال والمؤثر فى ثورة عرابى .

أما طبقة المثقفين التى تكونت فىعصر محمد على واحتلت مراكز حكومية مرموقة ، وامتلكت الأراضى ، وعاشت فى مستوى مادى مرتفع ، فانها لم تقم بدور فعال فى توجيه التطورات السياسية والاجتماعية فى عصره ، كما أن نشاطها قد تحدد فى عهدى عباس وسعيد نظرا لنفى طائفة منهم ، واغلاق المدارس وحرمان المصريين من البعثات ، لكن دورهم انتعش فى عصر اسماعيل الذى زاد من انفتاح مصر على الغرب وزاد من عدد المدارس والبعثات سواء كانت حكومية أو اهلية خاصة .

وهذه الشريحة الاجتماعية اتيح لمعظمها التمتع بنفوذ اجتماعى وثراء مادى كبيرين ، هذه الشريحة بحكم تعلمها تعليما مدنيا حديثا كانت المحرك الأول للنهضة كما رسمتها الدولة ، ونجحت هذه الشريحة على المدى البعيد فى نشر الثقافةوالعلوم العصرية واسهمت فى زيادة الوعى السياسى والثقافى فى البلاد(٣٥) .

وربما يتفق هذا الدور مع نبوءة الطهطاوى لمهام ومسئوليات المثقف ، حيث كان يرى أن مسئولية المثقف ليست فقط مقصورة على دراسة العلوم الحديثة ، بل ان من مهامه مساعدة الحاكم فى مهام منصبه(٣٦) .

فالمثقفون من أدوات التغيير الاجتماعى ، ومن ثم وجب عليهم الاتصال بالناس فى كل مكان من أجل تغييرهم ومساعدتهم على التطور ، والتعليم أمر حيوى ومهم لرفاهية ونهضة المجتمع ، ومن هنا يكتسب المثقف أهميته وفاعليته الاجتماعية .

وربما يكون هذا ما دفع على مبارك الى التأكيد على الصعود الاجتماعى لطبقة المثقفين وارتقائهم على طبقة العلماء المشايخ ، وذلك عندما قام بتصنيف طبقات المجتمع فوضع طبقة (الغز) — وهى بقايا العائلات القديمة من مماليك وملتزمين — على قمة الهرم لما لهم من امكانيات مادية كبيرة ، ثم وضع بعدها طبقة (الذوات) — وهى الارستقراطية الجديدة من العسكريين والاداريين ممن تعلموا فى مدارس مصر العالية أو بالخارج — ثم تأتى بعدهم طبقة العلماء ذات السلطة الدينية والأدبية .

وربما كان هذا أيضا هو ما دفع عبد الله النديم الى ضرورة تعميم التعليم بين طبقات الشعب حتى تنتشر المعارف فى جميع انحاء البلاد ، لأن الأمة لا تستطيع الوصول الى مشارف المدنية الا بتعليم كافة ابنائها ، اما اذا اقتصر التعليم على أفراد معلومة أو طبقة دون أخرى فقد رجعنا بمدينتنا القهقرى »(٣٧) .

رابعا — محاولات تطور التعليم المصرى فى القرن ١٩ :

يشير مفهوم التعليم الى مدلولين :

الأول : تنظيمات ومؤسسات رسمية قامت فى وقت معين لتحقيق أهداف محددة وفق منظومة ادارية وفنية معينة .

الثانى : نسق فكرى واتجاه تربوى هو ناتج تحقيق أهداف عملية التعليم كمؤسسات وتنظيمات ، وموجه لها ومساهم فى تشكيلها وتطويرها فى نفس الوقت .

واذا كان المدلول الاول هو ما نستطيع تلمســـــه فى الفعل التعليمى الرسمى للدولة، ممثلا فى قراراتها ونشـــــراتها . فان المدلول الثانى يمكن تلمسه فى آراء وفكر المفكرين والتربويين .. واذا كان المدلول الاول يشير الى الواقع والراهن والحالى ، فان المدلول الثانى يشير الى الطموح والمأمول والمستقبل ، مما يعبر عن حقيقة فكر النهضة فى مجال التربية ومجال التعليم .

وقد تمثلت محاولات تطوير التعليم المصرى فى القرن ١٩ فى كلا المحورين ، وهو ما سنعرض له فى الآتى :

اولا — محاولات التطوير على المستوى الرسمى :

بدأت محاولات تطوير وتحديث التعليم المصرى مع ابراهيم باشا الذى مال الى التجديد بحكم ما رآه من تمتع الشعوب الغربيه من رقى وتحضر ، وكان يرى فى التعليم اسرع الوسائل واجداها لبلوغ هذه الغاية من الرقى والتحضر ، وكان يرى : ان يشترك الأهالى مع الحكومة فى الاهتمام بالتعليم وذلك بأن يتحملوا قسطا من تكلفته . فهم اذا بذروا تعهدوا بذرهم بالرعاية حتى يؤتى ثمرها وهم اذا ساهموا فى تنشئة ابنائهم واولوهم بعنايتهم وتعهدهم حتى يشبوا رجالا . فالتعليم عند ابراهيم ليس مجرد وســـيلة لامداد الحكومة بما يلزمها من الموظفين ، بل هو كذلك وفوق ذلك اداة لترقية المجتمع(٣٨) .

وتمثلت حركة التطوير فى عهد ابراهيم فى قسم الحق بمدرسة المبتديان ويسمى المكتب المستجد ، وهو عبارة عن فصل تجريبى يتم فيه فحص طرق الدراسة وموادها الجديدة ، حتى اذا ثبت نجاحها طبقتها الحكومة فى المكاتب الاخرى .

وعلى مستوى التعليم العالى فكر ابراهيم فى جمع مؤسساته المتعددة فى دائرة واحدة بانشاء دار للفنون تدرس بها جميع الفنون العالية ، أو هى بمثابة جامعة تنتظم بها معاهد التعليم المختلفة على غرار جامعات أوروبا أو الجامعة العثمانية التى استمد منها اسمها « دار الفنون » . لكن ابراهيم لم يعش ليحقق أحلامه(٣٩) . وفى عهدى عباس وسعيد لم يكن ثمة محاولات جادة للتطوير ، حيث قام عباس بتقليص ميزانية التعليم الى حد تعطيل مصالحه(٤٠) ونفى الطهطاوى الى الخرطوم ، كما قام سعيد بالتخلص من على مبارك بارساله الى القرم مع الحملة العسكرية اليها ، وعندما عاد الحقه بمعيته ولكن بلا عمل(٤١) .

وفى عهد اسماعيل تمثلت محاولات التطوير التعليمى فى الآتى :

١ — قرارات مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ م التى اعتبرت التعليم دعامة النهضة التى كان ممثلو الأمة فى المجلس يرجونها لمصر ، وانتهت مداولاتهم الى :

(أ) انشاء مدرسة بكل مديرية ويكون حجم المدرسة مقترنا بتعداد المديرية ، ويقوم ديوان المدارس بتنظيمها .

(ب) انشاء مكاتب المديريات فى أماكن تقترب من خطوط السكة الحديد تيسيرا لسبل الوصول اليها . وأشار شريف باشا ناظر المعارف بالمجلس الى أن تستخدم لهذا الغرض الأبنية التى تملكها الحكومة فى الأقاليم بعد اصلاحها بمعرفة ديوان المدارس وجعل الالتحاق بهذه المدارس أو المكاتب مباحا لأبناء الشعب جميعا حتى سن ١٤ سنة .

(جـ) يترك لديوان المدارس تحديد مدة الدراسة بهذه المدارس

وخطة الدراسة بها على أن يمتحن تلاميذها فى آخر السنة الدراسية أمام مندوبين من الحكومة وبحضور عمد البلاد .

(د) يترك لديوان المدارس تحديد (التعيينات) التى تصرف لتلاميذ المدارس ، ومصروفات هذه المدارس تكون من المديريات والمحافظات القائمة بها ويجعل لذلك باب خاص فى حساب كل جهة وايرادات هذه المدارس تكون من الأوقاف التى انقرض مستحقوها .

(هـ) تقيد هبات الأهالى بكل محافظة أو مديرية فى سجل خاص ، وفى آخر كل سنة يرفع بيان بايراد المدرسة ومصروفاتها الى ديوان المدارس .

(و) يعين فى آخر كل سنة عمدة من كل قسم وعمدتان من كل مديرية لينظر كل منهم فى جهته ما ورد من هبات الأهالى . وأوضح ناظر المعارف أن : رأى الحكومة فيما يتعلق بالايرادات التى يتبرع بها أهلها لهذه المدارس تكون محصورة على منفعة مدرستها ومصروفة فى ادارتها والغرض من ذلك زيادة تشويق وترغيب لمن تبرعوا بما يؤدونه الى المدارس(٤٢) .

وكانت تلك القرارات تمثل نظرة جديدة للتعليم الأولى باعتباره واجبا قوميا لا تختص به الحكومة وحدها ، بل الأهالى أيضا ويتمثل ذلك الواجب الأهلى فى التبرعات والهبات وتحمل النفقات ، لذلك سميت بالمكاتب الأهلية(٤٣) .

٢ — لائحة رجب سنة ١٢٨٤ هـ ، سنة ١٨٦٨ م :

تمثلت الآراء السابقة فى مبادىء سياسية عامة حيث قام على مبارك بوصفه رجل تعليم الى ترجمتها كخطوات اجرائية فى لائحة تتضمن سبل تنفيذ المبادىء العامة التى أقرها المجلس ، وتقدم بها

الى الخديو اسماعيل الذى احالها الى لجنة لدراستها ، ورفع ما يستقر عليه الرأى .

وضمت اللجنة كبار الموظفين والعلماء وبعض الأعيان ، واقرت اللائحة فقام على مبارك بنشرها فى الوقائع المصرية لتكون معلومة حيث تلوح منها أنوار التربية الأهليــة وتنوير العقول ، واشارت اللائحة الى التفرقة بين تعليم أميرى يقوم بسد احتياجات الدولة وتعليم أهلى فى الكتاتيب ، الأول يقدم علوما عصرية ، والثانى علوما دينية ، الأول تهيمن عليه الحكومة وتنفق عليه ، والثانى ينفق عليه الأهالى ، الأول متقدم ، والثانى حد أدنى ، غير انه منتشر فى جميع أنحاء مصر ، ومن هنا أهميته كوسيلة لنشر التعليم بين أبناء البلد ، لكن بعد اصلاحه وتهذيبه وتحسينه ، ولن يتحقق ذلك ــ كما رأت اللائحة ــ الا بهيمنة الدولة عليه . وعلى مبارك هنا هو اول من قرر هيمنة الدولة على جميع أنواع التعليم باستثناء التعليم الطائفى ، وذلك بهدف نشر التعليم ، تلك المهمة التى فشلت المدارس الأميرية فى تحقيقها . أما التمويل فعن طريق الأوقاف التى انقرض مستحقوها ، بالاضافة للهبات والعون المالى من الأهالى . أما الاشراف الفنى فمن واجب الحكومة توفير رجال التعليم والصحة والهندسة والبناء .

اما عن المدارس الابتدائية فتكون ــ كما نصت اللائحة ــ بعواصم المديريات وسميت بالمدارس المركزية ، وادخلت عليها اللائحة نظام الخارجية والمصروفات المدرسية ، ثم نهجت نهج المدارس الابتدائية الأميرية .. نظام داخلى مجانا دون تناول راتب شهرى من الحكومة ، لكن منذ سنة ١٨٧٢ م فرضت الحكومة رسوما بسيطة .

اما المكاتب الأهلية فكانت على نظام مختلف .. نظام خارجى

مصروفات شهرية ، مسئولية الأسرة عن متابعة دروس أولادها خارج المدرسة .

وهكذا وصلت لائحة التعليم بالمدرستين (المكاتب الأهلية والمدارس المركزية) حيث ان التلاميذ الذين ينتهون من دراستهم بالمكاتب القروية يستطيعون الالتحاق بالمدارس المركزية تمهيدا لالتحاقهم بالمدارس الأميرية(٤٤) .

ورغم تعطل محاولات الاصلاح التى اشارت اليها اللائحة لعدم توافر المال اللازم والعدد الكافى من المؤدبين اللازمين ، بقى للائحه فضل توجيه الأذهان الى ضرورة العناية بهذا النوع من التعليم كأساس للتعليم الشعبى .

ولم تقتصر محاولات الاصلاح على هذه اللائحة فقط ؛ بل ان على مبارك عمل على تخليص معاهد الدراسة المدنية من تأثير التعليم العسكرى ، وفصل فى الادارة بين النوعين من التعليم حيث تواجدت ثلاثة أنواع من الادارات :

— ديوان الجهادية للاشراف على المدارس الحربية .

— ديوان المدارس للاشراف على المدارس الملكية .

— ديوان المكاتب الأهلية للاشراف على المدارس الأهلية .

٣ — حركة الاصلاح ١٨٧٤/٧٣ م :

وهى المدة التى تولى فيها مصطفى رياض باشا نظارة المعارف ورسم خلالها خطة اصلاحية تتضمن شقين : التوسع فى المنشآت التعليمية ، وتحسين القائم منها مستفيدا فى ذلك بخبرة ادوارد دور الخبير السويسرى وفى اطار لائحة رجب ، وتمكن فى هذه

الفترة القصيرة من اصدار لوائح اصلاحية عديدة تمس النواحى التالية :

(أ) تعديل الأساس الذى قامت عليه الحياة المدرسية .

(ب) وضع الخطط والمناهج المنظمة للتعليم فى مختلف مراحله.
(جـ) العناية بهيئة التدريس وانشاء مدرسة لاعداد المعلمين(٤٥)

ولكن ما ان ابعد رياض باشـــا لديوان آخر حتى تعطلت محاولاته الاصـــلاحية .

٤ ــ مشروع التعليم القومى سنة ١٨٨٠ :

ويتمثل هذا المشروع فى قومســـــيون تنظيم المعارف الذى صدر سنة ١٨٨٠ م وكان هدف هذا القومسيون النظر فى تنظيم التعليم العام وما يترتب على ذلك من احداث تعديلات فيه ، وكان برئاسة على ابراهيم ناظر المعارف وعضوية عبد الله فكرى وكيل المعارف ولارمى باشا ناظر الحربية وسالم باشا مدير مصــــــلحة الصحة ودور بك مفتش المدارس وروجرز بك وكيل أملاك الميرى وفيدال بك ناظر مدرسة الادارة والالسن(٤٦) وفى الخطاب المقدم من رياض باشا رئيس مجلس النظار الى الخديو فى ٢٦ مايو ســـنة ١٨٨٠ يتضح أن المجلس هو الذى اقترح تشــــكيل هذا القومسيون قبل الشروع فى وضع الاصلاحات اللازمة ، لأن المجلس رأى أن تنظيم مصالح الحكومة بأنواعها المختلفة يحتاج الى موظفين اكفـــاء ، وهذا لا يتأتى الا بتحســــين طرق التدريس والتعليم العام(٤٧) .

وفى التقرير المقدم من ناظر المعارف فى ذلك الوقت والذى يحمل نفس التاريخ نلاحظ انه يعلل قلة انتشار المعارف الى امرين : أولهما : عدم كفاية النقود اللازمة لايجاد مدارس جديدة ، والثانى

عدم وجود الأشخاص المنوطين بالتعليم فى درجاته المتنوعة . ويذكر أنه يجب أن يوجد فى كل قرية مدرسة ابتدائية من الدرجة الثالثة ، وفى كل بندر أو قسم أو مديرية صغيرة مدرسة من الدرجة الثانية وفى كل مديرية مدرسة من الدرجة الأولى ، وذكر فى التقرير أن ديوان المدارس طلب مساعدة محدودة من الأهالى لهذا المشروع ، ويتوسط عمدهم والحكومات المحلية فى ذلك ويرتب ديوان المعارف لأجل تتميم وانتظام حركة تلك المدارس مجلس معارف يتكفل بأن يبين للديوان التحسينات اللازمة للمدارس ويطلب اجراءها منهم(٤٨) على مناهج التعليم لجميع المدارس والكتب وينقح هذه المناهج وينوعها اذا لزم الأمر ، ويقر الكتب الدراسية اللازمة(٤٩) وبالاضافة الى ذلك نستطيع أن نبرز أهم الأفكار التربوية التى وردت فى هذا القومسيون الذى يعتبر أهم وثيقة تعليمية فى القرن التاسع عشر والذى اصبح فيما بعد نقطة البدء لكل دراسة بيداجوجية فى القرن العشرين(٥٠) فيما يلى :

(أ) ان الادارة المالية للتعليم يشوبها فى جميع تفصيلاتها تقيد مطلق ، ومن ذلك ان جزءا من مصروفات التعليم يرتب من ميزانية الدولة العامة ، وجزءا آخر من الميزانية الخاصة بالمدارس المركزية ، وجزءا ثالثا من ديوان الأوقاف الذى يتلقى بدوره من الروزنامة بعض الأموال للصرف على مدارس معينة ، ولكل هؤلاء خزانة خاصة وحساب قائم بنفسه ، ويشير دور بك الى هذا التعقيد بقوله ان المدارس التى تديرها نظارة المعارف والتى ينفق عليها من ديوان الأوقاف تقاسى الكثير من الشد والجذب الذى يحدث بين الديوانين حول أصغر مبلغ يصرف قبل كل شىء وحول أقل تحسين يراد ادخاله على نظامها(٥١) .

(ب) أن تنشأ مدرسة ريفية صغيرة فى كل قرية يبلغ سكانها من ٢٠٠٠ الى ٥٠٠٠ نسمة ، ومدرسة ابتدائية كبيرة لكل عشرة آلاف من السكان .

(ج) الزيادة التدريجية فى عدد المدارس الثانوية كلما درب المدرسون الاكفاء لهذه المدارس ، وفتح مدرسة للمعلمين لتدريب مدرسى المدارس الثانوية ، والمدارس الابتدائية المهمة ، ومن اجل ذلك انشئت مدرسة المعلمين التوفيقية التى كانت من أكثر التجارب نجاحا فى ميدان التعليم فى ذلك الوقت(٥٢) .

ويجب ان نسجل ان الذى حقق فكرة انشاء هذه المدرسة هو دور بك وهو الذى أدخل اللغات الأجنبية فى مناهج هذه المدرسة وكذلك الرياضيات والعلوم الطبيعية والتاريخ والجغرافيا(٥٣) .

(د) انشاء دراسات تكميلية فنية ، زراعية أو صناعية ، للتلاميذ الذين يتمون التعليم الابتدائى ، ولا تمكنهم ظروفهم المادية او العقلية لمتابعة الدراسة التجهيزية او المتوسطة .

(هـ) ومن حيث التمويل ، رأى القومسيون : أن تؤخذ من الأقاليم ضريبة شرعية من أموال الأطيان ، وهذه الضريبة تقدر كل سنة على حسب احتياج المدارس المراد انشاؤها فى غضون السنة التالية ، ومجموعة هذه الضــــــريبة يكون مخصـــــصا للمعارف العمومية(٥٤) .

(و) طالب القومسيون بأن تخصص الحكومة بعض المال فى ميزانيتها لمعاونة المدارس الأهلية ، وكان ذلك هو مبدأ نظــــام (الاعانة) الذى تمكنت به الحكومة من الاشراف على المدارس الأهلية(٥٥) .

(ز) اقترح القومسيون لأول مرة فى تاريخ التعليم فى مصر انشاء المكتبات المدرسية ، فمكن المدرســــين من الوقوف على ما يستجد فى الحياة الثقافية ، وعمل على استيفاء الأدوات المكتبية وضرورة ضبط وملاحظة التلاميذ وانشاء مجلس تأديبى .

(ح) أكد القومسيون أنه يجب الا يسمح للمدارس الأجنبية بتحصيل مساعدات من الحكومة المصرية الا بشرط انقيادها لتفتيش ديوان المعارف ، وأن تخصص أماكن مجانية فى كل مدرسة للفقراء(٥٦) .

ويعد تقرير قومسيون المعارف انعكاسا لآراء المصريين فى الحالة التعليمية التى سادت البلاد آنذاك . هذا ، وقد استجاب مجلس النظار أو نظارة المعارف الى تنفيذ هذه المقترحات ، وصدرت لائحة للتعليم الابتدائى ، وأخرى لمدرسة المعلمين ، ولكن اضطراب الأحوال اقتصاديا وسياسيا فى مصر ، والذى انتهى بالاحتلال الانجليزى سنة ١٨٨٢ م قد قضى على كل اصلاح فى التعليم ، أو فى غيره من نواحى المجتمع .

ثانيا — أهم أدبيات التربية فى القرن ١٩ :

عبر الطهطاوى عن اهم ملامح الفكر التربوى الناهض فى مصر فى القرن ١٩ ، فبالاضافة الى أفكاره التى تحولت الى اجراءات رسمية بحكم توليه لوظائف ادارية وفنية عليا فى ديوان المدارس، فان له فكرا تربويا لم يكتب له التحقق نظرا لسبقه وريادته ، ومن تلك الأفكار أنه راعى الفروق الفردية فى عملية التعليم ، فطالب بتقسيم المعارف حسب قدرات المتلقى ، فثمة معارف اساسية كالقراءة والكتابة والحساب وأصول الدين ، وهى معارف لابد لكل انسان من تحصيلها فى بدء عهده بالتعليم ، ومعارف أخرى لا يقدر عليها الا من تهيأ لها(٥٧) « فكل ميسر لما خلق له » ومن ثم وجب على ولى الأمر دراسة ميول الصبيان واستعداداتهم لتوجيههم الى ما يناسبهم من معارف . (وهذه نظرة للطهطاوى تصطدم على ما هو شائع من طبقية التعليم) . وهى نظرة تقدمية اكتسبها من

شرحه لدستور فرنسا فى تخليص الابريز خاصة فى المادة الثالثة التى تتيح لكل انسان حق مواصلة التعليم بلا عائق حتى يصل الى منصب اعلى من منصبه . وبهذا كثرت معارف الاوروبيين ، ولم يقف تمدينهم على حالة واحدة كأهل الصين والهند ممن يعتبرون توارث المهن والصنائع ، فيبقى الشخص دائما حرفة ابيه .

كما حدد الطهطاوى للتربية هدفا شموليا ، حيث تهدف الى تنمية العقول وتحسين المدارك وتنمية الصغير جسدا وروحا وأخلاقا فى آن واحد اى تنمية حسياته ومعنوياته بقدر قابليته واستعداداته(٥٨) . ولكن فى ضوء الأهداف الأساسية للمجتمع ، فلابد أن تكون تربية الأولاد بحسب موافقة أحوال الأمة وطريقة ادارتها وأحكامها لتنقش فى أفئدة الصبيان الأساسيات والأصول الحسنة الجارية فى أوطانهم ، فاذا كانت طبيعة البلاد المولود فيها الانسان عسكرية مائلة للحرب والضرب تكون تربية الأولاد والذكور تابعة لها أصولا وفروعا(٥٩) .

ثم يخوض الطهطاوى فى موضوع بالغ الأهمية ، وهو ماذا نعلم ؟ ويحدد لذلك معيارا محددا وهو المنفعة والفائدة التى تعود على المجتمع . ومن ثم يفتح الباب أمام ما يمكن أن نتعلمه لكل من التراث والمستحدث بشرط أن يكون فى كل الأحوال مفيدا ونافعا « فالمعارف الآن مستجدة فى نظريات العلوم والفنون الصناعية التى هى جديرة بأن تسمى بالحكمة العملية والطرق المعاشية ، ومع هذا فلم يزل التشبث بالعلوم الشرعية والادبية ومعرفة اللغات والوقوف على معارف كل مملكة ومدنية مما يكسب الديار المصرية المنافع الضرورية ومحاسن الزينة ، وهذا طراز جديد من التعلم والتعليم ، وبحث مفيد يضم حديث المعارف الحالية الى القديم

فلا ينبغى لابناء الزمان أن يعتقدوا أن زمن الخلف مجرد من فضائل السلف ، وانه لا ينصلح الزمان اذا صار عرضة للتلف »(٦٠) .

واذا كان الطهطاوى هو المتحدث الرسمى باسم ايديولوجية الدولة فى عصر محمد على ، فان على مبارك هو ذلك المتحدث فى عصر اسماعيل ، فقد وضحت تأثيراته الرسمية خاصة فيما يتعلق بلائحة رجب أما تأثيراته غيرالرسمية فقد وضحت فى أفكاره التى نظر من خلالها الى التعليم على أنه غاية ووسيلة فى الوقت نفسه .

غاية فى ذاته ، ووسيلة من وسائل التوجيه والبعث الجديد وتكوين الرأى العام المستنير الذى يلبى حاجات النهضة ، ويحرص على الدفاع عنها فى ظل حياة نيابية تشترط فى ممارستها القراءة والكتابة . ومن هنا يكون التعليم واجبا قوميا لذا رأى على مبارك ضرورة توحيد النظام التعليمى(٦١) .

وبعيدا عن الفكر الرسمى للدولة نجد الشيخ حسين المرصفى مفكرا تربويا نهضويا حيث ربط بين التربية والكمال ، فالتربية هى العملية التى بها يبلغ الشىء حالة كماله(٦٢) ومن ثم ترتبط سعادة الامة وغناها بالتربية .

وللدين دور بارز فى التربية حيث انه يمنع العداوة بين الناس فيتفرغون لأعمالهم المختلفة ويتقدمون فى أمان .

ووسائط التربية عند المرصفى متعددة وليست مقصورة على المدرسة فقط ، ويقسمها الى ثلاثة وسائط هى المدارس والمجالس والصحف « أما المدارس فلتعليم الفنون الحميدة الآثار ، البينة المنافع وأما المجالس فلتعليم آداب المعاشرة وحسن المعاملة ، لأنها تجمع الشيوخ والكهول والشبان ، ويدور بينهم الحديث عن الأحـــــوال ومجريات الأيام ، وأما الصـــــحائف فللتعريف بحوادث الاوقات ، والتنبيه على ما يوافق المصلحة منها وما لم يوافق »(٦٢) .

واساس التقدم فى رأى المرصفى هو فى الخلق والعمل . وان لكل انسان مهما صغر شأنه ومركزه دورا مهما فى الأمة من واجبه القيام به . ومن الأمور التى أثارت استياء المرصفى سلبية بعض الناس فى تحصيل العلم مما يؤدى الى تأخر مصر عن غيرها من الدول الأخرى ، ويطالب بأن يتساوى المصريون بل يتفوقون على غيرهم فى طلب العلم ، وبالتالى يجب العمل فورا على نشر التعليم من أجل الاصلاح الشامل ، ويعلق الاصلاح هنا على مهمة المعلمين وهى بالاضـــافة الى عملية التعليم ونقل المعارف ، غرس مبادىء الوطنية وغرس أصول الأخلاق الفاضلة والعادات الحميدة(٦٤) . ويعتبر النديم صحفيا ثائرا ارتبطت قضاياه الفكرية بصميم قضايا المجتمع ومن بينها قضايا التربية .

ومن بين القضايا التربوية التى أثارت فكر عبد الله النديم « ثنائية التعليم بين مصرى واجنبى » مما دفعه الى المطالبة بتوحيد مناهج التعليم فى كافة المدارس « لئلا يطلع الابناء لا هم مصريون ولا هم اجانب »(٦٥) .

كما ابتدع النديم اسلوبا جديدا للتعليم عندما طوع الصحافة لخدمة ذلك الغرض ، فكتب على صـــفحات مجلة الأســتاذ(٦٦) مقالات ومحاورات بأسلوب بســيط للتلاميذ تحتوى على دروس تهدف الى تهذيب اخلاقهم وتوسيع مداركهم مثل تربية الأبناء(٦٧) ، ونديم وحافظ(٦٨) ، وحفصة وابنتها ســلمى(٦٩) ومدرســـــة البنين(٧٠) ، ومدرسة البنات(٧١) ، شـــرح فيها أهمية التعليم والسياسة التى يجب أن تسير عليها المناهج ، وأهمية اعطــــاء الأولوية للدروس التى تحض على حب الوطن وتعليم التــلاميذ الأخلاق الفاضلة ، وتنمى فيهم روح الاستقلالية وتعرفهم بسير الأولين وأمجاد الوطن ، وتبعدهم عن روح التعصب وخصوصا

بعد أن مسخ الاحتلال برامج التعليم ، وجعل أساسه أوليات القراءة والكتابة .

وانتقد النديم المدارس الأجنبية التى تفسد الأبناء ، وتبعدهم عن دينهم لأنها لا تقدم التعليم الذى يتفق وقومية الغالبية العظمى من سكان البلاد ودياناتهم ، واقترح وضع نظام قومى لمناهج التعليم الأولى فى مصر ، يوضح للنشء فضل علماء جنسه ، وما كانوا عليه من الاجتهاد والتقدم لئلا يغلب عليه فضل غيرهم من العلماء فيحتقر معارف بلاده ويفخر بغيرها(٧٢) .

كما اهتم النديم بقضايا المعلم وحثه على التزام الطرق السهلة فى تلقين دروسه ، خاصة دروس اللغة العربية حتى لا يصعب الأخذ بها .

كما يضع النديم مواصفات مثالية للمعلم كالتواضع وحسن الخلق وسعة العبارة والأسلوب وإلا يكون ماجنا ولا فاحشا ولا كسولا(٧٣) كما طالب النديم بحقوق المعلم وعلى رأسها احترام أبناء الوطن له ، لأن اهانته تعتبر أول دليل على خراب البلاد(٧٤) .

ومع أن النديم حذر أبناء الوطن من الأجانب ، الا أنه لم يمانع من تعلم علومهم حتى يمكنهم التقدم ، فلا عيب علينا اذا أخذنا من اوروبا واقتدينا بها الآن ، نظرا لما يحدث من الفائدة الحاصلة(٧٥) .

خامسا — تعليم البنت :

رغم افتتاح مدرسة للمولدات والحكيمات فى مصر سنة ١٨٣٢م ، ورغم افتتاح الانجليز لمدرسة لتعليم البنات سنة ١٨٣٥ م وكان أكثر بناتها من بنات الأقباط وقليل منهن من المسلمات ، وخرجت عددا منهن قادرات على القراءة والكتابة وكسب العيش بالتطريز واشغال الابرة ، ورغم أن محمد على كان يسمح لبعض

المعلمات الاوروبيات بتعليم فتيات الأسرة الحاكمة وحريمها ، ورغم ان وجهاء القوم من الطبقة الارستقراطية نهجوا نفس نهجه(٧٦) فان عصـر اسماعيه ينتهى سنة ١٨٧٩ م وليس بمصر سـوى مدرستين للبنات ، السـيوفية انشـئت فى يناير سنة ١٨٧٣ م والقربية فى ابريل من نفس السنة ، السيوفية افتتحت بجهود ثالثة زوجات اسماعيل ، واعتمدت فى البداية على الفتيات الجوارى من بيتها وبيوت اميرات وامراء الأسرة الحاكمة .

وساعدت جودة المعيشة داخل المدرسة نظرا لما تقدمه من غذاء وملبس على تزاحم الناس لادخال بناتهم اليها فامتـلأت بالداخليات المحلات المعدة لهن وعددها مائتان ، واضطرت ادارة المدرسة امام هذا الاقبال ان تنشىء مائة محل اخـرى ، ولكن خارجية ، لمن لم يمكن قبولهن فى مصاف الداخليات »(٧٧) .

وكانت المدرسة الجديدة تحت نظارة سيدة سورية وكانت برامجها التعليمية تدور حول القرآن الكريم ، واللغـة التركية ، والرسم . وكان بها ثمانى مدرسات اربع لأشغال الأبر والتطريز وواحدة للبيانو ، وواحدة للغسيل والصـبغ والكى ، واثنتان للاشـراف Supervisors (٧٨) .

وبناء على نجاح الاقبال على السيوفية تم انشاء مدرسـة اخرى للبنات على غرارها باسم مدرسة القربية . ولكن بعد عزل الخديو اسماعيل تم دمج المدرستين فى واحدة ، فساء حالها مما دعا دور بك الى رفع تقرير عن المدرسة حث فيه على ايجاد ادارة حازمة ، وحذف بعض المواد الدراسية التى لا تتناسب مع طبيعة تعليم البنت فى البيئة المصرية . كما اقترح قومسيون المعارف انشاء مدرسة للبنات فى مدينة اخرى غير القاهرة ، لكن لم ينفذ الاقتراح(٧٩) .

اى أن اكثر من اربعين سنة (منذ افتتاح مدرسة المولدات سنة ١٨٣٢ م حتى افتتاح مدرسة السيوفية سنة ١٨٧٣) فى مجتمع يأخذ بأسباب النهضة والتقدم لم تسفر الا عن مدرسة واحدة للبنات سيئة الحال ، غير أن هذا كان على مستوى الفعل الرسمى للحكومة ، اما على المستوى الفكرى والثقافى فقد شغلت قضية تعليم البنت اذهان معظم المفكرين والتربويين فى تلك الفترة ومنهم الطهطاوى صاحب كتاب المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين الدعوة الأولى لتعليم البنت فى مصر . وقبل عرض آراء الطهطاوى فى تعليم البنت نورد الملاحظات التالية :

ـــ أن الدعوة لتعليم البنت كجزء من الدعوة الى تحريرها ، تمت فى مجتمع امى بالجملة ذكورا واناثا .

ـــ أن الدعوة تمت فى مجتمع ذكورى ابوى مســـــتبد على المستويين السياسى والاجتماعى ، ففى السياسة حكم مطلق فردى مستبد ، وفى البيت يمثل الرجل صورة مصغرة من الحاكم ، ومن هنا احتلت المراة المكانة الثانية بعد الرجل ، وبالتالى فرضـــت عليها التبعية ووضعت خارج نطاق الحياة رغم مالها من مكانة حيوية(٨٠) .

ـــ بناء على ما سبق ، كانت الدعوة لتعليم البنت فى مجتمع يقرن بقوة وعسف واصرار بين التعليم والفجور ، بين الســـفور والخلاعة ، اى يتناول القضايا المتصلة بموضوع المراة وفق معيار اخلاقى متعنت .

ـــ أن الدعوة وعلى ما يبدو كانت موجهة لطبقة اجتماعية معينة ، وهى الطبقة الميسورة المحافظة والتى كانت تنفر من سفور المراة وتعليمها واختلاطها وعملها ، اى مشـــاركتها الحياة العامة

بوجه عام . اما بالنسبة لنساء الطبقات الفقيرة من العمال أو الفلاحين فقد كن يرحن ويجئن طليقات من غير قيد ، وكثيرا ما يتفق أن يكلفهن أزواجهن بكثير من المهام خارج البيت(٨١) .

مما سبق يتضح ان موقف المجتمع المصرى من قضايا المراة كان يعكس فكر القرون الوسطى . ومن هنا يمكن اعتبار فكره الطهطاوى الخاص بقضايا المراة أول اطلالة مصرية للمراة تعبر عن فكر العصور الحديثة، مع ملاحظة أن هذه الاطلالة تعبر فى الأساس عن عقلية ازهرية دينية فى المقام الأول مما ينفى عن الاسلام شبهة وأد حقوق المراة .

ويبدأ الطهطاوى مناقشته لقضية تعليم المراة بالحكم على من لا يوفيها حقوقها وحرياتها بالطبيعة « المتبربرة » ، ويرد على من يعارض منح المراة حقوقها بحجة ضعفها ، بأن ذلك ليس من طبيعة جنسها ، بل هو ثمرة أوضاع بيئية واجتماعية وتربوية ، بدليل أنه عندما « انتظم نساء اليونان فى سلك التربية ، اكتسبن من التعليم فضائل الرجال وصحت الأبدان ، فبهذا كان لهن السلطة العليا على قلوب الرجال بحسن التربية والتعليم ، فكان يجب عليهن معاناة الرياضات الشاقة واستمرار اللعب كالمصارعة ، فذلك حدث فى تلك البلاد من النساء ، مدة طويلة ، من العجائب والغرائب ما يساوى شجاعة الرجال »(٨٢) .

ويدلل الطهطاوى على حق المراة فى التعليم من حياة الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث كان فى أزواجه (صلى الله عليه وسلم) من تكتب وتقرأ كحفصة بنت عمر وعائشة بنت أبى بكر وغيرهما ، وانه لم يعهد فى النساء ابتذالا بسبب تعليمهن ومعارفهن فتعليمهن تنوير للعقول بمصباح المعارف المرشد لهن ، فلاشك أن

حصول النساء على ملكة القرءة والكتابة ، وعلى التخلق بالأخلاق الحميدة ، والاطلاع على المعارف ، هو اجمل صـــــفات الكمال الانسانى ، وهو أشوق للرجال المتحضرين من الجمال ، فالأدب للمراة يغنى عن الجمال ، لكن الجمال لا يغنى عن الادب ، لأنه عرض زائل . وايضا ادب المراة ومعارفها تؤثر تأثيرا كبيرا فى اخلاق أولادها ، اذ البنت الصغيرة متى رأت أمها مقبلة على مطالعة الكتب وضبط امور البيت والاشتغال بتربية أولادها جذبتها الغيرة الى أن تكون مثل أمها ، بخلاف ما اذا رأت أمها مقبلة على مجرد الزينة والتبرج .. وقد قضت التجربة فى كثير من البلاد أن نفع تعليم المراة اكثر من ضرره ، بل انه لا ضرر فيه أصلا » ، فليتمسك كل من الفريقين ، الذكور والاناث ، بفضل التعليم والتعلم وليتشبثوا جميعا بأذيال المدارس والمطالعة ليقتطفوا من ثمار العلم ومنافعه .

فالتعليم هنا مما يزيد الانسان — ذكرا وانثى — ادبا وعقلا ويجعله بالمعارف اهلا .. ويحسن فيه الادب ويساهم فى تكوين الأسرة المتماسكة لما يحققه فيها من حسن المعاشرة .

فتعليم المراة يكون على قدم المساواة مع الرجل رغم ان المراة تتميز بتدبير المعايش الأولية ، والقيام بالأشغال الضــــرورية والمتاعب المعاشية ومباشـــــرة فراش المرض . وتخفيف الآلاف والأسقام(٨٣) .

كما يحق للمراة أن تعمل عند اقتضاء الحال ، فتتعاطى المراة من الأعمال والأشغال ما يتعاطاه الرجل على قدر طاقتها(٨٤) .

هوامش الفصـــــل السادس

(١) جاك ابس جونيور ، كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ، دراسة فى التحول الوطنى ، الألف كتاب الثانى ، العدد ١١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م ، ص ١٢٧/١٢٦ ٠

(٢) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٦١٨ ٠

(٣) المرجع السابق ، ص ٦١٥/٦١٤ ٠

(٤) المرجع السابق ، ص ٦١٤/٦١٢ ٠

(٥) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر من نهايـة حـكم محمد على الى اوائل حكم توفيق ، م ١ ، جـ ٢ ، مطبعة النصر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ ، ص ٩٨ ٠

(٦) رفاعة الطهطاوى ، الأعمال الكاملة اعداد محمد عمارة ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ١٧ ٠

(٧) محمد احمد خلف الله ، على مبارك ، وآثاره ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ ، ص ٧٥ ٠

(٨) النديم ، الحياة الوطنية ، الأستاذ العدد الثانى فى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٩٢ م ٠

(٩) النديم ، تســـمية البهيم بالمتوحش ظلم من الانســـان ، التنكيت والتبكيت ، العدد الثالث ، ٢٦ يوليو سنة ١٨٨١ م ٠

(١٠) النديم ، آفة السكوت ، التنكيت والتبكيت ، العدد الثانى عشر ، ٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ م ٠

Dunne, H. Ibid. P. 383. (١١)

(١٢) سعيد زايد ، على مبارك واعمال ، الالف كتاب رقم ١٩٩ ، مكتبة الانجلو ، القاهرة ، د.ت ، ص ٦٨ ٠

(١٣) مسرحية الوطن وطالع التوفيق ، عن سلافة النديم ، جـ ٢ ، ص ٤٢ ٠

(١٤) عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٤٠٥/٤٠٦ ٠

(١٥) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ١٥٢ ٠

(١٦) المرجع السابق ، ص ١٥٢/١٥٣ ٠

(١٧) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم من نهاية حكم محمد على الى اوائل حكم توفيق ، جـ ١ ، مرجع سابق ، ص ١٧٥ ٠

(١٨) جاك كراس جونيور ، كتابة التاريخ فى مصر القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ١٣٠ ٠

(١٩) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم من نهاية حكم محمد على الى اوائل حكم توفيق ، جـ ٣ ، ملحق ١ ، مرجع سابق ، ص ١٧٧/١٧٩ ٠

(٢٠) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٢٢٣ ٠

(٢١) الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٢٩٧ ٠

(٢٢) الطهطاوى ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، مطبعة المدارس الملكية ، سنة ١٨٧٢ م ، ص ٥٣ ٠

(٢٣) المرجع السابق ، ص ١٩ ٠

(٢٤) المرجع السابق ، ص ٦٣ ٠

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٦٥ ٠

(٢٦) عبد الله النديم ، تربية الأبناء ، الأستاذ ، العدد ٩ ، فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٩٢ ٠

(٢٧) أحمد الخشاب ، الاجتماع التربوى والارشاد الاجتماعى ، مكتبة القاهرة الجديدة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م ص ٤٢ ٠

(٢٨) على بركات ، تطور الملكيــة الزراعيــة فى مصر من ١٨١٣ م الى ١٩١٤ م واثره على الحركة السياسية ، مرجع سابق ، ص ١٨٣ ٠

(٢٩) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٥٣ ٠

(٣٠) محمد عودة ، القرية المصريــة بين التــاريخ وعلم الاجتمــاع ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢ ، ص ١٥٠ ٠

(٣١) عفاف لطفى السيد ، الحياة الاجتماعيــة والاقتصــادية لعلمــاء الأزهر فى القرن الثامن عشر ، مجــلة الفــكر المعاصر ، العــدد ٥١ مايــو سنة ١٩٦٩ ، ص ٧٤ ٠

(٣٢) محمد أنيس وآخر ، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ، مرجع سابق ، ص ١١٥ ٠

(٣٣) الكسندر شولش ، مصر للمصريين ، مرجع سابق ، ص ٤٤ ٠

(٣٤) صالح رمضان ، الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر اسماعيل ، سنة ١٨٦٣/١٨٧٩ م ، مرجع سابق ، ص ٢٢٥ ٠

(٣٥) محمد أنيس ، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ، مرجع سابق ، ص ١١٥ ٠

(٣٦) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ، ط ٢ ، مرجع سابق ، ص ٤٢٣ ٠

(٣٧) النديم ، الحياة الوطنية ، الأستاذ ، العدد الثانى فى ٣٠ أغسطس سنة ١٨٩٢ ٠

(٣٨) احمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر اســماعيل ، م ١ ، مطبعة النصر ، القاهرة ، ١٩٤٥ ، ص ٤٨/٤٩ ٠

(٣٩) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، عصر اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٤٩/٥٠ ٠

(٤٠) سعيد زايد ، على مبــارك وأعماله ، مرجع سابق ، ص ٥٩/١٦٠ وأحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ١٥/١٦ ٠

(٤١) على مبارك ، الخطط التوقيعية ، جـ ٩ ، مرجع سابق ، ص ٤٨/٤٧ .

(٤٢) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، جـ ٣ ، مرجع سابق ، الملحق الثالث ، ص ص ٣٣/٢٣ .

(٤٣) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، عصر اسماعيل ، م ١ ، مرجع سابق ، ص ٤٦ .

(٤٤) المرجع السابق ، ص ٥٨/٥٢ .

(٤٥) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، جـ ١ م ٢ ، مرجع سابق ، ص ٧٨ .

(٤٦) أمين سامى ، التعليم فى مصر فى سنة ١٩١٥/١٩١٤ ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩١٧ ، ص ٣٩ .

(٤٧) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر ، جـ ٣ ، مرجع سابق ، ملحق رقم ١٥ ، ص ١٨٥/١٨٤ .

(٤٨) أمين سامى ، التعليم فى مصر سنة ١٩١٥/١٩١٤ ، مرجع سابق ، ص ٣٧/٣٦ .

(٤٩) Dunne H, Ibid, P. 42.

(٥٠) المستشار الفنى وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ ، وزرائها . مكتب المستشار الفنى وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٥٤ .

(٥١) زكى صالح ، لمحات من تاريخ وزارة التربية والتعليم ، مرجع سابق ، ملحق رقم ١٥ ، ص ٣٢٨ .

(٥٢) Dunne, H. P. 434.

(٥٣) محمد شفيق غربال ، خبير سويسرى فى خدمة التعليم المصرى فى عهد اسماعيل ، التربية الحديثة ، العدد الرابع ، ابريل سنة ١٩٣٧ م ، السنة العاشرة ، ص ص ٣٨٢/٣٧٧ .

(٥٤) أمين سامى ، التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٥/١٩١٤ م ، مرجع سابق ، ص ٤١ .

(٥٥) زكى صالح ، لمحات من تاريخ وزارة التربية ، مرجع سابق ، ص ٥٤ .

(٥٦) أمين سامى ، التعليم فى مصر فى سنتى ١٩١٤/١٩١٥ م ، مرجع سابق ، ص ٤٥ ·

(٥٧) رفاعة الطهطاوى ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٣ ·

(٥٨) المرجع السابق ، ص ٢٧٨ ·

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٨٦ ·

(٦٠) الطهطاوى ، مناهج الألباب المصرية ، مرجع سابق ، ص ٤٢٣ ·

(٦١) محمد عبد الكريم ، على مبارك حياته ومآثره ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، د.ت ، ص ٨٨ ·

(٦٢) الشيخ حسين المرصفى ، الكلم الثمان ، مطبعة الجمهورية ، القاهرة ، سنة ١٩٠٣ ، ص ٨٠ ·

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٢٩/٣٠ ·

(٦٤) المرجع السابق ، ص ١٤٠ ·

(٦٥) النديم ، اللغة والانشاء ، الأستاذ ، العدد ٨ فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٩٢ ·

(٦٦) جعل النديم الأستاذ على ثلاثة مستويات ليستفيد منها جميع فئات الشعب ، للمثقفين وهى بلغة رصينة ، للمتعلمين والتلاميذ بأسلوب مبسط ، للعامة بالعامية ·

(٦٧) الأستاذ ، العدد ٩ فى ١٨ أكتوبر سنة ١٨٩٢ م ·

(٦٨) الأستاذ العدد ١٣ فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٢ م ·

(٦٩) المرجع السابق ·

(٧٠) الأستاذ العدد ١٧ فى ١٣ ديسمبر ١٨٩٢ م ·

(٧١) المرجع السابق ·

(٧٢) النديم ، دروس تهذيب تحاور به تلميذ مع النديم ، التنكيت والتبكيت ، العدد ٤ فى ٣ يوليو سنة ١٨٨١ م ·

(٧٣) المرجع السابق ·

(٧٤) مسرحية الوطن وطالع التوفيق ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ·

(٧٥) عبد الفتاح نديم ، سلافة النديم ، جـ ٢ ، وظائف العلماء فى العالم ، ص ٢٥ .

(٧٦) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٢٩٤ .

(٧٧) الياس الايوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل ، م ١ ، مرجع سابق ، ص ٢٠٨ .

(٧٨) Dunne, H. Ibid, P. 37 43 75.

(٧٩) يشير يونان لبيب رزق الى انشاء مدرسة أهلية خاصة للبنات بالاسكندرية أنشأتها سيدة شامية سنة ١٨٧٦ . تفصيلا انظر يونان لبيب رزق ، الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، جـ ١ ، مركز تاريخ الأهرام ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ ، ص ٨١ .

(٨٠) شاكر مصطفى ، الأبعاد التاريخية لازمة التطور الحضارى العربى ، الآداب ، العدد ٥ ، بيروت ، مايو سنة ١٩٧٤ ، ص ص ١٢ : ٢٥ .

(٨١) لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، كتاب الهلال (٢١٧) ابريل سنة ١٩٦٩ ، جـ ١ ، ص ١١٣ .

(٨٢) الطهطاوى ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، جـ ٢ ، مرجع سابق ص ٢٩٣ .

(٨٣) الطهطاوى ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

الفصـــل الســابع

النهضة الثقافية فى مصر فى القرن ١٩

يعد مشروع النهضة المصرية فى القرن ١٩ مشروعا ذا أبعـاد وزوايا ، منها العسـكرى ، محور المشروع ودالة تحركه صعودا أو هبوطا ، والاقتصادى محرك المشروع ومولد طاقاته الدافعـة ، والثقافى ثمرة المشروع برمته ٠

وقد تمثلت النهضة الثقافية فى مصر ابان القرن ١٩ فى عدة مظاهر ومجالات ، يتناولها الباحث كالآتى ٠

أولا ــ الصحافـة :

الصحافة ظاهرة اجتماعية حديثة ، اهتمت بها جميع المجتمعات على اختـلاف أنماطها ، كما حرصت عليها الشعوب بغض النظر عن درجة تحضرها ٠

ولقد تأسست أول مطبعة عربية فى ايطاليا فى أوائل القرن ١٦ بفضل اهتمامات البعثات التبشيرية الكاثوليكية والتى اهتمت بطبع الكتب العربيـة ، خاصة الكتب الدينية ٠ فى حين ان أول مطبعـة فى الشرق كانت فى الآسـتانة بحـروف عبريـة سـنة ١٥٥٠ م

أما استعمال الحروف العربية فلم يبدأ الا فى أوائل القرن ١٨ وذلك بسبب تعنت علمـاء الدين الذين أفتوا بأن الطباعة رجس من عمل الشـيطان(١) ٠

وقد أملت ظروف الدولة المدنية الحديثة بمصر انشاء الصحف التى تأخرت عن أوربا قرابة ثلاثة قرون ، وهو أمر غريب حقـا ، ألا تشارك مصر أوربا نهضتها فى هـذا المجـال ، بل وتكون آخر دول السلطنـة معرفة بالطباعـة على يد الحمـلة الفرنسية(٢) ٠ وربما يعود ذلك التأخير الى انقطاع طريق رأس الرجاء الصالح ٠

وظلت مصر بعيدة عن هذا الفن حتى سنة ١٧٩٨ م بمجىء الحملة الفرنسية ، التى عملت مطابعها وهى مازالت فى البحر بطبع المنشورات العربية للمصريين ، ووضع أوامر قائدها ٠

وجلبت الحملة معها مطبعتين ، ظلت احداهما بالاسكندريـة حتى نهاية سنة ١٧٩٨ م وكان يقوم عليها المستشرق مارسـيل وواحد وثلاثون موظفا ، وكانت حروفها فرنسية ويونانية وعربية ، وعليها طبعت جميع منشـورات بونابرت ، وأول كتـاب طبع فى مصر وهو تطبيقات فى العربيـة الفصحى مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية ٠ أما المطبعة الثانية فقد شحنت الى القاهرة وقام عليها مارك أويل ٠

وقد أصدرت فى القـاهرة صحيفة أسـبوعية هى بريد مصر Le Courrier Egyptienne ، ودورية أخرى علميـة تسمى العقد المصرى La Decade de L'Egypt ، وكانت لسـان حـال المجمع العلمى(٣) ٠ ولم يقف نشاط المطبعـة عند هذا الحد ، بل قامت المطبعة العربية كحلقة وصـل بين قيـادات الحملة والمصريين ،

حيث كان بونابرت يعلق منشوراته اليهم فى مفارق الطرق ورؤوس العطف وأبواب المساجد ، كما كانت حلقة وصل بين بونابرت وأمراء الحج وزعماء الولايات العثمانية الأخرى عندما كتب اليهم « أن يكفوا عن قتاله ويصلوه بالود والمعروف »(٤) ٠

ولما تولى مينو القيادة قرر انشاء جريدة عربية توظف لتنوير العقول وتوزع فى مصر والشام ، وأوكل الأشراف عليها للشيخ على الخشاب وسماها « التنبيه » وأصدر مرسوم تنفيذها ، لكن ظروف الحملة حالت دون تحقيق ذلك .

الصحافة فى عهد محمد على :

رأى محمد على تنظيم الادارة بمشر ، سنة ١٨١٣ م مقسم كل مديرية الى أقسام ، وعين لكل قسم ناظرا ، ولكل مديرية أو مديريتين مأمورا أو متصرفا(٥) وذلك توطئة للعناية بأهم المصالح المصرية وهى الزراعة ، فانشأ ديوانها بعد التنظيم الادارى بسنتين(٦) ٠

فقد كان محمد على يريد تنظيم حسابات الأقاليم والمصالح وشئونها الادارية ، بحيث يقدم له ملخص عنها فى فترات معينة ، عرف ذلك الملخص ب « الجرنال » ٠ ولحرص الباشا على مصالح ولايته رأى أن طول مدة تقديم الجرنال فرصة للتلاعب والتكاسل فكانت أوامره أن يعرض عليه الجرنال أسبوعيا ، لكنه وجد أن الأسبوع كثير ، فأمر بعرضه يوميا ٠

وكان الجرنال يطبع فى القلعة ، ويقوم عليه محمود افندى جرنال ناظر ، أى ناظر التقارير التى ترفع للوالى ٠ وكان يصدر كل يوم مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمنا الأخبار

الرسمية الحكومية وبعض قصص الف ليلة وليلة ، ويرسل الى كبار رجال الدولة ليعرفوا أوامر الباشا فينفذوها ٠

ورغم نجاح الجرنال فى تأدية مهمته ، فان الباشا لاحظ أن قصر الأخبار على رجال الدولة فقط ، دون الشعب ليس من أصالة الرأى ، لذلك أمر بطبع شئون الحكومة والمحكومين معا فى جريدة سميت الوقائع المصرية ، تنشر لكافة الناس : العلماء وتلاميذ المدارس والذوات الملكية والجهادية وارسلت الى بلاد الشام وكريت والسودان وبلاد العرب ، والمبعوثين الى اوربا ٠

وكان غرض الباشا من نشر الوقائع المصرية هو « انه نتيجة لسياسة الاحتكار فقد أجهد الناس ، ومن ثم رأى ضرورة اذاعة نتائج سياساته الاحتكارية والمتمثلة فى حملة اصلاحاته ومشروعاته العمرانية فتكون ميدانا لمدحه والثناء عليه ، فتظهر حكومته فى صورة عادله ، قادرة ، مجددة « فالوقائع المصرية » اذن هى لسان الحكومة وصدى آمالها »(٧) ٠

وأسندت ادارة الوقائع المصرية الى الطهطاوى وأدهم بك مدير المدارس وبعض السوريين مثل أحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين باشمصحح مطبعة بولاق ، وصدرت بالعربية والتركية الى أن صدرت كل منها بشكل منفصل ٠

لكن لم تتمكن الوقائع المصرية من متابعة تحركات وانجازات ثلاثمائة ألف جندى وضابط ، فقام ديوان الجهادية بطبع الجريدة العسكرية فى مستهل حملة الشام سنة ١٨٣٣ م فى مطبعة ديوان الجهادية ، وكانت الجريدة العسكرية تهتم باذاعة ونشر الجرائم العسكرية والقصاص الذى نزل بمرتكبيها ، غير ان ظروف الحرب

وعدم الاستقرار حال دون انتظامها مما دعــا حضرة صاحب الدولة الباشا السر عسكر الى الشكوى من التهاون فى نشرها ، ثم جاءت معاهدة لندن لتضــع حدا لطموح نمو الجيش ، فانعكس ذلك على توقف الجريدة العسكرية عن الصدور ٠

وتجدر الاشارة الى أنه فى ذلك الوقت سنة ١٨٣٣ م كانت تصدر مجلة باللغة الفرنسية باسم (Moniteur) يشرف عليهــا المهندس (Barrault) وكانت تمثل لسان حال السان سيمونيين فى مصر ، والداعية لفكرهم عن الســلام والرخاء والاخاء بين الشعوب وامكانية اللقاء الحضارى بين الشرق والغرب ٠

كما أمر ابراهيم باشا فى ٤ من ذى القعدة سنة ١٢٦٤ هـ (١٨٣٤ م) بانشاء جريدة اقتصــادية تهتم بنشر الشئون الخاصة بالتجارة والزراعة والاعلانات الملكية ، وتوزع على كافة المديريات يوم الجمعة من كل اسبوع ٠

وفى أيام عباس باشا اختفت جريدة الجمعة ، ولقيت الوقائع المصرية ضيقــا أحجبها عن القراء معظم أيام حكمــه ، حيث أمر بقصرها على الحائزين على الرتب العليا فى الجيش فقط ، لأنه حالة أن ترسل لجماعة من الأميين والبسطاء ٠

وعندما تولى سعيد باشا الحكم ، انعكست شخصيته المتقلبة على أحوال الصحافة المصرية ، فقد شجع الوقائع فى بداية حكمه ، ثم ردها الى الجمود المطلق ، بل امتدت يده الى مطبعــة بولاق فأنعم بها على صديقه عبد الرحمن شكرى بك فملكه الآلات والعقار فتعطلت الوقائع عن الصدور سنة كاملة ٠

غير أن تولى اسماعيل باشا الحكم أعادها للحياة مرة اخرى ، وذلك عندما أذن الخديو لسعيد رشدى باصدارها واعارة بعض الموظفين القادرين على ذلك « فأطلقت الجريدة ، من العقال ، وجالت فى ميدان المقال ، وشرعت تنشر الأخبار المصرية والأجنبية ولكن فى هيئة غير رسمية »(٨) • وظل ذلك لمدة ثلاث سنوات الى أن اشتراها الخديو ، ونظم أمورها ، وأغدق عليها المال ، وعين لها خيرة العمال والمحررين ، حتى صارت من الجرائد المهمة •

ثم توالت اصدارات الصحافة الرسمية على النحو التالى :

١ ـ يعسوب الطب ، وهى أقدم الصحف الطبية فى الشرق ، وقام على تحريرها محمد على باشا الحكيم كبير الأطباء المصريين ، وقدمت للقارىء من رياض الطب وأزهاره ما يغنيهم عن مطولات الكتب والمؤلفات الأجنبية وكان شعارها « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس » •

٢ ـ الجريدة العسكرية ، والتى عبرت عن النهضة العسكرية فى عصر اسماعيل سواء فى مجال الاهتمام بالتعليم العسكرى ، أو بنهضة الجيش او البعثات التعليمية العسكرية للغرب ، وهى جريدة ساهم فى تحريرها كثير من المتخصصين ، وعرضت للقارىء العادى بالاضافة الى العسكريين •

٣ ـ جريدة أركان حرب الجيش المصرى ، وهى تقدم الحديث فى الفنون الحربية والحوادث العسكرية فى البلاد الأجنبية ، ويختص بقرائتها العسكريون فقط •

٤ ـ روضة المدارس انشاها على مبارك ، وهى اول مجلة تعنى بالعلوم والآداب ، صدرت ١٧ ابريل سنة ١٨٧٠ ، وكانت تصدر مرتين شهريا وكانت تنشر اخبار امتحانات الطلبة وبعض موضوعات الانشاء لنجباء الطلاب ، ولم تكن تهتم بالأمور الاجتماعية او الأمور السياسية ، الا اذا اعتبرنا ثناءها على الخديو لرعايته التعليم سياسة ٠

ومن الملاحظ على دور الصحافة الرسمية فى تلك الفترة أنها :

ـ من مقومات النهضة العلمية والثقافية الحديثة ، مهما كان عدد قرائها قليلا ، فقد اشترك المثقفون من ذوى الاتجاه العلمى الحديث فى التأثير على أمور الثقافة والفكر بعد أن كان هذا المجال متروكا أمره لعلماء الدين ٠ فكما نزعت المطبعة فى اوربا احتكار الكنيسة للعلم والمعرفة ٠٠ انتزعت الصحافة فى مصر احتكار علماء الدين للكلمة والتأثير بها على عقول الناس ٠

ـ نشأت الصحافة فى كنف الدولة ، وعاشت على أموالها وترعرعت بسلطانها وخضعت بالتالى لتوجيهاتها ، كما نشأ الصحفيون موظفين عند الدولة ، مما اضفى على نشاطهم طابعا تبريريا ، اذ كان على راس مسئولياتهم الدفاع عن الحكومة ومشرع سياساتها والاشادة بأفضالها ومآثرها ودحض حجج خصومها سواء فى الداخل او الخارج ٠

ـ ساهمت الصحافة بنشرها الجيد من المقالات فى تزكية روح التنافس فى الابداع الفنى والأدبى مما أدى الى ترقية فن أسلوب ومضمون الكتابة الأدبيه ٠

— نشأت الصحافـة فى مصر فى القرن التاسع عشر مصريـة خالصـة ، ليس لغير المصريين اى فضل فى انشائهـا أو تقدمهـا أو ارتقائها ، بل كانت هى صاحبة الفضـل فى تعليم غيرها الفن الصحفى ليعودوا الى بلادهم ليقودوا نهضتها فى هذا المجال .

— يعود الفضل الى المطبعة فى ظهور الصحافة ، لكن يعود الفضل الى الصحافة فى اعادة تطوير المطبعة . فانشاء الوقـائع لم يكن ليتحقق اولا مطبعة بولاق ، وتطور الوقائع وزيادة انتشارها ساهم فى تطوير وتوسيع وتجديد مطبعة بولاق ، كما أن انشـاء الصحف العسكرية استتبع انشاء مطبعة خاصة بديوان الجهادية .

الصحافة الشعبية فى مصر فى القرن ١٩ :

بدأت الصحافـة الشعبية فى مصر سنة ١٨٥٧ م بصحيفـة السلطنة ، والتى اتخذها السلطان وسيلة لمحاربة سعيد باشـا وتشويه صورته بعدما تقرب للمصريين عن طريق بعض اصلاحاته مثل اللائحة السعيدية والغاء الكثير من الضرائب وقضائه على نظام الاحتـكار وانحيـازه للعنـاصر المصرية فى الجيش على حسـاب الأرستقراطية التركية .. مما رآه السلطان خطرا على مكانته عند المصريين .

ومع ذلك لم يفطن سعيد لأهمية الصحافة كوسيلة للدعاية ، بل لم يشجع القائم منها ولم يفكر فى انشاء صحافة جديدة ، حتى جاء اسماعيل الذى آمن بالدعاية والصحافة ، وجاء ايمانه هـذا فى ظروف نشاط سـياسى هائل تمثل فى انشاء مجلس شـورى النواب وتكالب الأجانب والسلطان عليه ، فقام الخديو بتشجيع الصحافة الشعبية غير أنه لم ينتبه الى أن الصحافـة سـلاح ذو

حدين ، احدهمـا يصيب العدو والآخر يصيب صاحبـه حتى ولو بغير قصد(٩) ٠

وكانت الصحافة الشعبية فى مصر فى القرن ١٩ ، اما مصرية كوادى النيل ونزهة الأفكار والوطن ٠٠٠ الخ، أو سورية كالأهرام ومصر والتجارة والمحروسة ... الخ ، وسيعرض الباحث لاهمها :

١ ـ جريـدة الوطـن : سياســية أسبوعيـة صــدرت سنة ١٨٧٧ م لمحررها ميخـائيل افندى عبد السيد ، ظهرت وقت الحرب الروسية التركية ، وكانت الصحف المصرية ممنوعة من الخوض فى المسائل السياسية ونقل أخبـار تلك الحرب ٠ لكن الصحف خاضـت فيهـا وانقسمت الى مؤيد للترك ، كمـا فعلت جريدة مصر لصاحبها أديب اسحق ومؤيد للروس كما فعلت الوطن، وكانت تلك المرة الأولى التى سمح فيها الوالى للصحف المصرية بالخوض فى الشئون السياسية(١٠) ٠

ثم توالت فى الخوض فى المســائل السياســية ، فرحبت بالوزارة المختلطة ووزارة نوبـار ، وتوسمت فيهـا اصــلاح البــلاد ، ثم عـادت وهاجمت الوزارة والوزيرين الانجليزى والفرنسى ٠ وتضامنت مع النواب المصريين بمجلس الشورى ٠

٢ ــ الأهرام التى اسسها السورى سليم تقلا وتعهد بعدم الخوض فى المسائل السياسية ، لكنها دخلت مجـال السياسة ووقفت بجانب فرنسا ضد الخديو ووصفته بأفظع الصفات فاضطرت الحكومة الى اغلاقها ، اكن تدخل فرنسا أعاد فتحها ٠

لكن العديد من الصحف الســورية كان لها مواقف محترمة من قضايا السياسة المصرية ٠ ومنهــا على سبيل المثــال صحيفة التجارة التى تصدت للصحف الأوربية فى تعمدها تشويه صــورة النواب المصريين وبعض الشخصــيات المرموقة فى البــلاد باتهامهم بالرشوةفردت عليهم حتى أسكتتهم ٠ وكذلك مرآة الشرق لابراهيم اللقانى التى تصدت للفساد فى مصر وارجعته لجهل الحكام وسوء تدبيرهم واختلال احوالهم وتعديهم للحدود وانتهاكهم للحرمات ٠

وجريدة مصر التى تدافع عن كرامة المصريين الذين لا يعاملون معاملة الأجانب فى بلادهم ٠ والتجــارة تهــاجم قانون المطبوعــات وتتعجب من وجــود ادارتين : واحدة للصحف الأجنبيــة والأخرى للصحف الوطنية ، والبون شاسع بينهما فى معاملة الصحف(١١)٠

كمــا يكتب اديب أسحق فى جريدة مصر يندد بالامتيــازات الأجنبية التى تلحق الضرر العظيم بالمصريين حسا ومعنى ، وذلك وفق خطته نحو الحكومة والتى حددها فى الآتى : « سأكشف حقائق الأمور ملتزما جانب التصريح ، متجافيــا عن التعريض والتلميح ، أجلو آراء ذوى النقد وأبين نقائض أهل الحــل والعقد ، وأوضح معايب اللصــوص الذين نسميهم أولى الأمر ، ومثالب الخونــة الذين ندعوهم وهما أمناء الأمة ، ومفاسد الظلمــة الذين نلقبهم جهلا ولاة النظــام ٠ وقصدى من ذلك ان أثير بقية الحمية الشرقية ، وأهيج فضــائل الدم العربى ، وارفع الغشاوة من أعين الساذجين ، واحيى الغيرة فى قلوب العارفين ، ليتعلم قومى أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه ، ومالا منهوبا فيطلبوه ، وليستصغروا الأنفس والنفائس فى جنب حقوقهم ، فمن قتل دون دمه فهو شــهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون اهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك فهو سعيد »(١٢) ٠

وشاءت الظروف ان يكون تمتع مصر بحريات صحافتها وقت نزول الأفغانى اليها ، فأوحى للكثيرين باصـدار صحفهم وحثهم على الثورة ضـد الظلم وكان على رأس تلاميذه عبد الله النديم صاحب التنكيت والتبكيت والأستاذ والطائف ، والتى عالج فيهـا قضايا مجتمعه بشكل ساخر ، وبلغة عامية ، ومن قضاياها التى اهتم بها :

١ ـ الاصـلاح الاجتمـاعى ·

٢ ـ اصلاح التربيـة والتعليم ·

٣ ـ الدفاع عن الشرق ضد اوهام الغرب ·

٤ ـ مهاجمة الاحتـلال البريطانى ·

٥ ـ الحملة على المبشرين المسيحيين(١٣) ·

والملاحظ على دور الصحافة الشعبية فى تلك الفترة أنها :

ـ نشأت فى الأسـاس للدفاع عن الخديو اسماعيل ضـد خصومه من الأوربيين ـ الذين تدخلوا فى سياسات مصر ـ ومن الأتراك ·

ـ ومن ثم تطرقت للشئون السياسية خاصـة منذ الحرب الروسية التركية ·

ـ ربطت مصر بشعوب العالم شرقه وغربه وذلك عن طريق الترجمة لأهم الأفكار الرائجة بها كما عند الوطن والأهرام ومصر ومرآة الشرق ·

ـ كان لتلك الصحف فضل عظيم فى نشر وتطوير المطـابع الحرة والأهلية ·

ـ اهتمت بالشئون الاقتصادية خاصـة أثناء الأزمة المـالية

وديون مصر الخارجية ، مما حدا بالبعض الى اقتراح انشاء المصارف الوطنية الشعبية لخلق دعامة شعبية اقتصـادية تسند حرية مصر واستقلالها(١٤) .

- الاهتمام بقضايا التعليم والدعوة الى تعليم الشعب بانشاء
- الجمعيات الخيرية لهذا الغرض كما فتحت صدرها لأخبار المدارس الشعبية والجمعيات الخيرية وأثنت على رجالاتها كما مجدت جماعة مصر الفتاة التى تسعى للنهوض بشئون التعليم وفتحت المدارس الليليـة وتطوع شبابهـا لتعليم الجمـاهير(١٥)

- نميزت بالتسـامح الدينى ، فكانت بعيدة كل البعد عن التعصب ولم تبحث يوما فى موضوع يثير هذه الناحية ، رغم أن معظم الصحف الشعبية كانت تحت رياسة الشوام ومعظمهم من المسيحيين ٠

ثانيـا ـ الطباعة والنشر :

ساهمت الطباعـة فى ازدهـار حركة نشر وتوزيع الصحف والكتب وغيرها وكانت مطـابع الحملة الفرنسية قد غادرت مصر مع الحملة ، لكن عـاد محمد على فأنشأ مطبعة بولاق سنة ١٨٢٠ م والتى تحملت العبء الأعظم فى طبع الكتب فى مصر خاصـة فى النصف الأول من القرن ١٩ ٠ وكان يعاونها مطـابع حكومية اخرى ملحقة بالمدارس مثل مطبعة مدرسة الطب ، والطوبجية ، وديوان الجهادية، ومطبعة القلعة التى أنشئت خصيصا لطبع الوقـائع المصريـة ـ ثم احيلت الى مطبعة بولاق ـ ومطبعة مدرسة المهندسخانة ومدرسـة الفرسـان وديوان المدارس بالأزبكيـة ومطبعة مدرسـة المبتديان بالناصريـة ٠

بالاضافة الى مطابع أخرى اقتصرت على طبع دفاتر الشئون الأميرية كمطبعة ديوان الخديو ومطبعة الترسانة بالاسكندرية ومطبعة الحجر برشيد . كما توافرت مطابع أيضا بمختلف مديريات مصر(١٦) .

كما ساهم الأهالى فى انشاء المطابع الحجرية التى استمر بعضها طوال القرن ١٩ ، فى حين توقف الآخر بعد أول كتاب(١٧) .

كما ساهمت الجمعيات العلمية المصرية فى حركة الطباعة والنشر ، كالجمعية المصرية التى تأسست سنة ١٨٣٥ م وكان من بين أهدافها طبع ونشر الكتب المتصلة بالشرق(١٨) ، والجمعية الأدبية المصرية التى تأسست سنة ١٨٤٢ ، وكان من هدفها طبع ونشر النصوص الهيروغليفية مع محاولة انشاء مكتبة(١٩) . وجمعية المعارف تأسست سنة ١٨٦٣ م وتخصصت فى طبع ونشر الكتب النادرة والمفيدة « لتدوم الرغبة فى الاطلاع مع ما فيه من الانتفاع » وأصدرت الجمعية كتبا عرفت باسم كتب جمعية المعارف(٢٠) . والجمعية الجغرافية الخديوية تأسست سنة ١٨٧٥ لنشر واصدار المطبوعات الجغرافية والعلمية . وجمعة مصر الفتاة التى تأسست سنة ١٨٧٦ م ومن أهم أعضائها الأفغانى واديب اسحق وسليم النقاش والنديم ، والذين ساهموا فى اصدار جريدة مصر الفتاة اواخر أيام اسماعيل(٢١) .

علاوة على المطابع الخاصة بالصحف كمطبعة صحيفة وادى النيل ، والكوكب الشرقى ، والأهرام ، وجريدة مصر ، والقاهرة ، والوطن ، والمحروسة وغيرها .

والجدول التالى يبين عدد الكتب التى نشرت فى القرن التاسع عشر والناشر وصفته(٢٢) :

صفة الناشر	النشر فى النصف الأول من القرن ١٩	النشر فى النصف الثانى من القرن ١٩	المجموع	النسبة المئوية
حـكومى	٧٨١	٥٦١٩	٦٤٠٠	٥ر٦١٪
اهــلى	٥٩	٣٢٠٧	٣٢٦٦	٤ر٣١٪
غير مبين	٢٧	٧١٢	٧٣٩	١ر٧٪
المجمـوع	٨٦٧	٩٥٣٨	١٠٤٠٥	١٠٠٪

ثالثـا ـ الترجمـة :

تميز محمد على ، كما وصفه القنصل الأنجليزى جون بورنج الذى عرفه عن قرب ، بالشغف فى تحصـيل العـلم ، فقد أمر بأن يترجم له عدد كبير من المؤلفات ، وما من سائح واسـع الادراك زار مصر الا اتصل به حتى يضيف جديدا الى ما لديه من علم ومعرفة ، فحبه للاستطلاع لا يقف عند حد(٢٣) ٠

وربما يكون ذلك سببا من بين الأسباب القوية التى دفعت محمد على الى الاعتماد على الترجمـة فى بناء النهضـة المصريـة حيث اعتبر الترجمة معبرا مهما وحيويا لنقل الثقافة الأوربيـة الى مصر ٠ فاستعان فى البداية بالأجانب الوافدين الى مصر ، ورغم أن بعضهم كن من « النصـابين البارعين فى الشعوذة »(٢٤) فان البعض الآخر ، خاصـة الفرنسيين ، ساهم بالكثير من تطور البلاد وتقدمها وادخال النظم الحديثة اليها كما فعل سليمان الفرنساوى فى الجيش وسيريزى فى بناء الأسطول ، وكلوت بك الذى درس الطب وعلومه فى مصر ، وترجم ١٥٢ مؤلفا فى مختلف اللغات(٢٥) ٠

لكن هذه العملية لم تسعف محمد على ، الذى كان يتعجل النهضة لدرجة انه قسم كتابا بالسيف الى ثلاثة اجزاء ووزعه على ثلاثة مترجمين لانجاز الترجمة فى ثلث المدة ·

وكانت اللغة الايطالية صاحبة السيادة فى الانتشار تليها اللغة الفرنسية ، وكان مدرسو الرياضيات والعلوم واللغات والفنون من الطليان الذى اهتم محمد على بتعليم لغتهم ، وترجمة كتبهم ـ خاصة كتب الطب ـ الى العربية ، لكن لم تستطع الايطالية المحافظة على انتشارها ، فانحسرت وحل محلها الفرنسية فى الترجمة والتدريب وادارة شئون البلاد ، ففى أواخر العشرينات بلغ عدد الكتب المترجمة ٢١ كتابا منها ٣ كتب ايطالية فقط فى حين كان ١٣ كتابا من الفرنسية(٢٦) ·

وشجع محمد على المترجمين بمدرسة الطب على دراسة الطب حتى تتسنى لهم معرفة العلوم الطبية ، وفهم مصطلحاتها ، كما شجع طلبة الطب على تعلم اللغة الفرنسية ليتمكنوا من متابعة دروسهم · كما كلف كلوت بك مترجما لكل أستاذ بمدرسة الطب يترجم للطلاب عنه أثناء الدروس ، ثم يعيد عليه ما ترجمه بالعربية مرة اخرى بالفرنسية ليتأكد من صدق الترجمة ، كما كان يكلفه بترجمة الكتب الطبية الى العربية مثلما قام يوحنا عانحورى بترجمة كتاب Anatomie de Corps Humin الى القول الصحيح فى علم التشريح ·

اما فى الثلاثينات فقد ازدهرت حركة الترجمة ووصلت الى خمسة اضعاف ما ترجم فى العشرينات ، وذلك بسبب :

١ ـ زيادة عدد المدارس الخصوصية مثل مدرسة الطوبجية وتعيين رفاعة الطهطاوى مترجما بها من سنة ١٨٣٣ م حتى

سنة ١٨٣٥ م ، ومدرســة الادارة الملكيــة بهدف تخريج الموظفين والمترجمين ، ومدرسة التاريخ والجغرافيا الملحقة بمدرســة المدفعية سنة ١٨٣٤ م ، ويعتبر الشيال المدرستين السابقتين تمهيدا لانشاء مدرسة الألسن(٢٧) والتى انشئت سنة ١٨٣٥ م ، وكانت تسمى مدرسة الترجمة تحت ادارة الطهطــاوى الذى كان يختــار الكتب الضرورية للترجمة ويوزعها على تلاميذ المدرسة وخريجها الملتحقين بقلم الترجمــة ويشرف عليهم أثناء عملية الترجمة ويقوم بعد ذلك بالمراجعة والتهذيب ٠ وكان الطهطاوى يراس لجنة امتحان مكاتب المديريات بالأقاليم ويصطحب المتفوقين منهم ليلحقهم بالمدرســـة التجهيزية التابعة لمدرسة الألسن(٢٨) ٠

كل هذا جعل من مدرسة الألسن ملتقى ثقافة الشرق بالغرب، تجمع بين دراســة ما عرفته مصر من الفقه واللغة والأدب فى كتب أزهرية يدرسها رجال الأزهر ، وبين دراســة اللغات الأجنبيــة والآداب والنحو والقصص والتاريخ الغربى ، حتى اذا ظفر الطلبــة بنصيب موفور من هاتين الثقافتين ، مضوا ينقلون الى بنى وطنهم الثقافة الغربية ممثلة فى تلك الكتب التى ترجموها فى جميع الفنون والصــناعات والعــلوم متــأثرين ، بمثلهم الأعلى رفاعــة رافــع الطهطاوى(٢٩) ٠

مدرسة الألسن اذن هى المدرسة التى أعدت لتخريج مترجمين، غير أنها لم تكن وحدها فى ميدان الترجمــة ، حيث نصت لائحــة مدرسة الزراعة بنبروه ٠٠ سنة ١٨٣٦ م على ان الباشخوجة عليه أن يقضى بقية ساعات اليوم فى ترجمــة بعض الدروس من الفرنسية الى العربية والتى يحيلها الناظر اليه(٣٠) وكذلك كان يفعل مدرسو مدرســة الهندســة حتى أن ديوان المدارس اشــاد بجهودهم فى ذلــك(٣١) ٠

٢ ـ **وكان لعودة المبعوثين** اثره فى اثراء وازدهار حركة الترجمة حيث شملت تلك البعوث غالبية فروع المعرفه وعنيت بترجمتها ، وكان الباشا يطالب المبعوثين ، حتى قبل مجيئهم الى مصر « بتعريب كتب العلوم التى يدرسونها ، وكانوا بعد عودتهم لا يلتحقون بالوظائف الحكومية الا اذا ترجم كل منهم كتابا فى الموضوع الذى درسه . بل كانوا يترجمون الكتب حتى بعد التوظف ، وكان الباشا احيانا يعهد الى اعضاء البعثات بترجمة طائفة من الكتب فى غير ما تخصصوا فى دراسته ليتمكن من ترجمة أكبر عدد من الكتب فى أسرع وقت مستطاع(٣٢) ٠

وكان يضطر أحيانا الى استعمال العنف « لذا اضطرت الحكومة أن تغلق على هؤلاء أبواب القلعة لا يبرحونها حتى ينتهوا مما كلفوا بأدائه ، فاذا فرغوا من مهمتهم سلموا المترجمات الى المطبعة الأميرية لتصبح بعد قليل كتبا فى ايدى طلبة المدارس »(٣٣) ٠

وكان الطهطاوى قد ترجم بعض الكتب ٠ وهو ما يزال طالبا فى البعثة ، كذلك ابراهيم النبراوى وعيسوى النحراوى ٠

والملاحظ انه فى الثلاثينات لم يكن عدد الكتب المترجمة هو الذى زاد فقط (١٠٢ كتابا) ، بل ان عدد اللغات زاد ايضا ، غير أن الغلبة كانت للفرنسية التى وصل عدد المترجم فيها ٧٥ كتابا(٣٤) ٠

وفى الاربعينات وصل عدد المترجمات الى ١٣٨ كتابا نظرا لاستمرار عطاء المدارس الخصوصية حتى سنة ١٨٣٦ م عندما الغيت الفرنسية بها واقتصر تدريسها على طلبة الألسن التى وصل عدد خريجيها بين سنتى ١٨٣٦ م ، ١٨٤٦ م تحت رياده الطهطاوى الى ما يقرب من السبعين كاتبا ومترجما ٠

وفى سنة ١٨٤١ م ثم انشـــاء قلم للترجمة ملحق بمدرسة الألسن تحت اشراف الطهطاوى وتم تقسيمه الى الأقلام التالية :

١ ـ قلم ترجمة كتب العلوم الرياضية ·

٢ ـ قلم ترجمة كتب العلوم الطبية والطبيعية ·

٣ ـ قلم ترجمة كتب المواد الاجتماعية والأدبيات ·

٤ ـ قلم الترجمـة التركى(٣٥) ·

وكانت عملية تحديد الكتب المراد ترجمتها تعود الى ديوان المدارس الذى يحدد ما يريد فى بيان يرسله للطهطاوى ، فاذا كان موجودا بمدرســة الألسن قـام بترجمتـه والا أرســل الى اوربا لاستقدامه ·

وفى الخمسينات الغيت مدرسة الألسن وتشتت مترجموها ، غير أن عباس باشا امر بانشــاء قلم خاص بترجمـة الكتب من الفرنسية الى التركية وكلف ادهم بك وكانى بك بذلك(٣٦) ·

لكن بالغاء مدرسة الألسن انهارت حركة الترجمة من اساسها ولم يبق سوى اعادة طبع ما سبق ترجمته ·

ورغم عداء سعيد باشا للتعليم ، والغائه ديوان المدارس ، فانه ســاهم فى تنشيط حركة الترجمـة عندما امر باستعمال اللغة العربية فى القضــاء والادارة ، كما امر بانشاء قلم أفرنكى وتعيين ناظر له من أرباب الاستقامة يكون واقفـا على اللغتين الفرنسية والعربية ، واثنين من الكتبة لهما المـام باللغة العربية وافهامهما ضرورة السعى والاقدام الى اتمام وانهاء المصالح الواقعة فى قلمهما بغاية الدقة والعناية(٣٧) ·

كمـا سـاهمت عودة الطهطـاوى من الخرطوم فى ازدهـــار الترجمة حيث أنشأ سـنة ١٨٥٦ م مدرسـة أريد لها أن تكون عسكرية ، ونجح الطهطاوى فى جعلها امتدادا لمدرسـة الألسن ، حيث جعل دراسة اللغة العربية اجبارية على جميع الطلبة ، وجعل لهم حرية اختيار احدى اللغتين الشرقيتين التركية او الفارسية ، واحدى اللغات الأوربية انجليزية او فرنسية او المـانية ... وبعد ذلك أنشأ قلما للترجمة راسه تلميذه صالح مجدى(٣٨) . ورغم ذلك انهـار عدد المترجمـات الى ٧٤ كتابا ، السـيادة فيهـا للفرنسية (٣٥ كتابا) .

الفرنســية والتى أتمهـا وطبعت فى مجـلدات بمطبعـة بولاق بين سنتى ١٨٦٦ ، ١٨٦٨ م(٣٩) .

وبالاضافـة للقوانين الفرنسية كان ثمـة اهتمام بترجمـة ومع بداية الستينات ــ وكانت الألسن ملغاة ــ أقام اسماعيل قلما للترجمة سنة ١٨٦٣ م وأقام عليه الطهطاوى لترجمة القوانين المسائل الخاصـة بالآثار المصريـة ، مثل ترجمة عبد الله أبو السعود كتـاب أوغسطوس مارييت تاريخ قدماء المصريين أو كمـا سـماه أبو السعود قناصة أهل العصر من خلاصة تاريخ مصر .

غير أن عدد المترجمات نقص الى ٧٣ كتابا منها ٣٧ بالفرنسية غير أن الانجليزية كلغة للترجمة بدأت فى التواجد ، فكان منهـا ١١ كتابا(٤٠) .

وفى السبعينات ، ونتيجة انتشار التعليم وزيادة الاهتمـام بتعليم اللغات الأجنبيـة ، وانتشار الجمعيـات العلميـة وازدهار الصحافة ومساندة الخديو للحركة الثقافية واتقانه هو شخصيا

للغات اجنبية وحرصه على جعل مصر قطعة من أوربا ، وزيادة عدد البعثات الى اوربا ، وزيادة عدد المدارس الأجنبية بمصر ، وتفوق النفوذ الأجنبى بها ، كل ذلك ادى الى ازدهار حركة الترجمة والنشر حيث وصل عدد الكتب المنشورة الى ٥٩٧ كتابا منها ٩٥ كتابا مترجما ·

وفى اوائل الثمانينات عادت مدرسة الألسن سنة ١٨٧٨ م ، وأنشىء مكتب للترجمة والتحرير تولى ادارته أديب اسحق ثم مصطفى رضوان ، فزاد عدد المترجمات الى ١١٠ كتابا منها ٤٥ من الفرنسية ، و ٤٤ من الانجليزية(٤١) ·

والملاحظ على حركة الترجمة فى مصر فى تلك الفترة انها لم تكن الحركة الأولى التى عرفها الفكر العربى ، بل سبقتها حركة ترجمة بلغت اوجها فى عهد المأمون ، وكانت الترجمة — فى الحالتين — اداة مهمة وفاعلة من أدوات التجربة النهضوية العربية فى مواجهتها لثقافة الآخر ، ففى عهد المأمون انطلقت المواجهة ببناء بيت الحكمة ، وكانت بهدف الاغتناء والاستفادة من الثقافات والتجارب الحضارية الأخرى ، ومن ثم شملت الترجمة مختلف المعارف من رياضيات وفلك وطب وكيمياء وفلسفة وهندسة وسياسة مدنية ، كما أن الترجمة تمت فى ظل تنامى العلوم العربية واحساس متأجج بقيمة الذات وثرائها ، أى أن الترجمة تمت من مراكز القوة وكان المطلوب ترجمته محدودا ·

اما فى عصر محمد على ، فكانت الترجمة محاولة للاجابة عن السؤال لماذا تقدموا هم وتأخرنا نحن ؟ فكانت الترجمة اداة مهمة فى برنامج النهضة ، واضطلعت مدرسة الألسن بترجمة الألف كتاب فى مختلف العلوم تحت رعاية الطهطاوى ، تلك المدرسة

التى تعد امتدادا حديثـا لبيت الحكمـة التى أسسها المـأمون فى بغداد سنة ٨٣٢ ، كما أن الطهطاوى هو امتداد ليحيى بن ماسويه ، وحنين بن اسحق أعظم المترجمين فى عهد المـأمون ٠

ولم يكن فعل الترجمة فى العصر الحديث مقصورا على مصر ، بل عرفتها دول اخرى ، مثل تونس خلال حـكم أحمد باى الذى أسس مدرسـة باردو الحربيـة ، وفى لبنـان التى قامت البعثات التبشيرية الأمريكية والفرنسية خاصـة اليسـوعيين بالترجمـة وبالذات الكتب الدينية وفى السودان فى كلية غوردن التذكارية وفى المغرب مدرسة الترجمة ٠

غير ان الترجمة العربية فى العصر الحديث تمت فى اطار ركود عربى وانحدار لغوى جعل من عملية الترجمة ، كما يصفها خليفة أفندى محمود ، « المكابدة الشاقة » نظرا لأنه كانت ترد عليه (الفاظ لم يجد لها مقابلا بالكليـة ، فبلفظها الأصـلى ذكرتها ، وبجملة اعتراضية فسرتها)(٤٢) ٠

وبالنسبة لحركة الترجمة فى مصر فى القرن ١٩ فانها قد تميزت بالآتى :

- غرض الترجمة الأول هو نقل علوم الغرب الحديثـة فى مجـالات النظم والقوانين للجيش والأسـطول والمدارس والمستشفيات والادارة الحكومية ٠
- تمت الترجمة من مختلف اللغات الأوربيـة الى التركيـة والعربيـه ٠
- لم تكن الترجمة لأغراض حكومية فقط ، بل كانت احيانا تتم على رغبة شخصـية ، مثل ترجمـة الأمير لميكيافيلى

وتاريخ الاسكندر ونابليون وكاترين وبطرس الأكبر وتاريخ ايطاليا وفرنسا على رغبة محمد على ، وترجمة وصايا فريدريك الأكبر لضباطه على رغبة ابراهيم باشا ، وترجمة افاضة الأذهان فى رياضة الصبيان على رغبة أنجال محمد على ٠

- مهدت حركة الترجمة بما حققته من انتشار الفكر العلمى والثقافة العلمية ـ فى مقابل الفكر والثقافة الدينية ـ مهدت السبيل للأفندية أن يحلوا محل المشايخ فى الزعامة الفكرية فى مصر فى القرن ١٩ ٠

- اتجهت بعض الكتب المترجمة الى تثقيف الشعب ، الذى أقبل عليها لدرجة اعادة طبع بعضها عدة مرات مثل كتاب كنوز الصحة وبواقيت المنحة وكتاب الدرر الغوال فى معالجة امراض الأطفال مما جعل مدرسة الألسن تعمق ذلك الاتجاه بنشر كتب للأدب والتاريخ والرحلات ٠

- مهدت حركة الترجمة لرقى وازدهار حركة التأليف والابداع ، وهذا ما حدث عندما ألف الطهطاوى : المرشد الأمين ، وأنوار توفيق الجليل ، والتحفة المكتبية ٠٠٠

- اعتمدت حركة الترجمة فى بداية أمرها على الشوام فى مصر مثل يوحنا عنحورى ، وأنطون روفائيل زاخور وجورجى فيدال وأوغسطين سكاكينى ويوسف فرعون(٤٣)٠ الذين ترجموا بعض الكتب العلمية الى اللغة العربية التى بدأت تأخذ مكانها بجوار التركية لغة الحاكم والادارة والجيش والصفوة ، خاصة بعد أن وضع أنطون روفائيل

زاخور قاموســه من الايطالية الى العربية ٠٠ ومن هنـا كانت الترجمة فعلا خطوة مهمة فى سبيل النهضة(٤٤) ٠

غير ان ازدهار الترجمة وتطورها ونموها يعتبر فعــلا مصريا أصيلا فأبرز المترجمين على الاطلاق وأكثرهم نشاطا ودأبا وتفانيا هو الطهطاوى الذى يصفه جمال الدين الشيال بأنه زعيم حركة الترجمــة والمبعوث الأوحــد للتخصص فى هذا الفن(٤٥) ٠

ــ احتلت العلوم البحتة والتطبيقية الرعــاية الأولى ، ولم يكن للآداب نصيب رسمى فى ترجمات النصف الأول من القرن ١٩ ٠ أما فى النصف الثانى من القرن ١٩ ونتيجة النكسة العسكرية وانهيــار المشروع العســكرى اتجهت الجهود الفكرية الى الابداع والتأليف أكثر من الترجمــة فنقص عــدد الكتب المترجمـــة وان زاد عــدد الكتب المنشــورة ، وبالتالى زاد الاهتمــام بالانسانيــة والأدب المبــدع ٠

ــ نظرا لانتشار الصحافة التى تخاطب الانسان العادى فقد زاد الاقبال على ترجمة الروايات والقصص والشعر ، وان تم ذلك على مستوى غير رسمى ٠

ــ اثمرت حركة الترجمة اثراء اللغة العربية بمصطلحات لم تكن تعرفها من قبل مثل الميكانيكا والبولطيقا والتلغراف والفسيولوجى ٠٠٠٠

ــ ازدهار الترجمة أدى الى زيادة وضــع قواميس للغــات مختلفة مما عــاد فأسهم فى المزيد من ازدهار الترجمة ٠

- تنوعت الترجمات بين كتب دراسية وادارية وعسكرية ، وكذلك كتب للأطفال ، مثل ترجمة الطهطاوى لكتاب بعنوان « حسن الاختراع فى شخص قدر الصباع » أو القوى الأرفع فى حكاية الاصبع المطبوع فى مطبعة بولاق سنة ١٨٤٥ .

رابعا - البعثات العلمية :

اعترض نظام التعليم المدنى الحديث فى بدايته مشكلتان : قلة الأساتذه الأكفاء ، وعجز اللغة العربية واللغات الشرقية عموما عن التعبير عن مضمون العلوم العصرية ، لعدم وجود الكلمات الدالة على ذلك ، وربما تكون فكرة البعثات التعليمية الى اوربا علاجا لهاتين المشكلتين ، وهذا يشير اليه الباشا فى حديثه مع بورنج « ان أمامى الشيء الكثير لأتعلمه ، وكذلك شعبى ، فانى مرسل الى بلادكم ادهم بك ومعه خمسة عشر شابا مصريا ليتعلموا ما يمكن لبلادكم أن تعلمه ، فعليهم أن ينظروا الى الأشياء بأنفسهم وان يمرنوا على العمل بأيديهم وعليهم أن يفحصوا مصنوعاتكم جيدا وان يكشفوا عن اسباب سبقكم ورقيكم ، حتى اذا ما أمضوا وقتا كافيا فى بلادكم عادوا الى بلادهم وعلموا شعبى »(٤٦) .

فالاعتماد على المدرسين الأجانب فيه محاذير منها عدم الولاء للوطن ، والتكلفة المرتفعة ، وعدم ضمان استقرار الأمور لو اضطروا للرحيل . وربما تعود فكرة البعوث نفسها الى المسيو جومار الذى حبب الفكرة لمحمد على موضحا له انه لو أمكن أن

يرسل الى أوربا مائة أو مائتين من الطلبة المصريين لتقدم رقى البلاد وتمدنها عما هو عليه الآن ٠

ويرى الرافعى أن فكرة ايفاد بعثات لأوربا لنقل العلوم عنها يعد عمـلا عبقريا ٠ اذ فى ذلك العصر « لم يفـكر حاكم شرقى ، ولا حكومة شرقية فى ايفاد مثل هذه البعثات ، ومثال ذلك تركيـا وسلطانها كان يملك من الحول والسلطة أكثر مما يملك محمد على، ولم يفكر فى ايفاد تلك البعثات ، فصـدور هـذه الفكرة فى ذلك العصر وفى وقت كان فيه محمد على مشـغولا بمختلف الحـروب والمشـاريع والهواجس ، يدل حقيقـة على عبقرية نادرة وهمـة عاليـة(٤٧) ٠

بدأت البعثـات سنة ١٨١٣ الى ايطـاليا لدراسـة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة ، ومنهم نقولا مسابكى الذى ذهب الى روما وميلانو سنة ١٨١٦ م لتعلم فن الطباعة وعاد ليتولى ادارة مطبعة بولاق سنة ١٨٢١ م ٠ كما أوفد عثمان نور الدين الى فرنسا ، وعاد ليصير اميرالا للأسطول المصرى ٠ وسنة ١٩٢٦ م بدأت حركة البعثـات الكبرى حيث أرسـل ٤٠ طالبـا ، صاروا ٨٠ سنة ١٨٢٦ م وكان امام البعثة هو الطهطاوى ٠ وفى سنة ١٨٤٤ م أوفد ٧٠ طالبا لتلقى العلوم الحربيـة ولحق بهم عدد من أفراد الأسرة المـالكة منهم اسماعيل ، والذى أنشأ لهم المدرسة المصرية بباريس والتى تولى ادارتها اسطفان بك ٠

وعموما بلغ عـدد المبعوثين الى أوربا أيـام محمد على من

سنة ١٨١٣ م حتى سنة ١٨٤٧ م ٣٣٩ مبعوثا « وهو عدد عظيم اذا قيس بدرجة الثقافة السائدة فى مصر آنذاك ، كما أنه عدد عظيم فى آثاره ونتائجه حيث كان لذلك العدد أكبر فضل فى نهضة مصر الاجتماعية والعلمية والاقتصادية والحربية »(٤٨) ٠

واهتم محمد على بأمور البعثات وأقام بينه وبين طلاب البعثات صلات قوية فكان يراسلهم ليحثهم على تكملة دراساتهم ويتحدث اليهم فى مشاكلهم ويوجههم ويطلب اليهم أن يكونوا قدوة حسنة ونموذجا طيبا يحتذى من الناس ٠ كما كان لا يتوانى عن توبيخهم اذا تراخوا فى عملهم وساءت نتائجهم ، كما كان يصر على عمل قائمة شهرية بكل ما قاموا به من أعمال ، وبكل ما قراه من كتب ، وكانت تلك المتابعة حافزا لهم على الجد والاجتهاد(٤٩) وكان أعضاء البعثات من بيئات علمية مختلفة كالأزهر والمدارس الخصوصية ، كما كانوا أيضا من أعمار مختلفة ، وكلفوا الدولة نفقات كبيرة حتى أنهم ظهروا فى فرنسا ، كما وصفهم الطهطاوى كأنهم من الموسرين(٥٠) وكما وصفهم ابراهيم باشا ، عندما زارهم فى المدرسة المصرية بباريس « لقد أصبح كل منهم سلطانا »(٥١) ٠

وبعودة المبعوثين نشطت حركة الترجمة ، كما عمل معظمهم ــ خاصة بعثة فرنسا ــ سنة ١٨٢٦ والتى عادت سنة ١٨٣٢ فى المدارس الخصوصية والمكاتب ، واختير منهم من يعمل بالمهندسخانة والطب ، كما ساهموا فى تنظيم أمور التعليم ووضع لوائحه ، وحلوا محل الأجانب فى ذلك ٠

وهذا جدول يوضح عدد المبعوثين فى عصر محمد على وتواريخ وجهة الابتعاث ، كما هى عند الأمير طوسون(٥٢) ٠

تاريخ الإبتعاث	الجهة	عدد المبعوثين	المترجم لهم
١٨٢٥/١٨١٣	ايطاليا فرنسا انجلترا	٢٨	٢
١٨٣٣/١٨٢٦	فرنسا النمسا انجلترا	١٣٨	١٣٠
١٨٤٣/١٨٣٣	انجلترا وفرنسا	٤٠	٦٠
١٨٤٤	فرنسا	٨٠	٨٠
١٨٤٥	النمسا	٢	٢
١٨٤٧	فرنسا	٥	—
١٨٤٧	انجلترا	٢٥	٢٥
١٨٤٨	انجلترا	٢١	—
الجملة		٣٣٩	٢٤٥

البعثات أيام عباس الأول :

حكم عباس باشا مصر أكثر من خمس سنوات من ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨ م حتى ١٤ يوليو سنة ١٨٥٤ م ، اوفد خلالها ٤ بعثات ، أولاها فى يونية ١٨٤٩ م وآخرها فى نهاية أكتوبر ١٨٥٠ م أى على مدى سنة وأربعة اشهر ونصف شهر من أيام حكمه ، وتأرجح عدد المبعوثين بين ٤٨ عند النديم ، و ١٩ عند جورجى زيدان ، وتراوح ما أنفق عليهم بين ٨٢٩٢٣ جنيه عند النديم و ٤٩٦٧٥ جنيها عند زيدان ، غير أن الأمير عمر طوسون يرجح أرقام النديم(٥٣) ٠

وربما تعود قلة أعداد المبعوثين الى قصر مدة حكم عباس باشا، والى ان المبعوثين فى عهد محمد على كانت نسبة منهم لم ترجع الى مصر بعد ٠

كما يلاحظ اعراض عباس عن الابتعاث الى فرنسا التى اعرض عن مواطنيها بمصر ، وكذلك أغلق المدرسة المصرية بباريس. فيما عدا البعثة الثالثة لتعلم الفلك على يد مسيو لوفيرييه رئيس المرصد الفلكي بباريس وعددهم ٣ افراد . وتوجهت بقية البعثات الى النمسا وانجلترا وايطاليا والمانيا لتعلم الطب فى الغالب والصيدلة والعلوم العسكرية(٥٤) .

البعثات أيام حكم سعيد باشا :

اختلفت حوله الآراء ، فسكت عن ذكر بعثاته اسماعيل سرهنك باشا فى حقائق الأخبار ، وأنكرها النديم تماما وقال البعض الثالث أنها ثلاث بعثات اختلفت الآراء أيضا حول عدد أفرادها ما بين ١٤ فردا الى ٦٩ فردا وبيان الآراء كالآتى(٥٥) :

المصدر	عدد الطلبة المبعوثين
اسماعيل سرهنك باشا	لا أحد
عبد الله النديم	لا أحد
أمين سامى	١٤
جورجى زيدان	١٤
يعقوب ارتين	١٤
عمر طوسون	٤٨
الرافعى	١٤
هيوارث دن	٤٨
أحمد عزت عبد الكريم	٦٩

ويفصل عمر طوسون البعثات كالآتى :

الأولى أواخر ١٨٥٤ الى سنة ١٨٦٠ م ، ٢٢ فردا توجهت الى فرنسا ، والثانية فى ابريل سنة ١٨٦٢ ، ١٨ فردا توجهوا الى

النمسا ، والثالثة فى اكتوبر سنة ١٨٦٢ م ، ١٢ فردا توجهوا الى فرنسا(٥٦) .

ويعتبر أحمد عزت عبد الكريم أن عدد المبعوثين الى أوربا أيام حكم عباس وسعيد لم يكن قليلا اذا قيس بقصر مدة حكمهما . كما يرى أن حركة البعوث قد وثقت أواصر الصلة بين مصر والحضارة الغربية حيث أصبح الانبعاث أحد المفردات المهمة والبارزة فى آليات الحياة الثقافية فى مصر بوجه عام ، وفى الحياة التعليمية بوجه خاص(٥٧) .

البعثات فى عصر اسماعيل :

توجهت معظم البعثات العلمية فى عصر اسماعيل الى فرنسا ، وكانت على النحو الآتى(٥٨) :

نوع الدراسة	من ١٨٦٣ حتى ١٨٧٩	من ١٨٧٩ حتى ١٨٨٢	المجموع
الطب والصيدلة	٢٦	١٢	٣٨
الطب البيطرى	٤	١١	١٥
التاريخ الطبيعى	٤	—	٤
الحقوق	٣٤	٧	٤١
الهندسة	١٧	—	١٧
الصناعات	٧	١	٨
الدراسة الابتدائية والتجهيزية	١٩	١	٢٠
الرسم	٢	—	٢
المساحة والمحاسبة	٣	—	٣
التعليم	٤	—	١
غير معلوم	٤	١	٥
طالبه	١	—	١
المجموع	١٢٢	٣٣	١٥٥

كما اتجهت بعثات الى دول أخرى ، وكان بيانها كالآتى(٥٩) :

البلد	العدد	ملاحظات
فرنسا	١٥٥	١٢٢ فى عصر اسماعيل ، و ٢٣ بين سنتى ٧٩ ، ١٨٨٢ .
انجلترا	١٤	فى عصر اسماعيل .
ايطاليا	١٥	فى عصر اسماعيل ومنهم طالبان ارسلا قبل ذلك الى فرنسا .
المانيا	٥	فى عصر اسماعيل ومنهم طالب كان يدرس قبل ذلك بفرنسا .
سويسرا	٦	فى عصر اسماعيل ومنهم طالبان تحولا الى فرنسا .

غير أن بعض المؤرخين يختلفون مع أحمد عزت عبد الكريم ، يوردهم أنور عبد الملك كالآتى (٦١) :

المصدر	العدد	المصدر	العدد
ساشو	٥٥	ساماركو	١٧٢
دى رينى	١٥٨	هيورث دن	٩٤
يعقوب ارتين	١٧٢	الرافعى	١٧٢
الياس الأيوبى	١٧٣		

والملاحظ أن الخديو اسماعيل بحكم كونه حاكما مستنيرا تعلم فى احدى بعثات جده سنة ١٨٤٤ م ، عرف قيم الابتعاث وأثره فى النهضـة الثقافية عموما ، والنهضة التعليمية خصوصا ، فاستمر طوال فترة حكمه يواظب على ارسال البعوث العلمية الى أوربا ٠

كما نلاحظ الزيادة الملحوظـة فى عدد المبعوثين على نفقاتهم الخاصة ، خاصة بعد أن قررت الحكومة ارسال البعوث من صغـار السن ، حيث بلغ عددهم سـنة ١٨٨١ م ، ١٤ طالبـا ، زاد الى ٢٣ طالبا سنة ١٨٨٦ م ثم الى ٥٠ طالبا سنة ١٨٨٨ م(٦١) ٠

خامسا ــ دار الكتب (المعمل ــ دار العلوم) :

ربما ترجع فكرة انشاء دار لجمع الكتب المتناثرة فى الدواوين والمدارس وأماكن العبادة ، الى محمد على الذى أمر بانشاء تلك الدار فى مدرسـة الترجمة وامر بأن تسجل جميع الكتب فى بعض الدفاتر ضمانا لحفظهـا من الضياع او التلف وفى عصر الخـديو اسماعيل ولحرصه على نشر الثقافة واهتماما منه بجمع الكتب المبعثرة فى عدة أماكن ، قرر الاتصـال برجال الدين ليعرض عليهم فكرة انشاء دار لجمع الكتب الموقوفة على المساجد وأماكن العبادة حتى لا تتعرض للاندثار ٠ ثم أصدر الخديو أمره بجمع الكتب من الأماكن الموجودة بها وعهد بهذه المهمة الى الشيخ نصر الهوزينى ٠

وهذا ما يؤكده على مبارك من أن الخديو اسماعيل يرغب فى انشاء كتبخانة عمومية تجمع الكتب المتفرقة فى الجهـات الميرية وجهات الأوقاف فى المساجد ونحوها ، وأمرنى بالنظر فى ذلك(٦٢) أى أن على مبارك هو صاحب فضـل تنفيذ أوامر الخديو اسماعيل وليس هو صـاحب الفـكرة كمـا كان يدعى « ظهر لى أن أجعل كتبخانة خديوية داخل الديار المصرية أضاهى بها كتبخانة مدينـة

باريز ، فاستأذنت الخديو اسماعيل باشا فى ذلك فأذن لى ، فشرعت فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك ، وبعد فراغها وجمعت ما تشتت من الكتب التى كانت بجهات الأوقاف زيادة على ما صار مشترى من الكتب العربية والأفرنجية وغيرها »(٦٣) ٠

وكان انشاء الدار يحتاج الى ميزانية ، لم يكن من السهل توفيرها ، فأمر الخديو اسماعيل بنزع ملكية ١٨٠٠ فدان كانت مخصصة للوقف لصالح ابنه وولى عهده توفيق ، وأوقفها على تلك الدار وقام الخديو بافتتاحها فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٠ م بمنطقة درب الجماميز على أن تتبع ديوان الأوقاف ماليا وناظر المدارس اداريا ، حيث قام على مبارك ناظر المعارف بعقد اجتماع بديوان المدارس ليضع أول قانون لدار الكتب(٦٤) ٠

وبالاضافة للكتب الموجودة فى الكتبخانة القديمة والكتب الميرية التى قام ديوان الحكومة بشرائها ، قرر الخديو اسماعيل شراء مكتبة أخيه الأمير فاضل من ماله الخاص ، والتى بلغ عدد مجلداتها ٣٤٥٨ مجلدا من نوادر المخطوطات والكتب لاضافتها الى دار الكتب حتى وصل عدد الكتب بها فى أواخر سنة ١٨٧١ م الى تسعة آلاف كتاب تضم لغات عدة منها التركية والانجليزية والفرنسية والفارسية والايطالية والأسبانية بالاضافة طبعا للكتب العربية(٦٥) ٠ ولم تقتصر المطبوعات على الكتب فقط ، بل ضمت الدار الدوريات المختلفة كالوقائع المصرية والحوادث والجوانب ٠

وجعل بها محلا للاطلاع على الكتب والمطالعة والمراجعة والنسخ ورتب فيها ما يلزم للكتابة من الأدوات المختلفة ٠

وقد الحق بالدار : المعمل ، ودار العلوم .

١ ــ المعمل ، لأجل اتمام الفائدة ألحق بالدار محل للآلات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم الرياضـية اللازمة للمدارس . وصرف لمشترى تلك الآلات نحو أربعة آلاف جنيه وذلك ليسـهل على التلاميذ والمعلمين المعاينة والتمرن على استعمال تلك الآلات ، واجتلاء المعقول فى صورة المحسوس فتعاضد الفكر والنظر والعلم والعمـل(٦٦) .

٢ ــ دار العلوم ، وهى قاعة محاضرات ملحقة بالكتبخانة ، حولها على مبارك الى مدرسـة لتخرج المعلمين ، وكان المعلمون من قبل يختارون من بين خريجى الأزهر لتدريس اللغة العربيـة والدين ، ومدرسة الألسن لتدريس اللغات الأجنبية والمواد الأدبية ، ومدرسة المهندسخانة لتدريس الرياضيات ، بالاضافة الى كل من تلوح عليه معرفة بعض الأمور ، مما أثار عـدم ارتيـاح على مبـارك الذى استحدث تلك الدار وجعلها خاصة بطلبة الجامع الأزهر ممن تلقوا علوم اللغة العربيـة ، ووفر لهم بعض العلوم المفقودة بالأزهر مثل الحساب والهندسة والطبيعة والجغرافيا والتاريخ والخط ، وجعل لهم مرتبا شهريا يستعينون به على الكسـوة وغيرها من النفقات ، كما رتب لهم المعلمين من المشايخ العلماء وغيرهم لتعليمهم وتدريبهم فينتفعوا بهـذه الفنون وليجعـل منهم معلمين فى المكاتب الأهليـة بالقاهرة وغيرها لتعليم العربية والخط ونحو ذلك (٦٧) .

سادسا ــ الجمعيات العلمية والأهلية :

ضمت هذه الجمعيات كل رجال النهضة وقتذاك ، حيث ساروا فى طريق الاصـلاح والنهضة متخذين من هذه الجمعيـات ركيزة لهم فى تحركاتهم وأعمالهم . وليس من المبالغة فى شىء القول : ان

معظم المشروعات النهضـوية المصرية الناجحة على اختلاف ألوانها كانت وليدة هذه الجمعيـات ، وليس ذلك ببعيد على رجالهـا الذين كانوا زعماء الاصلاح ، وأعلام النهضة المصرية الحديثة(٦٨) ٠

ومن هذه الجمعيات ، جمعية رواق الشـام بالأزهر ، وهى جمعية خطابية ادبية ، وجمعية المقاصـد برئاسة البارودى وزير الأوقاف حينذاك ، وجمعية الاعتدال برئاسـة فارس نمر وحفنى ناصف ، وكان لها مجلة بهذا الاسم تدعو لبث الفضـائل ، وجمعية العلم المصرى ، وجمعية العلم الشرقى والجمعية السورية أو النادى السورى(٦٩) ٠٠ ويقف الباحث عند أكثر هذه الجمعيات شهرة وتأثـيرا :

١ ــ المجمع العلمى ، الذى أنشأته الحملة الفرنسية ، وألغى عند جلائها ثم أعيد انشاؤه سنة ١٨٥٩ م بالاسكندرية واستمر يؤدى مهمتـه فى نشر المبـاحث العلميـة ، وله مجلة تنشر مباحثـه ٠

٢ ــ المحفل المـاسونى Macon كلمة فرنسية تعنى بنـاء ، فالمـاسونية بمعنى البناء وجماعة البنائين هم الأعضـاء ، وكانوا لا يتركون علما من العلوم الا واتقنوه ، وكانت لهم كلمات واشارات يتعارفون بها(٧٠) ، ومن مهامها اقناع الناس انهم متساوون ، وأن الميزات القومية والمعتقدات الخاصة كلها اصطناعية لا قيمة لها(٧١) ٠ وكان بمصر ثلاثة محافل كبرى انجليزى وفرنسى وتركى(٧٢) وكانت المحافل ذات نشاط سرى ومتمتعة برعايـة وحماية أجنبيـة ، وانضم الأفغـانى ومريدوه الى المحفل البريطانى « كوكب الشرق » ، ولمـا لم يجد فيه ضالته المنشودة أنشأ محفلا وطنيا تابعـا للشرق

الفرنسى جمع فيه طلابه ومريديه (حوالى ٣٠٠ عضو) بهدف رفع الظلم عن المصريين وقسمه الى شعب ٠٠٠ شعبة لرفع شأن الضباط المصريين وتحقيق المساواة بينهم وبين الضباط الشراكسة ، وأخرى خاصـة بالحقانيـة وثالثة للمالية .. وهـكذا(٧٣) ٠

٣ ـ جمعية المعارف وهى أول جمعية علمية ظهرت فى مصر لنشر الثقافـة بواسـطة التأليف والطباعـة والنشر ٠ أسسهـا سنة ١٨٦٨ م محمد عارف باشا ، بهدف نشر العلوم والمعارف بطبع الكتب العلمية وتأليفهـا وتهذيبها وتلخيصها ، وتولى الأمير محمد توفيق رعايتها ، وامتلكت الجمعية مطبعة لطبع الكتب التى تولت نشرها ٠ وقامت بطبع طائفة من امهات الكتب فى التاريخ والفقه والأدب(٧٤) ٠

٤ ـ الجمعية الجغرافية الخديوية ، من اهم المنشآت العلميـة فى مصر ، أسسها اسماعيل باشا سنة ١٨٧٥ ، بغرض العناية بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ٠ ولها مجلة دورية تنشر المباحث والاكتشافات وتؤدى خدمات جليلة للعلم والجغرافيـا(٧٥) ٠

٥ ـ الجمعية الخيرية الاسـلامية ، أسسها النديم سنة ١٨٧٨ م حيث مهد فى صحف الاسكندرية عن عزمه فى تأسيس جمعية خيرية ٠ الهدف منها مقتصر على الأمور الثقافية والاجتماعية ، وقد اسـتطاع أن يجمع حوله أحد عشر رجـلا لتأسيس الجمعيـة ، وتم وضـع قانونهـا فى ١٨ من ابريـل سـنة ١٨٧٩ م(٧٦) واختلفت تلك الجمعيـة فى ٨ يونيـة سنة ١٨٧٩ م بافتتاح اول مدرسة تابعة لها وحضر حفـل

الافتتاح كثير من الأمراء والعلماء والوجهاء وقام النديم بينهم خطيبا فبين فى خطبته أهمية المدارس فى تعليم الأولاد والاتحاد والأخوة فى الوطن بدون تمييز لأى دين أو عنصر وتنشأتهم على الوطنية وحب الانسانية(٧٧) ٠

ورغم أن الهدف الذى أعلنـه النديم من وراء انشائه تلك الجمعية هو تأسيس مدارس للبنين والبنـات لجميـع ابناء الشعب بالمجان ، على أن تكون ذات صبغة قومية يعنى فيها باللغة العربية وآدابها ، وبالأخلاق والتربيـة الوطنية ، فقد كان للنديم هدف آخر وهو تبنيـه لأفـكار تدعو الى الحرية وقيادة الراى العام عن طريق الجمعيات والمحـافل الخطابية بالقطر ، متبعا فى ذلك أسلوب أستاذه الأفغـانى ، وقد وضح ذلك فى الخطبة التى ألقاها فى افتتاح أول مدرسة للجمعية ، فقد تطرق الى أمور سياسية حين قال : هـذا الاحتفـال سيكون تاريخا لبعث الأرواح العربيـة ونشـأة الغيرة الشرقية ، وهكذا يكون الميل الذاتى للانسان بالنفع النوعى والمصلحة الوطنية ، فالأعضاء شتى والنفس واحدة والعروق عدة والدم واحد ، والأفكار تنوعت فمرها لسان واحـد(٧٨) ٠

٦ ـ جمعية مصر الفتاة عرضت لمساوىء المجتمع ووضعت سـبل اصلاحها وشكت من تحمل الفلاحين للضرائب الباهظـة وسوء العدالة وفساد أسلوب تحصيل الأموال وقصـور التعليم ، وطالبت بقانون ينظم الحقوق والواجبات لكل من الحـاكم والمحـكوم ، وايجـاد قانون للانتخـاب واستقلال السـلطة النيابية وتوزيع السلطات وصيانة الحريات واعطاء الحريـة التامة للمطبوعات والاجتماعات(٧٩) كمـا كان من أهـداف

الجمعية قيام حكم الشورى · وغزت المنشورات السرية لهذه الجمعية البلاد تصور سوء الأحوال وتطالب بضرورة وضع حد للمظالم ، وكان أول منشور لها فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٧٩(٨٠) ·

ورغم أن الجمعيات السرية ونشاطها كانت ذات قدرة محدودة ، وقليلة العدد ، فانها كانت نقطة مهمة وحيوية لبداية وانطلاق أى عمل وطنى واسع ·

هوامش الفصـــــل الســـــابع

(١) احمد عزت عبد الكريم : دراسات فى التاريخ العربى الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ ، ص ٢ .

(٢) ابراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ – ١٨٨١ م، مؤسسة سجل العرب ، ط ٤ ، القاهرة ، ص ١٦ .

(٣) ج. كرستوفر هيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد اندراوس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ ، ١٧٨/١٧٧ .

(٤) عبد الرحمن الجبرتى ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، جـ ٣ ، مرجع سابق ، ص ٤٩ .

(٥) امين سامى ، تقويم النيل ، جـ ٢ ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

(٦) المرجع السابق ، نفس الصفحة .

(٧) ابراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٠ .

(٨) الوقائع المصرية من مقالة أحمد خيرى بك ، العدد الصادر فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٥ .

(٩) عبد اللطيف احمد حمزة ، الصحافة المصرية فى مائة عام ، دار الحكمة ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٦ .

(١٠) المرجع السابق ، ص ٣٤ .

(١١) عبد اللطيف احمد حمزة ، الصحافة المصرية فى ١٠٠ عام ، مرجع سابق ، ص ٤١٠/٤٠٠ .

(١٢) المرجع السابق ، ص ٤٣/٣٢ .

(١٣) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(١٤) التجارة فى ٥ ، ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩ .

(١٥) التجارة فى ١٣ ابريل سنة ١٨٧٩ .

(١٦) خليل صابات ، تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ، ط ٢ ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦ ، ص ١٧٩ .

(١٧) تفصيلا انظر المرجع السابق ، ص ١٧٥/١٧٢ .

(١٨) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ص ٦٤ .

(١٩) المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٢٠) الرافعى ، عصر اسماعيل ، ج ١ ، ط ٣ ، مرجع سابق ، ص ٣٨٤ .

(٢١) جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج ٤ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، سنة ١٩١٤ ، ص ٩١ .

(٢٢) عايدة ابراهيم نصير ، حركة نشر الكتاب فى مصر فى القرن التاسع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٤ ، ص ٤٤٨ .

(٢٣) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة محمد على ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٨ ، ص ٦٨٧ .

(٢٤) ادوار جوان ، مصر فى القرن التاسع عشر ، ط ٢ ، ترجمة محمد مسعود ، القاهرة ، د.ت ، ص ٦٢١ .

(٢٥) محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة محمد على ، مرجع سابق ، ص ١٨٠ .

(٢٦) عايدة ابراهيم نصير ، حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٢٤٦ .

(٢٧) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٩/٣٨ .

(٢٨) المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢٩) ابراهيم زكى خورشيد ، الترجمة ومشكلاتها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ ، ص ٧٦ .

(٣٠) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٥١ .

(٣١) على مبارك : الخطط التوفيقية ، مج ٣ ، حـ ١١ ، ص ١٠ ؛

(٣٢) محمد فؤاد شكرى وآخرون، بناء دولة مصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ١١٠/١١١ .

(٣٣) جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر خلال القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ ، ص ٢٨ .

عشر ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢ .

(٣٤) عايدة ابراهيم نصير ، حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٢٥٢ .

(٣٥) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٣٤٤ .

(٣٦) جاك تاجر ، حركة الترجمة بمصر ، مرجع سابق ، ص ٧١ .

(٣٧) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣٨) محمد عمارة ، رفاعة رافع الطهطاوى رائد التنوير فى العصر الحديث ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤ ، ص ٩٦ .

(٣٩) جمال الدين الشيال ، رفاعة رافع الطهطاوى ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ ، ص ٤٦ .

(٤٠) عايدة ابراهيم نصير ، حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر ، مرجع سابق ، ص ٢٦٣ .

(٤١) المرجع السابق ، ص ٢٦٧/٢٦٩ .

(٤٢) خليفة أفندى محمود ترجمة ، اتحاف الملوك الالبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا ، تأليف روبرتسون ، تصحيح رفاعة الطهطاوى ، مطبعة بولاق ، سنة ١٢٥٨ هـ ، ص ٣ .

(٤٣) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة ، ص ٩٢/٣٧ .

(٤٤) أحمد طاهر حسنين ، دور الشاميين المهاجرين الى مصر فى النهضة الادبية الحديثة ، دار الوثبة ، دمشق ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٥١ .

(٤٥) جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة ، مرجع سابق ، ص ١٢٠ .

(٤٦) عن محمد فؤاد شكرى ، بناء دولة محمد على ، مرجع سابق ، Dowring, 14

(٤٧) الرافعى ، عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٤٠٧ .

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٤٠٩ .

(٤٩) Dunne, H. Ibid., P. 165.

(٥٠) تخليص الأبريز الى تلخيص باريز ، دار التقدم ، سنة ١٩٠٠ ، ص ١٤٨ .

(٥١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى عصر محمد على ، مرجع سابق ، ص ٤٢٥ .

(٥٢) البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهد عباس الأول وسعيد ، مطبعة صلاح الدين ، الاسكندرية ، سنة ١٣٤٣ هـ ، ١٩٣٤ م ، ص ٤٠٨ .

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٤١٦ .

(٥٤) تفصيلا المرجع السابق ، ص ٤٧٦ .

(٥٥) أنور عبد الملك ، نهضة مصر ، مرجع سابق ، ص ١٣٥ .

(٥٦) عمر طوسون ، البعثة العلمية فى عهدمحمد على ، مرجع سابق ، ص ٥٧٦ .

(٥٧) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨ ، ١٨٨٢ ، ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٦٩٥ .

(٥٨) المرجع السابق ، ص ٧٤٧ .

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٧٧٥ .

(٦٠) نهضة مصر ، مرجع سابق ، ص ١٣٦ .

(٦١) أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر من نهاية حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ١٨٤٨ ، ١٨٨٢ ، ج ٢ ، مرجع سابق ، ص ٦٩٦ .

(٦٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٩ ، مرجع سابق ، ص ٥١ .

(٦٣) المرجع السابق ، جـ ٣ ، ص ١٤ .

(٦٤) الوقائع المصرية ، ٢٦ سبتمبر سنة ١٨٧٠ .

(٦٥) جريدة الجوانب ، ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٧١ .

(٦٦) عن محمد أحمد خلف الله ، على مبارك وآثاره ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧ ، ص ١٠١ .

(٦٧) المرجع السابق ، ص ٩٧ .

(٦٨) عز الدين عبد العزيز منصور ، الجمعيات الثقافية والأدبية فى العصر الحديث الى سنة ١٩١٤ ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كليه الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٧ ، ص ٢٦ .

(٦٩) تفصيلا انظر المرجع السابق .

(٧٠) جورجى زيدان ، تاريخ الماسونية العام ، مطبعة المحروسة ، القاهرة ، سنة ١٨٨٩ ، ص ٣١ .

(٧١) فورسية ، هذه هى الماسونية ، ترجمة بهيج شعبان ، دار بيروت ، سنة ١٩٥٥ ، ص ١٢ .

(٧٢) تفصيلا انظر عبد الرحمن سامى عصمت ، الصهيونية والماسونية ، مطبعة رمسيس ، الاسكندرية ، سنة ١٨٩٠ ، ص ٨٤ .

(٧٣) محمود قاسم ، جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ، الانجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت ، ص ٤١/٤٢ .

(٧٤) الرافعى ، عصر اسماعيل ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .

(٧٦) محمد أحمد خلف الله ، عبد الله النديم ومذكراته السياسية ، الأنجلو ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦ ، ص ٤٩ .

(٧٧) على الحديدى ، عبد الله النديم خطيب الوطنية ، أعلام العرب (٩) مكتبة مصر .د.ت ، ص ٨٧ .

(٧٨) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٧٩) جمعية اتحاد مصر الفتاة ، لائحة اصلاح مرفوعة الى جلالة الأمير توفيق الأول ، مطبعة موريس ، الاسكندرية ، سنة ١٨٧٩ ، ص ص ١ : ٦٨ .

(٨٠) أديب اسحق ، الدرر (منتجات أديب اسحق وهى ٤ اجزاء فى مجلد واحد يحتوى على أشعاره ورسائله وخطبه) مطبعة الآداب ، الاسكندرية ، سنة ١٩٠٥ ، ص ١٠٦ .

الخاتمــــة

دارت هذه الدراسة حول التعليم ومشروعات النهضة المصرية في القرن ١٩ ، وهي دراسة تاريخية ، تربوية ، نهضوية ٠

فالتاريخ لم ينته بعد ، بل انه مازال مستمرا ، وبالتالي فان قراءة التاريخ ، واعادة قراءته وفق مفــاهيم جديدة ، ورؤى أكثر وضوحا ، وفي ضوء مصالحنا وتوجهاتنا القومية حاليا ، وبالقيــاس لمسرح الأحداث المعاصرة ، أمر لا غنى عنه ٠

فالحقيقة التاريخية ديناميكية ، تأتي كل يوم بجديد ، وهذا هو علة ان التاريخ يبدو أحيانا اداة لتثبيت الحــاضر وتبريره ، وبالتالي يكون من ادوات الركود وتكريسه ، وأحيانا أخرى يبدو انه وسيلة من وسائل تطوره وتحريكه ٠

وقد خلصت الدراسة الى ان التاريخ علم يدرس حركة الزمن ويرصد اتجاهات التطور ويثبت أن الانسان في تطور دائم ، وذلك عندما يوضح أن الحــاضر غير المــاضي في كليته وان ظلت فيه عناصر حية ، وأن المستقبل بالضرورة غير الحاضر وان جاء انطلاقا منه ٠

ومن هنا فان الدراسة التاريخية ــ تربويا ــ تعني أن ثمـة فكرا وقيما جديرة بأن تنقذ من النسيان ، كما يعني اســتمرار

التماسك والديمومة والاستمرار والحفاظ على الذات الممتدة جذورها فى الماضى ، فالمجتمعات فى حقيقتها كيانات اجتماعية تاريخية فى حركتها وصيرورتها ٠

وهذا ما يبرر كون التاريخ ، وفى كل مجتمع ، يؤلف جزءا مهما من البرامج الرسمية للتعليم قراءة لجهد الانسان مدا وجزرا عبر الزمن اذ لايمكن فهم الحاضر منتزوعا من جذوره ٠

ثم ان كل قضايا او احكام أو تفسيرات فى التاريخ مرتبطة ومتشابكة بالحاجة التى تدفع اليها ، وهى اجابة عن سؤال يفرضه الواقع ابتغاء تغييره الى واقع جديد ، أو لتبرير واقع راهن وترسيخه ، حتى لو تغيرت الصور والأشكال دون الجوهر والمضمون ، وبالتالى تبدو التواريخ العارية من المشاكل العلمية والواقعية ، تواريخ مثالية من قبيل نماذج المثل العليا لأفلاطون ٠

وهذا لا يعنى ان دراسة التاريخ من منظور الحركة تحيلنا الى حلول ماضوية لمشاكل ماضوية ، او لحلول ماضوية لمشكلات حالية ٠ فلكل زمان ظروفه وافكاره وقيمه على أرضية من جذورها٠ وهكذا فان دراسة التاريخ تمكننا من التحليل الاجتماعى للحاضر ، فتضع أيدينا على الخيوط التى نسج منها ، فنفهم قوامه وتركيبه وديناميته والكيفية التى صنع منها ٠

فالثقافة التاريخية توسع اختياراتنا وتعمقها ، لأنها ثقافة شديدة التنوع والتباين وبدونها يختل الاحساس الاجتماعى الوطنى وتثار عوامل الفرقة على أساس عرقى أو طائفى او عقيدى ، او نظرة أيديولوجية ضيقة ومنغلقة ٠

فمهمة الثقافة التاريخية تنمية الفهم وتعميقه لكل من الماضى والحاضر٠ فالمهمة مزدوجة ٠٠ فهم الماضى ، وزيادة السيطرة على

مجتمع الحـاضر ، أى فهم الحاضر فى ضـوء تجارب المـاضى ، واعادة فهم المـاضى واحداثه ورموزه ومعانيـه فى ضوء احتياجات الحاضر وتطلعات المستقبل ، ومن هنا تكتسب الدراسة التاريخية قيمتها من عصريتها ومحور ارتكازها المستقبلى ٠

والدراسة التاريخية المنشودة ، بما تمده من ثقافة تاريخية ، تؤكد ان التاريخ يجمع فى آن واحد بين تأزم الواقع المعـاصر ، والتوجه الى المستقبل تخطيا لذلك التأزم ٠ فالتاريخ ليس مجرد ماض مضى ، لكنه حاضر حى ، وحياته فى الوعى به ، ومن ثم فان الدراسة التاريخية تحدد للأمة طريقة رؤية ذاتها وصـيرورة تلك الذات ، والتعرف على مواطن الانقطـاع والاسـتمرار ، ومواطن الاشكاليات فى الحاضر ٠ وتصور منطلقاتها نحو المستقبل ٠

فالنهضة المصرية الحديثة ، كسائر النهضـات التى سبقتها أو رافقتها او لاحقتها ، اعتمدت على التاريخ ، وجعلت منه أساسا من مقوماتهـا ٠

والاهتمام بالتاريخ يعنى الاهتمام بمعرفة الذات ، الأصالة ، السجل الحافل بالأمجاد والآلام ٠ وليس الرجوع للتاريخ بغرض الاعتزاز فقط ، بل بغرض الاعتبـار والدرس ٠ فلا معاصرة دون أصالة ، ولا اصالة دون تراث ، ولا تراث دون تاريخ ٠ فنحن امة تملك تراثـا حضاريـا هائـلا يستحيل قطيعته ، كمـا يستحيل ـ بالطبـع ـ العيش الدائم فيه ٠ ومن ثم فلا قطيعـة ولا تقديس لكن المطلوب « نظرة تراثية تعتمد على الاستيعاب النقدى الواعى لمقومات التراث وتطوره وتحولاته وظروفه الموضـوعية التى أفرزته وغذته ، او فككته وقطعته ليصبح التراث زادا فى فهم الحاضر ، بل يصبح بعدا من أبعاد الحـاضر خاضعا للنقد والتقويم »(١) ٠

لكن تراثيتنا تعنى ـ أو يجب أن تعنى ـ الانطلاق من الوعى الناقد للتراث سعيا الى مرحلة جديدة من الحركة والتطور ٠

ومن هنـا فان التربيـة ـ تاريخيـا ـ تقف بين خيارين : اما تكييف الفرد للجماعة ، فتحافظ على الراهن تمجيدا للماضى ، أو تزويد الفرد بالقدرات والمهارات التى تمكنه من تطوير الحاضر تطلعا للمستقبل ٠

فالتربية فى اى مجتمع هى ـ من ناحية ما ـ مرآة عاكسـة لصورة ذلك المجتمع تبدو فيها قسماته وقواه الفاعلة ، ومده وجزره وتناقضاته وتراكماته ٠ ومن ناحيـة أخرى ـ تشير الى امكانات الطاقة المحركة لذلك الواقع حين تحفزه الى الحركة كما تتحرك معه ٠ فكل تطوير فى البنى المجتمعية يلازمه ـ فى الأغلب والأعم ـ تطوير فى بنيـة التعليم ومحتواه ليسهم بدوره فى التعجيل بتطوير تلك البنى المجتمعية او التكيف معها ٠

وبعد ، فان دراسة مشروعات النهضة على ارضية تاريخيـة تربوية يعد مشروعا بحثيا لاستخلاص قيم ومعايير النهضـة المصرية المعاصرة ، وتاثيرها فى التعليم وتاثرها بقوى التغيير فيه ٠ فالتجربة النهضوية المصرية فى القرن ١٩ يعود لها فضـل السبق فى ريادة النهضة العربية الحديثة الى حد كبير ، مما يجعلها نموذجا صالحا للدراسة واستخلاص العبر ٠ وقد قامت هذه الدراسة بتتبع تفاعلات التعليم ومشروعـات النهضـة حيث كشـفت عن أن التعليم لم يكن بمعزل عن فاعليات تلك المشروعـات ، بل كان فى قلبهـا تابعـا لتحولاتها ، ومحركا لتلك التحولات ، فالعلاقة لم تكن أحاديـة الاتجاه بل كانت علاقة جدلية ، فالتعليم قد تاثر بها كما تاثرت بنتائجـه :

ففى النهضة العسكرية ـ محور مشروع النهضة برمته ـ لم يستطع محمد على بناء جيش نظـامى على الطراز الأوروبى الحديث الا اعتمادا على الجهد التعليمى للمدارس العسكرية والتى تبنت مدربين ومدرسين ومناهج وفنون وبعثات ذات طابع اوروبى حديث اعتمادا على انسان مصرى مفعم بالتطلع نحو النهضة بالرغم من كل تضحياتهـا ٠

واذا كانت تلك المدارس قـد ازدهرت وقت ازدهار الدور الفعال للجيش المصرى ، فانه بعد معاهدة ١٨٤٠ م وبتقلص الدور العسكرى لمصر وبتحديد عدد أفراد قواتهـا المسلحـة ، فان تلك المدارس قد تقلصت وأغلق الكثير منها خاصة أيام حكم عباس الأول وسعيد باشا غير أنها عادت للازدهـار مرة أخرى فى فترة حـكم الخديو اسماعيل الذى أهتم بتطوير صور الحياة والعمران المدنى اهتماما يعكس رغبته فى جعل مصر قطعة من اوروبا حسب تصوره فى تحديث المجتمع ، كذلك صار الجيش المصرى فى القرن ١٩ دلالة هامة من دلالات نهضتها ، فلم يعد يتحكم فى مصـــير مصر تلك العصبيات المسلحـة من القوات غير النظاميـة ولم يعد صـوت لجماعات شيوخ العشائر او جماعات الملتزمين أو شيوخ حـرف أو غيرهم من الزعامات الوطنية ما كان لها من سلطان فى القرون السابقـة ٠

وظهرت سلطة الدولة والحكومة المركزية ، وهـذا هو معنى ارتباط قيـام الدولة بالمفهوم السياسى فى مصر بحكم محمد على ، وبالتـالى صارت الدولة تحقق حكمهـا بضبط الأراضى والمـال وتنظيم الزراعة والرى والتعليم وتدعيم مرافق البلاد على أسـاس مبدأ التخصص ، وذلك بأن يختص كل ديوان بمرفق من مرافق

البلاد ، ومن ثم ظهر بمصر نظـام ادارى دقيق يبسط سلطانه على جميع مرافق البلاد ويثبت فى يقين الناس قوة الحكومة .

هذا فضلا عن ان دور الجيش لم يعد مقتصرا على الناحيـة الحربية فقط ، بل صار له دور حضـارى ونهضوى بارز تمثل فى الاهتمام بمشروعات الزراعة والرى وتحمل مسئولية بناء السفن وخلق روح نظامية ، والاستمتاع بحيـاة الأمن داخل المجتمـع ، واحلال العنصر المصرى محل العنصر التركى وغيره فى الجيش . وصارت الجندية من عوامل مباهاة المصريين ، كما عملت الجندية على خلق كوادر فنية أسهمت فى ارتقاء المجتمع اقتصاديا ، كمـا استطاعت مدرسة الجندية ان تدمج العناصر المنشقة عن المجتمـع مثل البدو والعربان الذين تحولوا الى عناصر اجتماعيـة تتحلى بالطاعة والنظام وكذلك أذابت حياة الجندية الحواجز الطائفية التى كان معمولا بها فى الدولة الاسـلامية وقتهـا ، فجمعت الجنديـة المصرية بين المسلم والمسيحى فى جهاز واحد يتولى تأمين البـلاد وايجاد نوع من الوطنية المتجانسة .

واذا كان محمد على قد اتخذ من الجيش محورا للنهضة ، وجعل من التعليم والاقتصاد وغيرهما عناصر نجاح لهذا المشروع ، فان انكسار الجيش بسبب مقاومة القوى الأوربية له ، خاصـة انجلترا ، أدى الى انكسار المشروع النهضـوى برمته ، ولو الى حين ، مما يوجب ان يكون مشروع النهضة المصرية ــ مستقبلا ــ شاملا ومتعدد جوانب الارتكاز .

واذا كان محمد على قد فشل فى الحفاظ على مشروع النهضة المصرية بسبب عجزه عن مواجهة القوى الخارجية بعد سنة ١٨٤٠م ، فان هـذا العجز لم يكن ناتجـا فى الأسـاس عن ضعف القوة

العسكرية ، بل كان ناتجا ــ وفى الأساس ــ عن أن السلطة الحاكمة لم تأخذ شرعيتهـا من الجمـاهير ، ولكن استمدت شرعيتهـا من الاعتمـاد على توازنات القوى الخارجيـة • وهـذا درس مهم فى النهوض ، فكل سلطة حاكمة تعتمد فى قوتها على البطش بشعبها وتطوير اجهزة قمعها وتستعدى قطاعات المواطنين وتنتهك الحرمات هى سلطة تتعجل زوالها بأوهى الأسباب ، لأنها سلطة تتولد فى ظل التبعية وشروطها ، سلطة حرصت على بناء قوة قهر لا دولة ، أداة قمع لا نظـام ، وسيلة نهب لا ادارة انتاج •

وكما ان فوضى الجيش المصرى قبل محمد على قد عكسـت حالة الفوضى التى عاشتها مصر وقتذاك ، فقد عكسـت الحـالة الاقتصادية لأحوال المجتمع المصرى بصفة عامة وما شابها من ركود وعزلة وجمود وفقدان لأى سياسـة للتوجيه والترشيد ، وضعف الهمة وانعدام الحافز للتغيير • فرغم أن الحملة الفرنسية وضعت لمصر ، بفضل مشروع مينو العظيم ، تخطيطا لنظـام اقتصـادى معين ، فان محمد على كان له تخطيط آخر قام على أساس سياسة الاحتـكار •

غير أن هذا النظام رغم نجاحه فى تحقيق أرباح اقتصـادية هائلة للدولة صادف نموا دوليا معاديا وهو النظام الرأسـمالى ، الذى وقف لنظام محمد على بالمرصاد وتمكن من القضاء عليـه وأدخل مصر ضمن منظومته لا كعضو له موقعه ودوره بل كعضو تابع ، مما ساهم فيما بعد فى وسم البورجوازية المصرية الوليدة بسمات معينة ، لقد ظهرت هذه البورجوازية المحلية فى مواجهـة البورجوازية الغربية وقد تسيدت العالم فى شكل حركة امبريالية واسعة النطاق ، فلم تملك البورجوازية المصرية المقومات العلميـة لمواجهتها ، فاضطرت الى تبنى سياساتها ، واصبحت بورجوازية

وسيطية ، ولم يكن ممكنا ان تتطور بالطريق الراسمالى ، اذ لم يمكنها الثورة على الشكل الغربى ، وبذلك عاشت فى ثقافة تناقض بين ارادتها فى انقاذ وتطوير شخصيتها التراثية من جهة ، وتغطية تخلفها عن الغرب من جهة اخرى ، مما وسم تلك الثقافة بسمة التوفيقية التى تحركت بين طرفى التراث العربى الاسـلامى الذى تم توحيده بجوهر الاسلام من جهة ، وبين التراث الأوروبى الغربى الذى تم تركيزه فى الكشـوف العلمية وثمارها التكنولوجيـة من جهة أخرى ٠

وكان التوفيق بين طرفى المعادلة هو أساس مشروع النهضة سواء تحركت المعادلة فى اتجاه الاسـلام بوصفه أساسـا مرجعيـا لتقبل الوافد الغربى ، أو تحركت فى اتجاه الوافد الغربى لجعله معيـارا لسـلامة فهم الاسـلام ولمشروعية تاويله او للتحرك نحو مشروعات التحديث العصرى ، وفى كلتا الحركتين ثمـة حضـور غالب لأحد طرفى المعادلة ، وثمة صراع وتوتر بينهما وجهد دائب للتوفيق بينهما فى اطار مفهوم المنفعة ، وتحرك على أرضيته ٠٠٠ النافع فى التراث والذى يمكن ان يلتقى مع النافع فى نتائج الحضارة الغربيـة ٠

ومن ثم تصبح القوة الاجتماعية الجديدة ، أمرا لا غنى عنه فى مشروع النهضـة المصرية المعاصرة ، قوة لا تعتمد الربح السريع بأقل جهد وأقصر وقت شعارا لها ، بل قوة تولد فكرها النهضوى العقلانى التصنيعى الجديد ، تدفعه وتدافع عنه ، قوة اجتماعيـة تعيد بناء التاريخ كما تريده ، لا التاريخ كما تعيده تلك الطروحات التراثية التقليدية او طروحات أخرى مغايرة ومغرضـة ٠ وهى بالضرورة قوة اجتماعية صـاعدة تعتمد النقد الذاتى ، وتتمسـك

بأسباب القوة وتتلافى أسـباب الضعف ، تقبل التحدى وتخلق استجابتها الحضارية الخلاقة ٠

وبالنسبة للتعليم وهو الطرف الأساسى فى معادلة النهضــة ، فانه يشير الى أحد مفهومين : تنظيمات ومؤسسات رسمية ، ونسق فكرى يعبر عن ناتج تحقيق تلك المؤسسات لأهدافها ، ويسهم كذلك فى تطويرها واعادة تشكيلها ٠

وقد شملت النهضة التعليمية كلا المفهومين ٠٠ فعلى المستوى الرسمى تمثلت النهضــة فى هيمنة الدولة على التعليم والاشراف عليه ، بعد أن كان حرا أهليا ، واعادت الدولة صياغته بما يخدم مشروعاتها المدنيــة بعد أن كان مقصورا فى معظمــه على مؤسسات التعليم الدينى ، ومركزها الجامع الأزهر ٠ كمــا تم اعادة تنظيم التعليم فى ســلم تضمن تأسيس تعليم ابتــدائى أولى ثم تعليم تجهيزى وثالث عال ٠ ولمــا كان محمد يتعجل النهضــة فقد بدأ السلم من أعلاه ليسند احتياجاته العاجلة فى بناء الجيش الحديث ٠

كمــا حل التعليم المدنى الحــديث محــل المواقــع الفئوية او الطائفية او الدينية لتحديد الوضعية الاجتماعية للفرد ، وساهم فى اعادة تشكيل القوى الاجتماعية على أســاس المواطنة والمساواة بين مواطنين بالمعنى الســياسى المدنى الحديث ٠ وعلى المستوى الفكرى مثلت آراء الطهطاوى وعلى مبارك وغيرهما أسسا نظريــة لتوجيه النهضة التعليمية فى مصر فى القرن ١٩ بداية من القاعدة فى التعليم الأولى ٠

غير ان التعليم المدنى وقــد تأثر بطرائق التعــليم الدينى التقليدى بتركيزه على الحفظ والتلقين والاستظهار ، قد تفرغ من أهم وظائفه ، وأهدر أهم اهدافه ٠ ومن ثم فانه يجب على التعليم

فى المشروع النهضــوى المصرى المعاصر وباعتباره أهم وأقوى آليات النهضة ــ أن يحرص على اكساب الفرد خصائص المواطنة فى اطار دولة مدنية حديثة وبالتالى يقوم على تعميق الاحساس بالانتماء والولاء ، والاعتزاز بالشخصية القومية ، وذلك بعيدا عن آليــات تقديس النص البشرى والسلطة وحصر التعليم فى مجرى الاجترار والتخزين ، فالتعليم انما يسهم فى النهضـــة عندما يشارك فى الوعى بعوامل التخلف ويسعى الى تغييرها ٠

غير أن التعليم المصرى كان ــ ومايزال ــ مقيدا بقيود عامة تحد من فاعليته : انفجار سكانى ، نمو اقتصادى بطىء ، ارث قيمى يمجد الاتباع ويخشى من التجديد ويهمش دور المرأة شريكا فى صنع الحياة ، ويجــافى العقلانية فى التفكير ، والجد فى العمل كواجب مرتبط بالحق ٠

كذلك تكبل التعليم بقيود خاصة فى واقع العمــل التعليمى ذاته ، تمثلت فى تراث مشبع بكل تناقضــات واشكاليــات عصر النهضة الحديثة ، مما جعلت من النظام التعليمى نظاما يعــكس ــ ويكرس فى نفس الوقت ــ مظاهر تخلف المجتمع والمتمثلة فى : غياب الروح العلمية ، وانعدام الثقة فى البحث العلمى وجــدوى الحلول العلمية ، وعدم تقدير العلميين ، وانقطاع المتعلم عن تحصيل العلم بمجرد التخرج ، وعدم احترام التخصص العلمى والمهنى ، وتفشى الانتهازيــة العلميــة ، وقتل روح الابتــكار وتثبيط همم المبتكرين ، وتضخم البيروقراطية ، والاسراف فى اللجوء الى القوالب الفكرية الجاهزة ، اضف الى هــذا ضعف النشر وانكماش حركة الترجمة ، وتحول الكثير من العلماء من صناعة العلم الى روايته(٢)، وسيادة أنماط تفكير تعوق نمو التفكير العلمى مثل التفكير من خلال الأسطورة الشعبية ، والفروسية المملوكية ، والخوارق الغيبية،

والبطل الملحمى ، والسلطة المقدســة ، والمنفعة الذاتية او الخاصة، والاسقاط على الخارج لتبرير القصــور ، والرومانسية المــاضوية ، والهرب من المســئولية ، والزمن اللانهائى(٣) . وتتابع القصــور فى التعليم مع انهيار مبدأ تكافؤ الفرص رغم مجانية التعليم تحت وطأة الدروس الخصوصية وسوء نظم التقويم ، وسلبية المتعلمين ، وزيادة الهدر التعليمى بفعل التسرب والرســوب ، وازدحام المناهج وطرق التدريس المعتمدة على طرف واحد متمثل فى المعلم دون حوار مع المتعلمين .

كما تمثلت الاشكاليات المجتمعيــة التعليميــة فى مجموعة من المفارقات ، يرصدها حامد عمار على النحو التالى :

١ ــ المفارقــة بين الطلب المجتمعى على التعليم مقــابل الطلب الفردى ، كميراث من حرص السياســة التعليمية للنظــام التعليمى المدنى الحــديث فى باكورته الأولى على تســخير التعليم فى خدمة مطالب الجيش وما تبعه من خدمات على حســـاب حــق الفرد الطبيعى فى التعليم وفق حاجاتــه وتطلعاتــه .

٢ ــ سيطرة الدولة مقــابل المشروعات الخاصــة ، كميراث من هيمنة الدولة ، منذ أيام محمد على ، على التعليم باعتباره أحد أهم آليات تكوين الدولة الحديثــة فى مستهل عصر النهضة المصرية فى القرن ١٩ ، والذى ــ بحكم تبنيه سياسات الاحتكار ــ قد حد من نفوذ المشروعات الخاصــة والتى لم نجد فرصــة للمشاركة سوى فى التعليم الدينى المعتمد على الهبات والأوقاف وغيرها من أعمال البر والتقوى .

٣ ــ التمايز على اساس القدرات العقلية فى مقابل التمايز على أساس الامكانات المــالية ، كميراث للمجتمع الطبقى المصرى

فى العصر العثمـانى المملوكى وعصر النهضـة والذى احتلت فيه الطبقات التركية وغيرها من الطبقـات الأجنبية مكان الصدارة رغم عدم تميزها العقلى على حساب أبناء البلد من المصريين رغم ما يتميزون به من « قابلية ونجابة » ٠

٤ ـ دور التعليم فى الاقتصار على تنمية القدرة العقلية فى مقابل دوره فى تنمية مختلف طاقات وقدرات المتعلم ، كميراث من نظام تعليمى ركز على تنمية القوة العقلية خاصة الذاكره، واهمال بقية مكونات شخصية المتعلم سواء اكانت جسمانية او وجدانية او اجتماعية ٠٠٠ الى غيرها ٠

٥ ـ وظيفة التعليم فى تنمية قدرات الفرد الى أقصى مداها فى مقابل سياسات الغربلة والفرز واخراج اعداد كبيرة من دائرة التعليم ، كميراث من نظرة ضيقـة للتعليم تمثلت فى قصره على اعداد موظفى الدولة وسدنة النظام وتعمد غلقه أمام قطاعات الشعب العريضة(٤) ٠

٦ ـ توظيف التعليم فى تعظيم الانتاجية فى مقابل توظيفـه لمجرد اشباع التطلعات الاستهلاكية ، كميراث من نظـام تعليمى كرس عند الفرد اقتصـار أهميـة التعليم على التوظيف والكسب الفردى فى مقابل التعليم كقيمة اجتماعيـة حضارية تساهم فى تطوير المجتمع ونهضته واسعاد جموع الناس ٠

٧ ـ اللامركزية فى مقابل المركزية ، كميراث من هيمنـة الدولة ـ على مدى تاريخها الطويل عبر آلاف السنين ـ وتركيز سلطاتها فى أشخاص حكامها ٠

٨ ـ دور التعليم فى ترسيخ الثقافة المشتركة فى مقابل التعدديات الفكرية والثقافية المرتبطة بمصالح فئوية معينة ، كميراث

من انفتاح مصر أمام أنواع متعددة من المدارس مثل مدارس الجاليات والطوائف الأجنبية ومدارس البعثـــات الدينية الأجنبيــة ٠

٩ ــ التعليم المستمر فى المؤسسات النظامية وغير النظاميــة فى مقابل التعليم المقتصر على مراحله المعروفة ، نتيجة الانقطاع عن التفاعل مع التجارب العالمية فى مجال اختراع أنمــاط غير تقليدية للتعليم ٠

١٠ ــ تلقين الحقائق المطلقة والحلول القاطعــة فى مقابل تنميــة أسس التفــكير الاســتيعابى والعلمى والنقــدى والتخيلى والابداعى ، كميراث من نظــام تعليمى يقــوم على الحفظ والتلقين والاجترار والاستظهار اعتمادا على نص تعليمى جامد لايمكن الخروج عنه سواء من المعلم أو المتعلم ٠

١١ ــ اعتماد التعليم على البرات الوطنيــة فى مقابل الاعتمــاد على الخبرات والمعونات الأجنبية ، كميراث من نظام تعليمى مدنى حديث اعتمد فى اسسه الأولى على نقل خبرات الآخرين من خلال جهودهم ســواء أكانت عن طريق استقدام الخبراء الأجانب انفسهم ، أو ارسال البعثات تتلقى التعليم عنهم٠

١٢ ــ دور التعليم فى تجديد انتاج الشخصية وتجــاوز النمط الحــالى تفكيرا وسلوكا وتفاعلا فى مقــابل اعــادة النمط الحالى للشخصية ، كميراث من نظام تعليمى يخشى التجديد والتطوير ويكرس الراهن ويدعمه ٠

١٣ ــ وأخيرا دور التعليم فى تجديد وتطوير المجتمع وما يستلزم ذلك من ارادة سياسية حافزة وملزمة ، فى مقابل المجاملات

الخطابية فى المناسبات أو فى الاعتذار من انكماش موارده فى أول شعور بأزمة اقتصادية طارئة كميراث من نظام تعليمى تعامل معه الحكام على طول تاريخ عصر النهضة فى القرن ١٩ على أســاس برجماتى قصير النظر ومرحلى وليس على أساس ارادة سياسية واعية ترى فى التعليم البوابة الملكيــة للنهضة والرقى والتحضر(٥) ٠

وهــذه المفارقات ـ الاشكاليــات والازدواجيــات ـ تعود فى جذورها البعيدة الى عصر النهضة المصرية الحديثة أيام محمد على بداية من انشاء التعليم المدنى الحديث فى خط مواز للتعليم الدينى فى الكتاتيب والجوامع وزيادة نشاط الارساليات الأجنبية فى عصر اسماعيل ، وانقسام المجتمع المصرى الى متعلمين وأميين ، بنــات وبنين ، ريفى وحضرى ، غنى وفقير ٠

ورغم قتامة تلك الصــورة فان العقل بقدرته على التجــاوز والتطلع نحو الأفضــــل يستطيع استشراف صــورة مستقبــل التعليم فى تعليم المستقبل وفق منطلقات تنموية شاملة ، واستراتيجية تعليمية مستقبلية ترتكز على ، وتنطلق من ، وتهدف الى الآتى :

- تصور مستقبلى لنهضة حضارية متكاملة لمكونات هــذا الوطن فى تفــاعل موارده الطبيعيــــة والمــادية والمــالية والبشريــة ، على ركيزة الأصــالة المتجــددة ، والهويــة الواضحة ، وهذا غير اتباع نمط الحداثة ومؤسساتها الذى يستمد مقومات نموه من اتباع الأنماط حضارية أخرى ٠

- التركيز على تنمية البشر وما يتاح لهم من مجالات لاشباع احتياجاتهم المــادية والمعنوية والروحية ، وتنمية طاقاتهم وقدراتهم على العمل والفعل والتأثير ٠

— توفير مقومات العدالة الاجتماعية بما يحقق تكافؤ الفرص فى الاستمتاع بثمرات الرفاء الاجتماعى وكذلك فى تحمل المسئوليات والأعباء والتضحيات ·

— افساح المجال للطاقات المبدعة والخلاقة فى مختلف نشاطات الفكر والجهد الانسانى وتشجيعها للاسهام فى تطوير المجتمع ·

— قيام التنمية فى قاعدتها الأساسية على الموارد والطاقات الذاتية بما يضمن اطراد معدلاتها وآثارها دون انعكاسات أو اختناقات نتيجة للاعتماد على الموارد الأجنبية(٦) ·

— تأسيس بنية مرنة للتعليم النظامى وغير النظامى تنطلق من توظيف التعليم لتخريج قوى عاملة منتجة فى اقتصاد قومى متحرر ، ولتوفير أوسع مساحة ممكنة للحراك الاجتماعى ، ولارساء مقومات الحرية والالتزام والمشاركة الديموقراطية ·

— تمكين كل مصرى من فرصة تنمية مختلف طاقاته ومعارفه وقدراته معرفيا وعلميا وفنيا وابتكاريا ·

— ترسيخ قواعد تتيح متابعة التعليم حسب الامكانات وليس على حسب معايير جامدة تقليدية تؤدى الى الغربلة والتصفية ·

— توفير فرص التعليم والدراسة لأى مواطن فى أى نقطة من عمره الزمنى او فى أى موقع فى بيئته الجغرافية مادامت مكنته من ذلك قدراته ، ومن ثم وجب مراجعة جذرية لشروط الالتحاق بفرص التعليم المختلفة ·

- توظيف التعليم بصورة حاسمة ليصبح أحد الروافد الأساسية لتكوين الثقافة الوطنية والقومية والانسانية المشتركة ٠

- الاستيعاب الكامل للأطفال فى سن الالزام ، والتقليل من نسب الرسوب والتسرب باصطناع أساليب تربوية والاجتماعية تجذب الطالب للبقاء ، ولا تنفره من المدرسة ٠

- حتمية مواجهة محو الأمية مواجهة حاسمة وجادة ٠

- تركيز مناهج التعليم وأساليبه وطرقه على تنمية التفكير العقلانى وترسيخه ، لا على تنمية الذاكرة ، وعلى اعمال ملكة النقد ، لا على التسليم للأحكام المقررة ٠

- التأكيد على سيادة الدولة فى مجال التعليم باعتبارها الممثل الشرعى لصالح الشعب والعمل على استثمار الخبرات الوطنية . مع الاستفادة من المعونات الأجنبية ولكن غير المشروطة ٠

- توفير كافة سبل تمويل ذلك المشروع التعليمى المستقبلى الناهض وتوفير كافة الموارد المالية والبشرية مهما كانت التضحيات(٧) ٠

- المساهمة فى تكوين وبلورة مواطن عالمى قادر على التعايش مع ثورات العصر الست : العولمة، العلمية ، التقنية ، المعلوماتية ، التنافسية ، الديموقراطية ٠

- تطوير الدور المهنى للتعليم ومؤسساته بحيث يلبى الحاجات المتطورة والمتغيرة للسوق ، كما يلبى حاجات البحث العلمى وتنمية المجتمع وخدمة البيئة ٠

- الاتجاه نحو خلق مجتمع معلم لكل أعماره وقطاعاته ، أى تبنى فلسفة التعليم المستمر من المهد الى اللحد ·

- تنمية ثقافة التفاوض ومهارات الحوار والمبادرة والمخاطرة ولذة الاكتشاف وادارة الوقت والتفكير بأسلوب يدفع للتغيير والتطوير لا الثبات والجمود ، وتقديم حقائق العلم وقوانينه فى اطار قابليتها للتغيير وليس فى اطار أنها حقائق مطلقة ·

- التركيز على الدعوة للتعليم كوسيلة فعالة ومضمونة لتحقيق المساواة ورفع مستوى الدخل وازالة الفقر بالنسبة للفرد ، وبأنه أمن قومى وأمن حضارى وباب ملكى لدخول عالم النهضة والتطور والحداثة بالنسبة للمجتمع ·

- المساهمة فى تحقيق انسانية الانسان وتنمية طاقاته الى أقصى مدى لها ، ومقاومة التفكير الغيبى والاسطوريات ·

- خلق ارادة العمل الجماعى المشترك فى اطار العمل الاجتماعى المنتج ·

- تحقيق الوحدة الثقافية فى اطار التماسك الاجتماعى باعتبار التعليم أداة للتشكيل الايديولوجى وتكريس ثقافة المجتمع وتشكيل وعى المواطنين وتكوين شخصياتهم وادراكهم للعالم ولمعطياته ·

- اللجوء الى أشكال جديدة من التعليم تأخذ بالتقنيات الحديثة ، وزيادة فاعلية الادارات التعليمية ·

- الأخذ بالتخطيط التربوى العلمى كوسيلة لابد عنها لتحقيق التنمية التربوية السريعة والمتوازنة ·

- اعتبار عملية التعليم والتربية عملية لا تقتصر على دور المدرسة ، بل هى مسئولية المجتمع بمختلف وسائطه التعليمية والثقافية والسياسية ٠٠ مع اعتبار أن المدرسة هى من اهم مؤسسات الثقافة فى المجتمع ولكن مع تحويل دورها من التركيز على الذاكرة الى التفكير ، ومن التقبل الى التخيل ، ومن التسليم الى الحوار ، ومن المعلومة المجردة الى المعلومة الموظفة ، ومن الوصف الى التحليل ، ومن الحل الوحيد الى وجود حلول وبدائل للحلول ، ومن الحقيقة الثابتة المطلقة الى تعدد الرؤى ٠

وبالنسبة للنهضة الثقافية ، فرغم انتشار الصحافة وازدهار حركة الطباعة والترجمة والبعثات التعليمية والجمعيات العلمية والأهلية ، الا ان ذلك لم يستطع اقالة الفكر المصرى الحديث من تخلفه ، كما لم يستطع خلق فكر نقدى مستنير للدين ، او حتى هدم نسق القيم المتخلفة والسائدة ٠

فبالنسبة للفكر المصرى فانه مايزال يفتقر الى العقلانية والعلمية فى النظر الى الكون والطبيعة وقضايا المجتمع ٠

والعقلانية هنا — والتى تتمثل فى استخدام التفكير العلمى والمنهج العقلى وربط الفكر بأسس الحضارة القائمة على العلم والتخطيط — ليست مجرد أداة للعلم النظرى لكنها وسيلة للتحرر الاجتماعى . وطريق لخلق مجتمع انسانى أكثر توازنا ٠ وفى هذا يقع الفكر المصرى فى تناقض حيث يأخذ من الحداثة الغربية منجزاتها التكنولوجية دون المبدأ العقلى الذى أبدعها ٠ فالحداثة الحقيقية فى فعل الابداع ذاته ، فى المغامرة لاكتشاف المجهول وقبوله ، وليست فى المنجزات التكنولوجية فقط ٠

فالفكر المصرى السائد فكر اتباعى ، وليس ابتداعيا ، لا يكتفى بتأكيد الاتباع فقط ، بل ويرفض الابداع ويدينه ، ولا نهضة دون فكر مبدع يهدم الأبنية الفكرية التقليدية السائدة ٠

ومن مظاهر اللاعقلانية فى الفكر المصرى شيوع :

- الغيبية تكريسا للكسل العقلى واعتماد الايمان بالقوى غير المنظورة كالكرامات والسحر والتمائم والتعاويذ والأساطير ، فكر مشبع بكل محظورات التابو ٠
- التلقينية والترديد والايمان بدونية الأحياء فى مقابل تفوق السلف تفوقا مطلقا ٠
- السكونية والنظرة اللاتاريخية ، حتى أصبح الماضى يلقى بظلاله على الحاضر والمستقبل ٠
- الارهاب الفكرى والجماعى كصورة مكملة للكبت الجنسى
- الارهاب والقهر السياسى ٠
- ارتباط المدرسة ، باعتبارها مؤسسة رسمية ، بجهاز الدولة ، وقصر وظيفتها على اعداد موظفين وكوادر فنية للدولة ، فاصبحت المدرسة بذلك ذيلا من ذيول الدولة لا أداة اجتماعية لمقاومة التخلف وتحقيق النهضة فانتشرت الأمية وأصبح التعليم سلعة تحتكرها الطبقات القادرة ، اما الطبقات غير القادرة فأصبح التعليم بالنسبة لها ترفا لا مبرر له ٠

وبالنسبة للفكر الدينى ، فان التدين من أبرز سمات الشخصية المصرية ، وبالتالى يجب أن يكون ركنا بارزا من اركان المشروع النهضوى المصرى المعاصر ، اذ يستحيل تصور ذلك المشروع دون ركائز الدين الصحيح وتنقيته من المفاهيم والممارسات الاجتماعية

التى اختلطت به على أنها جزء منه والتى تتصل أحيانا بالشعوذة وتبنى القيم الاستسلامية ورفع شعارات الطاعة والاستسلام والقناعة واعلان عجز الانسان أمام سطوة سيطرة الطبيعية ٠ ولكن ينبغى توظيف الدين توظيفا حضاريا نهضويا وفق تفسيرات وتأويلات تجعل من نصوصه عامل دفع للكسب وغزو الطبيعة وتحرير المواطن من الخوف وخلق قيم ايجابية ديناميكية تدفع لتبنى العمل والمسئولية والحرية والتعاون والعدل والتسامح والاعتراف بالآخر والتفكير فى مظاهر الطبيعة والحرص على طلب العلم وذلك وفق آليات تتبنى :

- رفض الطبقة الكهنوتية التى تحتكر الدين وتتحدث باسمه٠ فاذا كان ثمة علماء دين لهم كيانهم العلمى الخاص فانه يجب أن نفرق بين علماء الدين من جهة ، والدين نفسه من جهة اخرى حتى لا تنسحب قداسة الدين على علمائه ٠
- المقدس الوحيد فى الدين فى كلام الله المنزل فى قرآنه المجيد والسنة الصحيحة لنبيه ــ صلى الله عليه وسلم ــ لكن لا تفسير ولا تأويل من البشر له حق القداسة أو حق اعتبار نفسه مرجعا لغيره من التفسيرات أو التأويلات ٠ ومن هنا ينفتح باب الاجتهاد على مصراعيه لمزيد من التفسيرات والتأويلات ٠

وبالنسبة للقيم والعادات والتقاليد كأحد اهم موجهات السلوك ، فان معظم قيمنا يغلب عليها الطابع البدوى الريفى التقليدى ومن ثم وجب مواجهة ذلك التخلف القيمى وتطوير انماط القيم والعادات والتقاليد بغرس الايجابى منها وقلع السلبى وذلك وفق متطلبات النهضة المصرية المعاصرة خاصة فى مجال العمل والانتاج وطلب العلم والاستهلاك والاستثمار والمسئولية والانجاب والتعامل

مع الوقت والنظر الى المرأة ۰۰۰ الخ فموروثنا القيمى يعد من أهم الأسباب الداخلية لتخلفنا حيث تسود حياتنا الغيبية والخرافية بدلا من العقلانية ، والقبلية العشائرية الطائفية بدلا من المواطنة المدنية ، والتعابير اللغوية المزركشة بدلا من العمل المنتج الجاد ۰

وعلى مستوى النهضة السياسية فقد عاشت مصر طوال القرن ١٩ ، وابان نهضتها الحديثة ، حكما فرديا شخصيا رغم محاولات محمد على أن يخصص لكل فرع من فروع الحكومة مجلسا او ديوانا خاصا ، وتكوين مجلس المشورة سنة ١٨٢٩ م واصدار قانون السياستنامة سنة ١٨٣٣ م ، الا أنه فى النهاية تركزت سلطات الدولة كلها فى يده ، ولا يعنى هذا أن الحكم كان استبداديا مطلقا ، لأن محمد على وغيره من حكام ولايات السلطنة العثمانية ، كانوا مقيدين بكثير من القوانين والأنظمة التى أرستها الفرمانات العثمانية ۰

أما الحكم المحلى فقد تطور فى عهد محمد على تطويرا تدريجيا تحت سيطرته المباشرة ايضا اذ لم يرض بالتنازل عن بيروقراطيته الضخمة لأى انسان ، فاستمر يمارس رقابته الشخصية على كل مظاهر الحكم والادارة ۰

وظل الحكم كذلك حتى مشارف عصر اسماعيل ، حيث كانت البداية الحقيقية للحركة الدستورية عند انشاء مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ م ۰

ورغم كون مجلس الشورى شكليا اذ لم تكن لقراراته شأن ملزم ، فانه كان فاتحة عهد للوعي الوطنى الذى نما بصورة لافتة ، الأمر الذى خلق لدى اعضاء مجلس شورى النواب روحا اكثر ايجابية واكثر قدرة على المعارضة ، ومن ثم ظهرت الدعوة الى تدعيم اختصاصات المجلس وتوسيع نطاق صلاحياته ۰

الا أن الوعى السياسى الوطنى لم يستطع استثمار مساهماته فى صنع القرار السياسى بدءا من اختياره محمد على حاكما ووفق شروطه حتى الآن ومرورا بتكوين مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦م فى خلق مناخ ديمقراطى حقيقى اذ مازالت مصر تعانى من ترسيخ الديمقراطية وتعميقها او على الأقل تهميشها وطمس معالمها والوقوف بها عند حد الشكل دون المضمون ٠

نحن على المستوى السياسى متخلفون ــ ولا ضير ــ فان وعى التخلف هو المستلزم الأول لفعل النهضة ، وتخلفنا السياسى يتمثل فى الآتى :

ــ غياب الفكر العلمى السياسى ، وفى الفجوة التى تفصل بيننا وبين المسيرة الديمقراطية على مختلف مستويات التعامل ، وليس على مجرد أشكال التنظيمات التشريعية وما يرتبط من أمور مثل حق الانتخاب وحق الترشيح ٠ والأهم من ذلك هو اعتماد حقوق الانسان انطلاقا الى مسيرة للمشاركة الديمقراطية ٠

ومن ثم يجب توفر دراسات جادة تساهم فى رصد المزيد من أسباب التخلف وتحدد طرق العلاج وتصل الى الطبيعة المثلى لنظام سياسى نهضوى معاصر يعتمد العقد الاجتماعى ، تزول معه الهوة التى تفصل بين السلطة السياسية والجماهير ، نظام سياسى يمارس فيه المثقف والمفكردورا بارزا فى قيادة الجماهير الواعية وتشكيل فكرها السياسى ورأيها العام المستنير ٠ نظام سياسى يضع نصب عينية حرصه على الأمن وسيادة القانون وخدمة المواطنين ٠

واذا كان مشروع النهضــة المصرية فى القرن ١٩ ، قد ارتبط بالغرب ارتباطا وثيقا حيث اقتبس أساليبه ، واستعان برجاله ، وسار فى طريقه ، ففى الوقت نفسه تعامل الغرب مع مصر على انها مجرد مجــال لمد سيطرتــه وبسط نفوذه وتدخلاته السياســية والعسكرية والاقتصادية ، مما جعله فى النهاية يحتلها احتلالا كاملا سنة ١٨٨٢ م مما يمكن أن نسمى معه عصر النهضة المصرية الحديثة بأنه عصر الضغط الأجنبى والذى ساهم بشكل مباشر فى ايقاف مشروعات النهضــة بل وعمل على طمس آثارها حيث قام الاحتلال بتسريح الجيش المصرى وحوله الى مجــرد فرق محــدودة العــدد والتسليح ، كما قلص النهضة التعليمية وجعل التعليم مقصورا على مجرد زراعة القطن واهمل الصناعة وعطل الحيــاة النيابية واهمل مصالح مصر فى السودان .

ومع ذلك فقد ارسى عصر النهضة فى القرن ١٩ معالم هامة فى مجال التعليم والثقافة من أهمها :

١ ــ الاهتمام باعداد المعلم اعدادا خاصا ومتميزا ومقصــودا بداية من دار العلوم ومرورا بمدرســة المعلمين العليــا وانتهــاء بكليات التربية المنتشرة بطول البلاد وعرضها .

٢ ــ تغير نمط حياة الناس من النمط التركى المملوكى القروسطى الى نمط مدنى حديث الملابس والأثاث ووســائل الانتقــال والعادات والتقــاليد والاهتمــام بمظاهر الصحة والنظافــة والطعام على النمط الافرنجى وممارسة الرياضة والتنزه .

٣ ــ الاهتمام بتجميل المدن بالقصور والحدائق والكبارى والطرق المعبدة وادخال المياه الى المساكن .

٤ ــ الاهتمام بالموسيقى والغناء اعتمادا على الدراســــة والعلم ، فارتقت أساليب الغناء واحتل الفنانون مكانة عالية فى نفوس الناس .

٥ — الاهتمام بالنهضة العمرانيـة بعد زيـادة عدد المتخرجين فى مدرسة المهندسخانة ، فنهضت حركة بناء القصور والمساجد ودواوين الحكومة والعمائر الفخمة حتى القناطر والكبـارى شهدت على نهضة الفن المعمارى لمـا تعكسـه من فن راق وذوق رفيـع ٠

٦ — الاهتمام بالنهضة المسرحية والتمثيل حيث أنشىء بالقاهرة المسرح الكوميدى ١٨٦٨ م ، ودار الأوبرا ١٨٦٩ م ، وفى الاسكندرية انشىء مسرح زيزينا ومسرح الفيرى ٠

٧ — أرسى عصر النهضة المصرية فى القرن ١٩ قيما ثقافيـة جديدة مثـل :

(أ) حرية التعبير كاثر من اثار انتشار الصحافة ٠

(ب) المشاركة السياسية بعد انشاء مجلس شورى النواب ٠

(جـ) ظهور قيادات اجتماعية جديدة فى مجالات مختلفة مثل المجال السياسى والفنى والادارى والتربوى والعسكرى والثقـافى نتيجـة رواج حركة الابتعـاث الى الخـارج والانفتاح على الفكر العـالمى ونشاط وفاعليـات وثراء مخرجات النظام التعليمى المدنى الحديث ، بعد ان كانت القيادات الاجتماعية مقصورة على علماء الدين فى العصر العثمانى المملوكى ٠

(د) فتح باب الاجتهاد فى أمور الدين بفضل جهود الأفغانى ومحمد عبده والمرصفى والنديم وغيرهم ٠

(هـ) تواصل المركز (الدولة بأجهزتها المختلفة) بالأطراف (المواطن على امتداد القطر المصرى فى الريف والحضر) بفضل سياسات الدولة المهيمنة على الحياة ــ والمعتمدة فيها على المواطن فى نفس الوقت ــ من جندية وتعليم واقتصاد وسياسة وادارة وثقافة ... الخ ، كما اعتمد المواطن على الدولة فى سد احتياجاته المعيشية والحياتية ، حيث تحركت معظم أمور حياته فى اطار ما تصدره الدولة من تشريعات وقوانين وتنظيمات ٠

هوامش الخـــــاتمة

(١) حامد عمار ، فى بناء الانسان العربى ، مركز ابن خلدون للدراســات الانمائية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ ، ص ١٤٦ .

(٢) نبيل على ، العرب وعصر المعلومات ، مرجع سابق ، ٢٧٧/٢٧٩ .

(٣) حامد عمار ، دراسات فى التربية والثقافة ، ج ١ من همومنــا التربوية والثقافية ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ ، ص ٢٥٦ .

(٤) دراسات فى التربية والثقافــة ، ج ٣ ، فى التوظيف الاجتمــاعى للتعليم ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٦ ، ص ٢٤/٣٢ .

(٥) حامد عمار ، دراسات فى التربية والثقافة ، ج ٤ ، الجامعة بين الرسالة والمؤسســة ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ ، ص ٣٣/٣٤ .

(٦) حامد عمار ، فى بناء الانسـان العربى ، مرجع سابق ، ص ٢٢٤/٢٢٥ .

(٧) حامد عمار ، فى تطوير القيم التربوية رأى آخر ، مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ ، ص ٢٧٦/٢٨٠ .

المراجـــــع

اولا ـ المراجع العربيـة :

رسـائل جامعيـة :

١ ـ زينب محمد فريد ، تطور تعليم البنت فى مصر فى العصر الحديث ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٦١ م ٠

٢ ـ زينب حسن حسن ، دراسـة للفـكر التربوى فى مصر من سنة ١٨٠٥/١٨٨٢ م رسـالة ماجستير غير منشـورة ، كلية البنات ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٥ م ٠

٣ ـ احمد عبد الرحمن عبد اللطيف الجاحد ، الاتجاه الاسلامى عند بعض مفـكرى التربيـة فى مصر وأثره على التطبيق التربوى من سنة ١٠٨٥ م الى سنة ١٩٥٢ م ، رسـالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ، جامعـة المنوفية ، سـنة ١٩٨٢ م ٠

٤ ـ شكرى عباس حلمى ، تطور تمويل التعليم الابتـدائى فى ج٠م٠ع٠ من أوائل القرن ١٩ الى عام ١٩٥٢ م ، رسالة

ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة عين شمس سنة ١٩٧٠ م ٠

٥ ـ علي خليل مصطفى أبو العينين ، الأصول الفلسفية للتربية فى مصر الحديثة بين الفكر الاسلامى والفكر التغريبى ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة طنطا ، سنة ١٩٨١ م ٠

٦ ـ شبل بدران محمد الغريب ، تأثير فلسفة التنوير على حركة الفكر التربوى فى مصر فى الفترة من سنة ١٨٠٥ م حتى ١٩٨٧ م ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة طنطا ، سنة ١٩٧٨ م ٠

٧ ـ عبد الله محمد غرباوى ، الحركة الفكرية فى مصر فى القرن الثامن عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٦ م ٠

٨ ـ عبد الجواد صابر اسماعيل ، دور الأزهر فى مصر ابان الحكم العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٦٩ م ٠

٩ ـ عبد العزيز محمد عطية ، معاهد التعليم الاسلامى فى مصر فى العصر العثمانى ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية التربية ، جامعة الأزهر ، سنة ١٩٨٧ م ٠

١٠ ـ عراقى يوسف محمد ، الأوجاقات العثمانية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٨ م٠

١١ ـ محمد رفعت رمضان ، العلاقات بين مصر والدولة العثمانية

فى الفترة من ١٨٤٠ ــ ١٨٦٣ م ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، سنة١٩٥٥ م ٠

١٢ ــ عز الدين عبد الحميد منصور ، الجمعيات الثقافية والأدبية فى مصر فى العصر الحديث الى سنة ١٩١٤ م ٠ رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، سنة ١٩٧٧ م ٠

الكتـــب :

١ ــ أنور عبد الملك ، الابداع والمشروع الحضـارى ، كتـاب الهلال (٤٩١) ، دار الهلال ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ م ٠

٢ ــ ــــــــــ ، نهضـة مصر ، الهيئـة المصريـة العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ م ٠

٣ ــ أحمد عزت عبد الكريم ، تاريخ التعليم فى مصر من نهايـة حكم محمد على الى أوائل حكم توفيق ، جزءان ، مطبعـة النصر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥ م ٠

٤ ــ ــــــــــ ، دراسات تاريخيـة فى النهضة العربيـة الحديثة ، جامعة الدول العربيـة ، الادارة الثقافيـة ، القـاهرة ٠

٥ ــ ــــــــــ ، حركة التجديد فى المجتمع المصرى فى القرن التاسع عشر ، محاضرات ألقيت فى معهد البحوث والدراسات العربيـة ٠

٦ ــ ــــــــــ ، دراسات فى تاريخ العرب الحديث ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ م ٠

٧ ـ ــــــــــــ ، حركة التحول فى بناء المجتمع القاهرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ، ج ٢ ، مطبعة دار الكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م ٠

٨ ـ ادوين رايشاور ، اليابانيون ، عالم المعرفة ، الكويت ، ابريل سنة ١٩٨٩ م ٠

٩ ـ أندرية ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ترجمة زهير الشايب ، كتاب روزاليوسف ، العدد ١٧ ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ م ٠

١٠ ـ أحمد أحمد الحتة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى القرن التاسع عشر ، مطبعة المصرى ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م ٠

١١ ـ أحمد فؤاد الأهوانى ، التربية فى الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ م ٠

١٢ ـ ادوارد جوان ، مصر فى القرن التاسع عشر ، سيرة ساكن الجنان محمد على باشا وابراهيم باشا والمغفور له سليمان باشا الفرنساوى من الوجوه الحربية والسياسية والقصصية ، تعريب محمد مسعود ، القاهرة ، سنة ١٩٢١ م ٠

١٣ ـ أمين سامى ، تقويم النيل ، ج ٣ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٦ م ٠

١٤ ـ ــــــــــــ ، التعليم فى مصر سنتى ١٩١٤ ـ ١٩١٥ ، مطبعة المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩١٧ م ٠

١٥ ـ الياس الأيوبى ، تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل باشا ، ج ١ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٢٣ م ٠

١٦ ـ السيد رجب حراز ، المدخل الى تاريخ مصر الحديث من الفتح العثمانى الى الاحتلال البريطانى ١٥١٧ ـ ١٨٨٢ م ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م ٠

١٧ ـ اسماعيل باشا سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، المطبعة الأميرية بولاق مصر المحمية ، سنة ١٨٩٣م ٠

١٨ ـ الكسندر شولسن مصر للمصريين ، تعريب رؤوف عباس ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ م ٠

١٩ ـ أمين مصطفى عفيفى ، تاريخ مصر الاقتصادى والمالى فى العصر الحديث ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م ، ط ٣ ٠

٢٠ ـ ابراهيم مصطفى ، فضل محمد على على مصر ، مطبعة العلوم بشارع الخليج ، القاهرة ، سنة ١٩٤٦ م ٠

٢١ ـ اميل فهمى حنا شنودة ، تاريخ التعليم الصناعى حتى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ م ، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م ٠

٢٢ ـ أحمد الخشاب ، الاجتماع التربوى والارشاد الاجتماعى ، مكتبة القاهرة الجديدة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م ٠

٢٣ ـ ابراهيم عبده ، تطور الصحافة المصرية ١٧٩٨ م ـ ١٨٨١ م ، مؤسسة سجل العرب ، ج ٤ القاهرة ، سنة ١٩٨٢ م ٠

٢٤ ـ ابراهيم زكى خورشيد ، الترجمة ومشكلاتها ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ م ٠

٢٥ ـ احمد طاهر حسنين . دور الشاميين المهاجرين الى مصر فى

النهضـة الأدبيـة الحديثـة ، دار العربيـة ، دمشق ، سنة ١٩٨٣ م .

٢٦ — اديب اسحق ، منتخبات اديب اسحق ، مطبعة الآداب ، الاسكندرية ، سنة ١٩١٥ م .

٢٧ — أحمد محمد الحوفى ، وطنية شوقى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨ م .

٢٨ — ألبرت حورانى ، الفكر العربى فى عصر النهضة ، ترجمة كريم عزقول ، دار النهار ، بيروت ، سنة ١٩٦٨ م .

٢٩ — أحمد عرابى ، كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضـة المصرية المشهورة بالثورة العرابية ، جزءان ، مطبعة مصر ، القاهرة ، سنة ١٩٣٢ م .

٣٠ — بيير كرابيتس ، اسماعيل المفترى عليـه ، ترجمة فؤاد صروف ، دار النشر الحديث ، القاهرة ، ١٩٣٧ م .

٣١ — بنت بطوطة ، صفحات من تاريخ البحرية المصرية فى عهد محمد على باشا ، مطبعة حلبى بدمنهور ، سنة ١٩٤٧ م .

٣٢ — تيموثى ميتشل ، استعمار مصر ، ترجمة بشير السباعى وآخرين ، سينا للنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م .

٣٣ — توفيـق على برو ، العرب والترك فى العصر الدسـتورى العثمانى سنة ١٩٠٨ — ١٩١٤ م ، معهد الدراسات العربية العالمية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ م .

٣٤ — ج. كريستوفر هـيرولد ، بونابرت فى مصر ، ترجمـة فؤاد أندراوس ، دار الكتـاب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م .

٣٥ ــ ج. دى شارول ، دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، فى كتاب وصف مصر ، جـ ١ ، ترجمة زهير الشايب ، مطبعة الجبلاوى ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦ م .

٣٦ ــ جورج جندى بك ، وجاك تاجر ، اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٧ م .

٣٧ ــ جورج يانج ، تاريخ مصر من عهد المماليك الى نهاية حكم اسماعيل ، تعريب على أحمد شكرى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م .

٣٨ ــ جمال الدين الشيال ، تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٥١ م .

٣٩ ــ ــــــــــــ ، رفاعة رافع الطهطاوى ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .

٤٠ ــ جورجى زيدان ، تراجم مشاهير الشرق فى القرن التاسع عشر ، جـ ١ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، سنة ١٩٠٢ م .

٤١ ــ جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، جـ ٤ ، مطبعة الهلال ، القاهرة ، سنة ١٩١٤ م .

٤٢ ــ ــــــــــــ ، تاريخ الماسونية العام ، مطبعة المحروسة ، القاهرة ، سنة ١٨٨٩ م .

٤٣ ــ جاد طه ، معالم تاريخ مصر الحديث والمعاصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ م .

٤٤ ـ جميل خانكى ، تاريخ البحرية المصرية ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٨ م ٠

٤٥ ـ ج٠ بير ، دراسات فى التاريخ الاجتماعى لمصر الحديثة ، ترجمة عبد الخـالق لاشـين وآخرين ، مكتبة الحرية الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٦ م٠

٤٦ ـ جاك كرابس جونيور ، كتابـة التـاريخ فى مصر القـرن التاسع عشر ، دراسة فى التحول الوطنى ، الألف كتاب الثانى ، العدد ١١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتـاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م ٠

٤٧ ـ جمال الدين الأفغانى ، الأعمال الكاملة تحقيق محمد عمارة، دار الكاتب العـربى للطبـاعة والنشر ، القـاهرة ، سنة ١٩٦٨ م ٠

٤٨ ـ ج٠هـ٠ كول ، تاريخ الفكر الاشتراكى ، جـ ١ ، ترجمة عبد الكريم احمـد ، المؤسسة المصريـة العامـة للتأليف والطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ م ٠

٤٩ ـ حسين العطـار ، انشاء الشيخ حسن بن محمد العطار ، المطبعة العثمانية ، باب الشعرية ، القاهرة ، سنة ١٨٦٦م ٠

٥٠ ـ حسين خـلاف ، التجديد فى الاقتصاد المصرى الحديث ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٠ م ٠

٥١ ـ حسين المرصفى ، الكلم الثمـان ، مطبعـة الجمهورية ، القاهرة ، سنة ١٩٠٣ م ٠

٥٢ ـ حامد عمـار ، دراسات فى التربية والثقافة ، جـ ١ ، من همومنا التربوية والثقافية ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ م ٠

٥٣ ـ ــــــــــــ ، دراسات فى التربية والثقافة ، جـ ٣ ، فى التوظيف الاجتماعى للتعليم ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٦ م ٠

٥٤ ـ ــــــــــــ ، فى بناء الانسان العربى ، مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ م ٠

٥٥ ـ ــــــــــــ ، فى تطوير القيم التربوية رأى آخر ، مركز ابن خلدون للدراسات الانمائية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢م ٠

٥٦ ـ ــــــــــــ ، دراسات فى التربية والثقافة ، جـ ٤ ، الجامعة بين الرسالة والمؤسسة ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ ٠

٥٧ ـ خليل ابن احمد الرجبى ، تاريخ الوزير محمد على باشا ، تحقيق دانيال كريسيلوس وآخرين ، دار الآفاق العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٧ م ٠

٥٨ ـ خليل صابات ، تاريخ الطباعة فى الشرق العربى ، ط ٢ ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦ م ٠

٥٩ ـ دافيدس لاندز ، بنوك وباشوات ، ترجمة عبد العظيم انيس ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٦ م ٠

٦٠ ـ رؤوف عباس ، مصر فى القرن التاسع عشر ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، د٠ت ٠

٦١ ـ راشد البراوى ، التطور الاقتصادى فى مصر فى العصر الحديث ، النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٤ م ٠

٦٢ ـ رافت غنيمى الشيخ ، مصر والسودان فى العلاقات الدولية ، ط ٢ ، عالم الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٣ م ٠

٦٣ — ــــــــــ ، فى تاريخ العرب الحديث ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥ م .

٦٤ — رفاعة الطهطاوى ، المرشد الأمين للبنات والبنين ، مطبعة المدارس الملكية ، القاهرة ، سنة ١٨٧٣ م .

٦٥ — ــــــــــ ، **مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب** العصرية ، ط ٢ ، الرغائب بمصر ، سنة ١٩١٢ م .

٦٦ — ــــــــــ ، تخليص الأبريز الى تلخيص باريز ، دار التقدم بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٠٥ م .

٦٧ — ــــــــــ ، **التعريفات الشافية لمريد الجغرافية** ، ط ٢ ، بولاق ، القاهرة ، سنة ١٨٣٨ م .

٦٨ — ــــــــــ ، **مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك** ، المطبعة السورية ، بيروت ، د.ت .

٦٩ — ــــــــــ ، **نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز** ، مطبعة المدارس الملكية ، القاهرة ، سنة ١٨٧٣ م .

٧٠ — ــــــــــ ، **الكنز المختار فى كشف الأرض والبحار** ، مالطة ، سنة ١٨٣٦ م .

٧١ — ــــــــــ ، **أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل** ، مطبعة بولاق ، سنة ١٨٦٨ م .

٧٢ — ــــــــــ ، الأعمال الكاملة ، تحقيق محمد عمارة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، جزءان ، سنة ١٩٧٣ م .

٧٣ — زكى صالح ، لمحات من تاريخ وزارة التربية والتعليم ممثلا

فى أشخاص وزرائها ، وزارة التربية والتعليم ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨ م .

٧٤ ــ سمير أمين ، من نقد الدولة السوفيتية الى نقد الدولة الوطنية ، مركز البحوث العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ م .

٧٥ ــ سعد مرسى أحمد ، تطور الفكر التربوى ، عالم الفكر ، القاهرة ، سنة ١٩٧٠ م .

٧٦ ــ ستانلى ليبنول ، سيرة القاهرة ، ترجمة حسن ابراهيم وآخرين ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ م .

٧٧ ــ سعيد عبد الفتاح عاشور ، تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٥١ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٣ م .

٧٨ ــ سعد زهران ، فى اصول السياسة المصرية ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٥ م .

٧٩ ــ سعيد زايد ، على مبارك واعماله ، الألف كتاب ١١٩ ، مكتبة الأنجلو ، القاهرة ، د.ت .

٨٠ ــ سليم خليل النقاش ، مصر للمصريين ، جـ ٥ (٩ اجزاء) مطبعة المحروسة ، الاسكندرية ، د.ت .

٨١ ــ شوقى جلال ، التراث والتاريخ ، سينا للنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ م .

٨٢ ــ شحاتة عيسى ابراهيم ، الكتاب الأسود للاستعمار البريطانى فى مصر ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥ م .

٨٣ ـ صالح رمضان ، الحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) منشأة المعارف ، الاسكندرية ، سنة ١٩٧٧ م ٠

٨٤ ـ صبحى وحيده ، فى اصول المسألة المصرية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ م ٠

٨٥ ـ طاهر عبد الحكيم ، الشخصية الوطنية المصرية ، قراءة جديدة لتاريخ مصر ، الكتاب الأول ،دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ م ٠

٨٦ ـ عبد العزيز عز العرب ، الاقتصاد السياسى للقهر ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٩١ م ٠

٨٧ ـ عبد الرحمن الرافعى ، عصر محمد على ، دار المعارف ، ط ٥ ، القاهرة ، سنة ١٩٨٩ م ٠

٨٨ ـ ـــــــــ ، عصر اسماعيل جزءان ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٣٩ م ٠

٨٩ ـ عبد الرحمن الرافعى ، الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٩ ، ط ٢ ٠

٩٠ ـ عبد الله عبد الدائم ، نحو فلسفة تربوية عربية ، الفلسفة التربوية ومستقبل الوطن العربى ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٩١ م ٠

٩١ ـ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، الريف المصرى فى القرن الثامن عشر ، ط ٢ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ م ٠

٩٢ ـ ــــــــــــ ، فصــــول من تاريخ مصر الاقتصـــادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ، سلسلة تاريخ المصريين ، العدد ٣٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القــاهرة ، سنة ١٩٩٠ م ٠

٩٣ ـ على سالم النباهين ، نظام التربية الاسلامية فى عصر دولة المماليك فى مصر ،دار الفـكر العــربى ، القـــاهرة ، سنة ١٩٨١ م ٠

٩٤ ـ على عبد الواحد وافى ، لمحة من تاريخ الأزهر ، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ م ٠

٩٥ ـ عمر عبد العزيز عمر ، تاريخ مصر الحـديث والمعـاصر ١٥١٧ ـ ١٩٩١ م ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية ، سنة ١٩٩٣ م ٠

٩٦ ـ عبد الرحمن زكى ، الجيش المصرى فى عهد محمد على باشا الكبير ، القاهرة ، سنة ١٩٣٩ م ٠

٩٧ ـ ــــــــــــ ، التاريخ الحربى لعصر محمد على الكبير ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٠ م ٠

٩٨ ـ عبد العظيم رمضان ، الجيش المصرى فى السياسة ١٨٨٢ ـ ١٩٣٦ م ، الهيئـة المصرية العامة للكتـاب ، القـاهرة ، سنة ١٩٧٧ م ٠

٩٩ ـ ــــــــــــ ، صراع الطبقات فى مصر ١٨٣٧ ـ ١٩٥٢م المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر ، القـاهرة ، سنة ١٩٧٨ م ٠

١٠٠ ـ عمر طوسون ، صفحات من تاريخ مصر فى عهد محمد على،

الجيش المصرى البرى والبحرى ، مطبعة دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٤١ م .

١٠١ – ــــــــــ ، **البعثات العلمية فى عهد محمد على ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد** ، مطبعة صلاح الدين ، الاسكندرية ، سنة ١٩٣٤ م .

١٠٢ – على مبارك ، الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة وبلادها القديمة والشهيرة ، جـ ٤ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٨٨٦ م .

١٠٣ – على الجريتلى ، تاريخ الصناعة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٥٢ م .

١٠٤ – **عبد العزيز محمد الشناوى ، السخرة فى حفر قناة السويس** ، ط ٣ ، منشأة المعارف ، الاسكندرية ، سنة ١٩٦٦ م .

١٠٥ – على بركات ، تطور الملكية الزراعية فى مصر ١٨١٣ حتى ١٩١٤ وأثره على الحركة السياسية ، دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، سنة ١٩٧٧ م .

١٠٦ – عبد اللطيف أحمد حمزة ، الصحافة المصرية فى مائة عام ، دار الحكمة ، القاهرة ، د.ت .

١٠٧ – ــــــــــ ، **أدب المقالة الصحفية فى مصر** ، جـ ١ ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٥٥ م .

١٠٨ – عايدة ابراهيم نصير ، حركة نشر الكتب فى مصر فى القرن التاسع عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٤ م .

١٠٩ ـ عبد الرحمن سامى عصمت ، الصهيونية والماسونية ، مطبعة رمسيس ، الاسكندرية ، سنة ١٩٥٠ م ٠

١١٠ ـ عفاف لطفى السيد ، تجربة مصر الليبرالية ١٩٢٢ ـ ١٩٣٦ ، ترجمة عبد الحميد سليم ، المركز العربى للبحث والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ م ٠

١١١ ـ عزت قرنى ، العدالة والحرية فى فجر النهضة العربية الحديثة ، عالم المعرفة ، رقم ٣٠ ، الكويت ، ١٩٨٠ م ٠

١١٢ ـ عبد الله العروى ، مفهوم الدولة ، المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء ، سنة ١٩٨٣ م ٠

١١٣ ـ ـــــــــــــ ، مفهوم الحرية ، المركز الثقافى العربى ، الدار البيضاء ، سنة ١٩٨٣ م ٠

١١٤ ـ عبد الله النديم ، كان ويكون ، ج ١ ، مطبعة المحروسة ، القاهرة ، سنة ١٨٩٢ م ٠

١١٥ ـ على فهمى كامل ، مصطفى كامل فى ٣٤ ربيعا سيرته وأعماله ، ج ٣ ، (٦ أجزاء) مطبعة اللواء ، القاهرة ، د٠ت ٠

١١٦ ـ غالى شكرى ، النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٢ م ٠

١١٧ ـ فؤاد زكريا ، آراء نقدية فى مشكلات الفكر والثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥ م ٠

١١٨ ـ فوزى درويش ، اليابان الحديثة والدور الأمريكى ، مطابع غباشى بطنطا ، سنة ١٩٩٤ م ٠

١١٩ ـ فورسية ، هذه هى الماسونية ، ترجمة بهيج شعبان ، دار بيروت ، بيروت ، سنة ١٩٥٥ م ٠

١٢٠ ـ فيليب حتى ، خمسة آلاف سنة من تاريخ الشرق الأدنى، ج ١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، سنة ١٩٨٤ م ٠

١٢١ ـ كمال حامد مغيث ، مصر فى العصر العثمانى (١٥١٧ ـ ١٧٩٨) مركز الدراسات والعلاقات القانونية لحقوق الانسان ، القاهرة ، سنة ١٩٩٧ م ٠

١٢٢ ـ كلوت بك ، لمحة عامة الى مصر ، جـ ١ ، ترجمة محمد مسعود ، دار الموقف العربى ، ط ٢ ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ م ٠

١٢٣ ـ كرم ثابت ، محمد على ، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ، القاهرة ، د٠ت ٠

١٢٤ ـ لويس عوض ، تاريخ الفكر المصرى الحديث ، الخلفية التاريخية ، ط ٢ ، دار الهلال ، القاهرة ، ابريل سنة ١٩٦٩ م ٠

١٢٥ ـ ــــــــــــ ، المؤثرات الأجنبية فى الأدب العربى الحديث ، معهد الدراسات العربية العلمية ، م ٢ ، سنة ١٩٦٣ م ٠

١٢٦ ـ ليلى عبد اللطيف أحمد ، الصعيد فى عهد شيخ العرب همام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م ٠

١٢٧ ـ ليفين ز٠ك ، الفكر الاجتماعى والسياسى الحديث فى لبنان وسوريا ومصر ، ترجمة بشير السباعى ، دار ابن خلدون ، بيروت ، سنة ١٩٧٨ م ٠

١٢٨ ـ محمد فؤاد شكرى وآخرون ، بناء دولة محمد على ، السياسة الداخلية ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٨ م ٠

١٢٩ ـ ــــــــــ ، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر ، دار الفكر العربى ، القاهرة ، د٠ت ٠

١٣٠ ـ محمد عبد العزيز مرزوق ، الفنون الزخرفية الاسلامية فى العصر العثمانى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م ٠

١٣١ ـ محمد نور فرحات ، التاريخ الاجتماعى للقانون فى مصر الحديث ، ط ١ ، العصر العثمانى ، المطبعة الفنية ، القاهرة ، سنة ١٩٨٦ م ٠

١٣٢ ـ محمد سيد كيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى، دار الفرجانى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤ م ٠

١٣٣ ـ محمد طلعت عيسى ، أتباع سان سيمون فى فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر ، الدار القومية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ م ٠

١٣٤ ـ ــــــــــ ، الاشتراكية العربية والاشتراكية العلمية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥ م ٠

١٣٥ ـ محمد قاسم وآخرون ، اسماعيل بمناسبة خمسين عاما على وفاته ، وزارة المعارف العمومية ٠

١٣٦ ـ محمد شفيق غربال ، أعلام الاسلام ، محمد على الكبير ، دار المعارف الاسلامية ، القاهرة ، د٠ت ٠

١٣٧ ـ محمد محمود السروجى ، الجيش المصرى ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٧ م ٠

١٣٨ ـ مصطفى التونى ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصر الحديث ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٤ م .

١٣٩ ـ محمد فهمى لهيطة ، تاريخ مصر الاقتصادى فى العصور الحديثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٤٤م.

١٤٠ ـ مكى شبيكة ، تاريخ شعوب وادى النيل (مصر والسودان) فى القرن التاسع عشر ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٥ م .

١٤١ ـ محمد أنيس ، والسيد رجب حراز ، التطور السياسى للمجتمع المصرى الحديث ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٧١ م .

١٤٢ ـ محمد أحمد خلف الله ، على مبارك وآثاره ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٧ م .

١٤٣ ـ ــــــــ ، عبد الله النديم ومذكراته السياسية ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٦ م .

١٤٤ ـ محمد عودة ، القرية المصرية بين التاريخ وعلم الاجتماع ، القاهرة ، سنة ١٩٧٢ م .

١٤٥ ـ محمد عبد الكريم ، على مبارك حياته ومآثره ، مطبعة الرسالة ، القاهرة ، د.ت .

١٤٦ ـ محمد عمارة ، رفاعة رافع الطهطاوى ، رائد التنوير فى العصر الحديث ، دار المستقبل العربى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٤ م .

١٤٧ ـ محمود قاسم ، جمال الدين الأفغانى حياته وفلسفته ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت .

١٤٨ ــ مورو بيرجر ، البيروقراطية والمجتمع فى مصر الحديثة ، ترجمة محمد توفيق رمزى ، النهضة المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٥٩ م ٠

١٤٩ ــ محمد باشا المخزومى ، خاطرات جمال الدين الأفغـانى الحسينى ، المطبعة العلمية ، بيروت ، سنة ١٩٣٢ م ٠

١٥٠ ــ محمد عابد الجابرى ، نقد العقل العربى ، تكوين العقـل العربى ، دار الطليعة ، بيروت ، ط ٢ ، سنة ١٩٨٥ م ٠

١٥١ ــ محمود فهمى حجازى ، اصول الفكر العربى الحديث عند رفاعة الطهطاوى ، النهضـة المصرية العامة للكتـاب ، القاهرة ، سنة ١٩٧٤ م ٠

١٥٢ ــ محمد أنيس ، الدولة العثمانية والشرق العربى ، الأنجلو المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٨١ م ٠

١٥٣ ــ محمد رفعت رمضان ، تاريخ بلاد المشرق ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣ م ٠

١٥٤ ــ محمد رشيد رضا ، تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده ، ط ١ ، مطبعة المنار ، القاهرة ، سنة ١٩٣١ م ٠

١٥٥ ــ نبيل على ، العرب وعصر المعلومات ، عالم المعرفة (١٨٤) الكويت ، ابريل سنة ١٩٩٤ م ٠

١٥٦ ــ نوال قاسـم ، تطور الصناعة المصرية منذ عهد محمد على حتى عهد جمال عبد الناصر ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، سنة ١٩٨٧ م ٠

١٥٧ ــ نزيه نصيف الأيوبى ، الدولة المركزية فى مصر ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٨٩ م ٠

١٥٨ ـ هاملتون جب وهارولد بوون ، المجتمع الاسلامي والغرب ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، جـ ٢ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م ٠

١٥٩ ـ هشام شرابي ، مقدمات لدراسة المجتمع المدني ، دار الشروق ، بيروت ، سنة ١٩٨٥ م ٠

١٦٠ ـ هيلين آن ريفلين ، الاقتصاد والادارة في مصر في مستهل القرن التاسع عشر ، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨ ٠

١٦١ ـ يونان لبيب رزق وآخرون ، أوربا في عصر الراسمالية ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، سنة ١٩٩٠ م ٠

١٦٢ ـ يونان لبيب رزق، الأهرام ديوان الحياة المعاصرة ، جـ ١ ، مركز تاريخ الأهرام ، القاهرة ، سنة ١٩٩٥ م ٠

١٦٣ ـ ــــــــــــ ، رفاعة الطهطاوي وقضايا عصره ، مطبوعات جامعة عين شمس ، سنة ١٩٨٤ م ٠

١٦٤ ـ يحيى جلال ، مصر الحديثة ١٥١٧ ـ ١٨٠٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، سنة ١٥٨٥ م ٠

الدوريـــات :

١ ـ القاهرة ، مجلة الفكر والفن المعاصر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد ١١٩ ٠

٢ ـ اليقظة العربيـة ، روزاليوسف ، القـاهرة ، أول مارس سنة ١٩٨٥ ٠

٣ ــ الفكر العربى ، معهد الانماء العربى ، بيروت ، العددان ٣٩/٤٠ ٠

٤ ــ فكر ، مجلة فصلية للدراسات والأبحاث ٠

٥ ــ الآداب ، مجلة بيروتية ، العدد ٥ مايو سنة ١٩٧٤ ٠

٦ ــ دراسات تربويــة ، كتــاب غير دورى ، عــالم الكتب ، القاهرة ، نوفمبر سنة ١٩٨٥ ٠

٧ ــ الكاتب ، مجلة الثقافة الانسانية ، دار التحرير للطبــع والنشر ، القاهرة ، العددان ٥١/١٣٦ ٠

٨ ــ المجلة التاريخية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، المجلد ٢ سنة ١٩٨١ ٠

٩ ــ صحيفة الكلية الحربية ، العدد ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٠ ٠

١٠ ــ الأستاذ ، الأعداد : ٢ ، ٤ ، ٨ ، ٩ ، ١٣ ، ١٧ ، ٢٢ ، ٣٠ ٠

١١ ــ التنكيت والتبكيت ، الأعداد : ٣ ، ٤ ، ١٢ ، ١٤ .

١٢ ــ الفكر المعاصر ، مجلة شــهرية ، الهيئة المصرية العامــة للتأليف والنشر ، القاهرة ، العدد ٥١ ٠

١٣ ــ دراسات اشتراكية ، دار الهــلال ، القاهرة ، أغسطس سنة ١٩٧٨ ٠

١٤ ــ التربية الحديثة العدد ٤ سنة ١٩٣٧ م ٠

الموســـوعات :

موسوعة السياسة ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ٠

ثانيـا ــ المراجع الأجنبية :

1 — Abu Al-Futouh Radwan, Old and New forces in Egyptian Education, Burrau of Publications, Teachers college, Columbia University, New York, 1951.

2 — Heyworth Dunne, An Introduction to the History of Education in Modern Egypt. London, 1938.

3 — Chales Issawi, The Economic History of the Middle East, 1800 — 1917, the University of Chicago Press. 1966.

الفهـــرس

الموضوع **الصفحة**

الموضـــوع	الصفحة

صــدر من هــذه السلسلة

١ ـ **مصطفى كامل فى محكمة التاريخ ،**
د٠ عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٢ ـ **عــلى ماهــر ،**
رشوان محمود جاب الله ، ١٩٨٧

٣ ـ **ثورة يوليو والطبقة العاملة ،**
عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٨٧

٤ ـ **التيارات الفكرية فى مصر المعاصرة ،**
د٠ محمد نعمان جلال ، ١٩٨٧

٥ ـ **غارات اوروبا على الشواطىء المصرية فى العصور الوسطى**
علية عبد السميع الجنزورى ، ١٩٨٧

٦ ـ **هؤلاء الرجــال من مصر ، ج ١ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٧

٧ ـ **صــلاح الدين الأيوبى ،**
د٠ عبد المنعم ماجــد ، ١٩٨٧

٨ ـ **رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية ،**
د٠ على بركات ، ١٩٨٧

٩ ـ **صفحات مطوية من تاريخ الزعيم مصطفى كامل ،**
د٠ محمــد أنيس ، ١٩٨٧

١٠ ـ **توفيق دياب ملحمة الصحافة الحزبية ،**
محمــود فــوزى ، ١٩٨٧

١١ ـ **مائة شخصية مصرية وشخصية ،**
شــكرى القــاضى ، ١٩٨٧

١٢ ـ **هدى شعراوى وعصر التنوير ،**
د٠ نبيــل راغب ، ١٩٨٨

١٣ ــ **اكذوبة الاستعمار المصرى للسودان : رؤية تاريخية ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ط ١ ، ١٩٨٧ ، ط ٢ ، ١٩٩٤

١٤ ــ **مصر فى عصر الولاة ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيــة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٨

١٥ ــ **المستشرقون والتاريخ الاســلامى ،**
د. على حسنى الخربوطلى ، ١٩٨٨

١٦ ــ **فصــول من تاريخ حركة الاصــلاح الاجتماعى فى مصر : دراسة عن دور الجمعيــة الخيرية (١٨٩٢ ــ ١٩٥٢) ،**
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٨

١٧ ــ **القضاء الشرعى فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد نور فرحات ، ١٩٨٨

١٨ ــ **الجوارى فى مجتمع القــاهرة المملوكية ،**
د. على السيد محمود ، ١٩٨٨

١٩ ــ **مصر القديمــة وقصة توحيد القطرين ،**
د. أحمد محمود صابون ، ١٩٨٨

٢٠ ــ **دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراســلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،**
د. محمــد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨

٢١ ــ **التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،**
د. توفيــق الطويــل ، ١٩٨٨

٢٢ ــ **نظــرات فى تاريخ مصــر ،**
جمــال بدوى ، ١٩٨٨

٢٣ ــ **التصــوف فى مصر ابان العصر العثمــانى ج ٢ ، امــام التصوف فى مصر : الشعرانى ،**
د. توفيــق الطويــل ، ١٩٨٨

٢٤ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) .**
د٠ نجـوى كامـل ، ١٩٨٦

٢٥ ـ **المجتمـع الاسـلامى والغرب ،**
تاليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د٠ أحمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩

٢٦ ـ **تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثـة ،**
د٠ سعيد اسـماعيل على ، ١٩٨٩

٢٧ ـ **فتح العـرب لمصـر ، ج ١ ،**
تأليف : الفريد ج ٠ بتلر ، ترحمة : محمد فريد أو حديد ١٩٨٩

٢٨ ـ **فتـح العـرب لمصـر ، ج ٢ ،**
تأليف : الفريد ج ٠ بتلر ، ترحمة : محمد فريد أو حديد ١٩٨٩

٢٩ ـ **مصر فى عصر الاخشـيديين ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩

٣٠ ـ **الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٨٩

٣١ ـ **خمسون شخصية مصرية وشخصية ،**
شـكرى القـاضى ، ١٩٨٩

٣٢ ـ **هؤلاء الرجـال من مصر ، ج ٢ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩

٣٣ ـ **مصر وقضـايا الجنوب الافريقى : نظرة على الأوضـاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،**
د٠ خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩

٣٤ ـ **تاريخ العـلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصـور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،**
د٠ يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠

٣٥ ـ **أعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠

٣٦ ـ **المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،**
تأليف : هاملتون بووين : ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ **الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،**
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ **فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،**
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ **قصة احتلال محمد على لليونان (١٨٢٤ ـ ١٨٢٧) ،**
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ **الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،**
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ **محمد فريد : الموقف والمأساة ، رؤية عصرية ،**
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ **تكوين مصر عبد العصور ،**
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ **رحلة فى عقول مصرية ،**
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ **الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ **الحروب الصليبية ، ج ١ ،**
تأليف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ **تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية (١٩٣٩ ـ ١٩٥٧) ،**
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١
٤٧ ـ **تاريخ القضـاء المصرى الحديث ،**
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١
٤٨ ـ **الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،**
د. زبيدة عطـا ، ١٩٩١
٤٩ ـ **العلاقات المصرية الاسرائيلية (١٩٤٨ ـ ١٩٧٩) ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
٥٠ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ،**
د. سـهير اسـكندر ، ١٩٩٣
٥١ ـ **تاريخ المدارس فى مصر الاسـلامية ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافـة ، فى ابريل ١٩٩١) أعدهـا للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢
٥٢ ـ **مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر :**
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢
٥٣ ـ **اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة،**
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢
٥٤ ـ **الأقبـاط فى مصر فى العصر العثمانى ،**
د. محمـد عفيفى ، ١٩٩٢
٥٥ ـ **الحـروب الصليبيـة ج ٢ ،**
تأليف : وليم الصـورى : ترجمـة وتعليق : د. حسـن حبشى ، ١٩٩٢
٥٦ ـ **المجتمع الريفى فى عصر محمد على : دراسـة عن اقليم المنوفيـة ،**
د. حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٢

٥٧ ـ **مصر الاسـلامية وأهل الذمـة ،**
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٩٢

٥٨ ـ **احمد حلمى سجين الحرية والصحافة ،**
د. ابراهيم عبد الله المسلمى ، ١٩٩٣

٥٩ ـ **الراسمالية الصناعية فى مصر ، من التمصـير الى التاميم (١٩٥٧ ـ ١٩٦١) ،**
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ **المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٣

٦١ ـ **تاريخ الاسكندرية فى العصر الحديث ،**
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ **هؤلاء الرجـال من مصر ، ج ٣ ،**
لمعى المطيعى ، ١٩٩٣

٦٣ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية.**
تاليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسـعيد عبـد الفتـاح عاشـور ، اعدهـا للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ **مصر وحقوق الانسـان ، بين الحقيقة والافتراء دراسـة وثائقيـة ،**
د. محمد نعمـان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ **موقف الصحافة المصرية من الصهيونية (١٨٩٧ ـ ١٩١٧)**
سـهام نصـار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ **المراة فى مصر فى العصر الفاطمى ،**
د. نريمان عبد الكريم احمد ، ١٩٩٣

٦٧ ـ **مساعى السلام العربية الاسرائيلية : الأصول التاريخية .**
(ابحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس

الأعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، فى ابريل ١٩٩٣) ، اعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ **الحـروب الصليبية ، ج ٣ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمة : وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٣

٦٩ ـ **نبوية موسى ودورها فى الحياة المصرية (١٨٨٦ ـ ١٩٥١) ،**
د. محمد أبو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ ـ **أهـل الذمـة فى الاسـلام ،**
تأليف : أ.س. ترتون ، ترجمة وتعليق : د. حسن حبشى ط ٢ ، ١٩٩٤

٧١ ـ **مذكرات اللورد كلبرن (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة : د. عبد الرؤوف احمد عمرو ، ١٩٩٤

٧٢ ـ **رؤية الرحـالة المسلمين للأحوال المـالية والاقتصـادية لمصر فى العصر الفاطمى (٣٥٨ ـ ٥٦٧ هـ) ،**
أمينة احمـد امام ، ١٩٩٤

٧٣ ـ **تاريخ جامعـة القـاهرة ،**
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤

٧٤ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ج ١ ، فى العصر الفرعونى**
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤

٧٥ ـ **أهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الأول ،**
د. سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥

٧٦ ـ **دور التعليم المصرى فى النضـال الوطنى (زمن الاحتلال البريطـانى) ،**
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥

٧٧ ـ **الحـروب الصليبية ، ج ٤ ،**
تأليف : وليم الصـورى ، ترجمـة وتعليق : د٠ حسـن حبشى ، ١٩٩٤

٧٨ ـ **تاريخ الصحافة السكندرية (١٨٧٣ ـ ١٨٩٩) ،**
نعمات أحمد عتمان ، ١٩٩٥

٧٩ ـ **تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،**
تأليف : فريـد دى يونج ، ترجمـة : عبد الحميـد فهمى الجمـال ، ١٩٩٥

٨٠ ـ **قنـاة السـويس والتنـافس الاسـتعمارى الأوربى (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ،**
د٠ السيد حسين جلال ، ١٩٩٥

٨١ ـ **تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمـة يونيو الى نصر أكتوبر ،**
د٠ رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥

٨٢ ـ **مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونيـة ،**
د٠ سيدة اسماعيل كاشف ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٣ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٤

٨٤ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٢ ، القسم الأول ،**
أحمد شفيق باشا ، ط ٢ ، ١٩٩٥

٨٥ ـ **تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية (١٩٣٤ ـ ١٩٥٢)،**
د٠ حلمى أحمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ **تاريخ التجـارة المصريـة فى عصر الحريـة الاقتصـادية (١٨٤٠ ـ ١٩١٤) ،**
د٠ أحمد الشربينى ، ١٩٩٥

٨٧ ـ **مذكرات اللورد كليرن ، ج ١ ، (١٩٣٤ ـ ١٩٤٦) ،**
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د· عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥

٨٨ ـ **التذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،**
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥

٨٩ ـ **تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،**
د· عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥

٩٠ ـ **معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،**
د· نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦

٩١ ـ **تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،**
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة : عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦

٩٢ ـ **الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية (١٩١٩ ـ ١٩٣٦) ج ٢ ،**
نجوى كامل ، ١٩٩٦

٩٣ ـ **قضايا عربية فى البرلمان المصرى (١٩٢٤ ـ ١٩٥٨) ،**
د· نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦

٩٤ ـ **الصحافة المصرية والقضايا الوطنية (١٩٤٦ ـ ١٩٥٤) ، ج ٢ ،**
د· سهير اسكندر ، ١٩٩٦

٩٥ ـ **مصر وافريقيا ·· الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،**
(أبحاث الندوة التى أقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة) ، أعدها للنشر ، د· عبد العظيم رمضان

٩٦ ـ **عبد الناصر والحرب العربية الباردة (١٩٥٨ ـ ١٩٧٠)،**
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د٠ عبد الرؤوف أحمد عمرو

٩٧ ـ **العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ،**
د٠ ايمان محمد عبد المنعم عامر

٩٨ ـ **هيكل والسياسة الأسبوعية ،**
د٠ محمد سيد محمد

٩٩ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية (العصر اليونانى ـ الرومانى) ج ٢ ،**
د٠ سمير يحيى الجمال

١٠٠ ـ **موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،**
أ٠ د٠ عبد العزيز صالح ، أ٠ د٠ جمال مختار ،
أ٠ د٠ محمد ابراهيم بكر ، أ٠ د٠ ابراهيم نصحى ،
أ٠ د٠ فاروق القاضى ، اعدها للنشر : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان ٠

١٠١ ـ **ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،**
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ، اللواء/ عبد الحميد كفافى ، اللواء/ سعد عبد الحفيظ ، السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ **المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ،**
د٠ تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ **رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،**
د٠ على بركات

١٠٤ ـ **تاريخ العمال الزراعيين فى مصر (١٩١٤ ـ ١٩٥٢) ،**
د٠ فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ــ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية (١٨٠٥ ــ ١٩٨٧) ،
د٠ أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ــ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، ج ٢ ،
د٠ سليمان صالح

١٠٧ ــ الأصولية الاسلامية فى العصر الحديث ،
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال

١٠٨ ــ مصر للمصريين ، ج ٤ ،
سليم خليل النقاش

١٠٩ ــ مصر للمصريين ، ج ٥ ،
سليم خليل النقاش

١١٠ ــ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك) ، ج ١ ،
د٠ البيومى اسماعيل الشربينى

١١١ ــ مصادرة الأملاك فى الدولة الاسلامية (عصر سلاطين المماليك ، ، ج ٢ ،
د٠ البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ــ اسماعيل باشا صدقى ،
د٠ محمد محمد الجوادى

١١٣ ــ الزبير باشا ودوره فى السودان (فى عصر الحكم المصرى) ،
د٠ اسماعيل عز الدين

١١٤ ــ دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر ،
أحمد رشدى صالح

١٢٧ ـ **مقدمات الوحدة المصرية السورية (١٩٤٣ ـ ١٩٥٨) ،**
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ **معـــارك صحفيـــة ،**
جمـــال بدوى

١٢٩ ـ **الدين العـام (وأثره فى تطور الاقتصـــاد المصـــرى) (١٨٧٦ ـ ١٩٤٣) ،**
د٠ يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ **تاريخ نقابات الفنانين فى مصر (١٩٨٧ ـ ١٩٩٧)**
سـمير فريـد

١٣١ ـ **الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ (١٩٥٢ ـ ١٩٥٨)،**
تأليف : جايل ماير ، ترجمة : د٠ عبد الرءوف أحمد عمرو

١٣٢ ـ **دار المندوب الســامى فى مصر ج ١ ،**
د٠ ماجدة محمــد محمود

١٣٣ ـ **دار المندوب الســامى فى مصر ج ٢ ،**
د٠ ماجدة محمــد محمود

١٣٤ ـ **الحملة الفرنسـية على مصر فى ضــوء مخطوط عثمـانى للدارندلى ،**
بقلم : عزت حسن افندى الدارندلى ، ترجمة : جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ **اليهود فى مصر المملوكيـة (فى ضــوء وثائــق الجنيزة) (٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)**
د٠ محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ **أوراق يوســف صــديق**
تقديم : أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ **تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى**
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ **الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ،**
السيد يوسف

١٣٩ ـ **موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين ،**
بقلم : محمد قابيل

١٤٠ ـ **سياسة مصر فى البحر الأحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥ هـ/١٨١١ ـ ١٨٤٨ م ،**
طارق عبد العاطى غنيم بيومى

١٤١ ـ **وسائل الترفيه فى عصر سلاطين المماليك فى مصر ،**
لطفى احمد نصار

١٤٢ ـ **مذكراتى فى نصف قرن ، ج ٤ ،**
احمد شفيق باشا

١٤٣ ـ **دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م. ،**
د. منيرة الهمشرى

١٤٤ ـ **كشوف مصر الافريقية فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩)**
عبد العليم خلاف

١٤٥ ـ **النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥ م)**
د. منيرة الهمشرى

١٤٦ ـ **المرأة فى مصر المملوكية ،**
د. أحمد عبد الرازق

١٤٧ ـ **حسـن البنـا ٠**
متى ٠٠ كيف ٠٠ لمـاذا ؟
د٠ رفعت السـعيد

١٤٨ ـ **القديس مرقس وتاسيس كنيسة الاسكندرية .**
تاليف : د٠ سمير فوزى ، ترجمة : نسيم مجلى

١٤٩ ـ **العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن عشر ،**
حسام محمد عبد المعطى

١٥٠ ـ **تاريخ الموسيقى المصرية (أصولها وتطورها)**
د٠ سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ **جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة**
السـيد يوسـف

١٥٢ ـ **الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية**
(٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م)
د٠ محاسن محمد الوقـاد

١٥٣ ـ **الحروب الصليبية (المقدمات السياسية)**
د٠ علية عبد السميع الجنزورى

١٥٤ ـ **هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسـلامية فى العصور الوسطى**
د٠ علية عبد السميع الجنزورى

١٥٥ ـ **عصر محمـد على ونهضـة مصر فى القرن التاسـع عشر ١٨٠٥ ـ ١٨٨٣ ،**
د٠ عبد الحميـد البطـريق

١٥٦ ـ **تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الاسلامى حـ ٣**
د . سمير يحيى الجمال

١٥٧ ــ تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الاســــلامى والحديث حـ ٤

د . سمير يحيى الجمال

١٥٨ ــ نائب السلطنة المملوكية فى مصر (من ٦٤٨ ــ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٧ ــ ١٥١٧ م)

د . محمد عبد الغنى الأشقر

١٥٩ ــ حزب الوفد (١٩٣٦ ــ ١٩٥٢) حـ ١

د . محمد فريد حشيش

١٦٠ ــ حزب الوفد (١٩٣٦ ــ ١٩٥٢) حـ٢

د . محمد فريد حشيش

١٦١ ــ السيف والنار فى السودان

تأليف سلاطين باشا

١٦٢ ــ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ــ ١٩٥٣)

د . تمام همام تمام

١٦٣ ــ مصر والحملة الفرنسية

المستشار / محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ــ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ

(أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة « ٢٠ ــ ٢١ ديسمبر ١٩٩٧ »)

اعداد : أ . د . عبد العظيم رمضان

١٦٥ ــ التعليم والتغيير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر

سامى سليمان محمد السهم

رقم الايداع ١٩٩٩/١١٦٧٨

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 6405 — 4

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة